عيسى فتوح

أديبات عربيات

سِيَرٌ وَ دِراسات



الآنسة مي

الطبعة الأولى ١٩٩٤

عيسى فتوح

أدباء عرب

سِيَرٌ وَ دِراسات

الجزء الأول

إهداء

إلى زوجتي أسماء عربيلي

وبناتي

لينا ورنا ومايا وميرنا

اللواتي حققن لي أغلى

أمنياتي في الحياة.

عيسى

مقدمة

أحببت أدب السيرة وملت اليه منذ الصغر ، فكنت أبحث عن كل كتاب يضم سير العظماء من أدباء وشعراء وفلاسفة وقادة وفنانين وموسيقيين وعلماء ومفكرين ومخترعين . . . ثم دفعني هذا الميل إلى الاهتمام بسير الأديبات اللواتي تفوقن في الشرق والغرب ، وقد كتبت على مدى عدة سنوات عدة دراسات عن طائفة منهن ، نشرت بعضها في الصحف والمجلات السورية والعربية ، وبقي بعضها الآخر مخطوطاً ، ثم رأيت أن أجمع هذه الدراسات في كتاب ليكون في متناول أيدي المهتمين بأدب المرأة بشكل عام ، آملا أن أواصل الكتابة في هذا المجال ، فأتحدث عن طائفة أخرى من الأديبات والشاعرات المتفوقات لأثبت أن المرأة لاتقل نبوغاً عن الرجل في ميدان الأدب والشعر . . . وان كان عدد من تفوق منهن أقل نسبياً إذا ما قيس بعدد الرجال .

عيسى فتّوح

دمشق في ١٤ /١ /١٩٩٤

عيسى فتوح وكتاب أدباء عرب

تقديم

كوليت الخوري

إنه واحد من هؤلاء المعدودين الذين أرغبُ في الكتابة عنهم .

لا لأنه رفيق على هذا الدرب الطويل الذي حفرنا عليه خطواتنا ، فسرق منّا سنواتِ عمرنا ومازلنا نشعر بأننا في أوّله . . .

هذا الدرب المزهر الشائك . . . درب الأدب . . .

فأنا أعرف عيسى فتّوح منذ أن نوينا ذات يوم بعيد بعيد أن نعمّر بالحروف والكلمات عالماً خاصاً بنا . . . فسيحاً مضيئاً لا حدود له ولا سدود . . . نُثبّت فيه عروشنا . . . ونُسَخِّر له المستقبل . . . ونُطلّ منه على العالم . . .

التقيتُ به في أوّل الدرب . في أوائل الستّينات .

كنتُ أكتب في مجالات أدبيّة شتّى .

وكان يكتب . . . عن الذين يكتبون في شتّى مجالاتِ الأدب . . .

ومرّت السنوات .

مرّ العمر . . .

وما زلنا نسير على هذا الدرب الذي غرسْنا على جوانبه أصابعنا ، فسَمَقتْ قناديلَ ومناراتٍ . . .

نعم . . . كل هذا العمر . . .

وما زلنا . . . أنا أكتب . . .

وهو يكتب . . . إنما عن الذين يكتبون . . .

* * *

وأرغب في الكتابة عن عيسى فتّوح ليس فحسب لكونه إنساناً يتمتّع بأخلاق حميدة في زمن غدت فيه هذه الفئة من الناس أشبهَ بالقطع النادر . . . !

فعيسى فتّوح شخصٌ صادق بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ .

بل إنه صريح أكثر من اللزوم ـ أكتب هذا وأنا أبتسم ـ فلطالما وجّهت إليه أنا شخصياً ملاحظة بل عتاباً على صراحته الزائدة .

لكن عيسى لا يعرف المواربة ، لا يعرف الخبث . . . ولا يعرف حتى أن يخبّىء رأيه ، أو أن يخفي عنك أمرا . . .

فهو أمامَك كتابٌ مفتوح . . . لستَ في حاجة إلى تقليب صفحاته والنبش بين سطوره ، لكشفِ الغموض وحلّ الألغاز . . .

وهذا ما يجعل منه إنساناً تطيبُ لك معاشرته . . .

فضلاً عن أن عيسى يتمتّع بمزايا مشكورة . . .

فهو جدّي في حياته . . . منظمٌ .

مجتهد في عمله . . . دؤوب .

ربّ أسرة محبٌ متفانٍ . . .

مخلص لأصدقائه ، صاحب لهفة كما نقول . . .

وفي هذا الزمن الذي انقلبت فيه القيم والمفاهيم ، وغدا همُّنا أن نعرف كيف نتّقي شرّ من أحسنّا إليه . . .

يبقى عيسى من هؤلاء القلائل الذين لا ينسون من يمدّ لهم يداً وقت الحاجة . . .

* * *

وأرغب في الكتابة عن عيسى

ليس فحسب لكونه يتقن اللغة العربية .

وأنا أتخيل كل من يلمّ بهذه اللغة الغنية البديعة وقواعدها متفوقاً . . .

لأنه ، في رأيي ، يملك كنزاً لا كالكنوز . . .

كنزاً راسخاً فياضاً . . . قادراً وحده على أن يحمل صاحبه عبر التاريخ إلى عوالم المستقبل ، وأن يجعله يتنقل في أكوان سحرية . . . وأن يجد له ، حسب «القواعد» ، مكاناً في مصاف المرموقين . . .

وعيسى فتّوح المحيط بالأدب العربي يتقن قواعد اللغة . . . بل من الممكن أن نعتبره في اللغة مرجعا . . .

* * *

نعم . . . أرغب في الكتابة عن عيسى فتّوح ليس لأنه يتمتع بكل هذه الصفات ـ وهي مزايا تستحق أن نكتب عن صاحبها ـ

وإنما لسبب آخر أثّر في نفسي . . .

وهو أنه قضى هذا العمر الطويل يكتب عن هؤلاء الذين اختاروا طريق الأدب . . .
وما كتب عنه حتى الآن واحد من هؤلاء . . .
حوالي الأربعين سنة
وعيسى يتقصّى أخبار الأدباء والأديبات . . .
يبحث في الماضي عن أيامهم . . .
ينقّب فيها . . .
يلتقط منها لحظاتهم الهاربة . . .
يُرَمّمها . . . يجدّد صياغتها . . .
يعيد إليها الحياة . . .
ثم يُثَبِّتها بين دفّتي كتاب . . . فيمنح هؤلاء شيئاً من الخلود . . .

أقول هذا لأنّه ثبت حتى هذه اللحظة أنّ الكتاب هو ـ من الأحياء والأشياء ـ الأكثرُ بقاءً في هذه الدنيا الفانية . . .

وقد أعطانا عيسى حتى الآن ثلاثة عشر كتاباً . وأكثر من مئة سيرة ودراسة . . . تنتظر أن يضمّها غلاف . . .

وهاهم زملاؤنا الأحياء يتمرّون على صفحات مؤلفاته . . .

وأما الراحلون منهم ، فهم ما زالوا يتنفسون من خلال كتاباته ، ويعيشون بيننا بفضل دأبه واجتهاده . . .

* * *

عندما سألني عيسى فتّوح إذا كنت أرغب في أن أكتب مقدمة لكتابه هذا «أديبات عربيات» . . . وافقت على الفور .

لكنّني لم أخبره أن رغبتي هي أن أكتب عنه هو لا عن الكتاب . . .

فهذا الكتاب القيم الذي يقدّم لنا لمحة إلى حياة وآثار ثلاثٍ وثلاثين أديبة من نسائنا العربيات . . .

والذي بإمكاننا أن نعتبره نواةً لأيّ بحث طويل يريد أي كاتب راغب الخوض فيه . . .

هذا الكتاب سيجد من يكتب عنه .
بل كثيرون سيستعينون به في كتاباتهم ودراساتهم . . .
أما أنا
فقد أسعدني أن أتحدث عن الذي ألّف هذا الكتاب . . .

هذا الذي يطمح لأن يكتب سيرة كل الأديبات ـ كما فهمت منه ـ ولا يطمع في أن تكتب عنه أديبة واحدة . . .

هذا الأديب الذي يصرّ على أن يمد بالأسطر أعمارنا . . . إلى ما بعد الرحيل . . . الصديق عيسى فتّوح .

ـ دمشق في ٣١ / ٥ / ١٩٩٤

أسمى طوبي

١٩٠٥ - ١٩٨٣

ولـدت أسمى طـوبي في مـدينـة النـاصرة بفلسـطين عـام ١٩٠٥ ، ودرست في المدرسة الانكليزية اللغتين الانكليزية واليونانية ، أما اللغة العربية فقـد أتقنتها عـلى يدي والدها الذي كان شاعـراً يقيم في منزلـه الأمسيات الشعـرية والنـدوات الأدبية التي يلتقي فيهـا بعض شعراء النـاصرة وضواحيهـا ، وكـانت أسمى ـ التي ظهـرت عليها علامات النجابة والذكاء منذ صغرها ـ تلقي أمـام الضيوف مختـارات من شعر عنـترة العبسي ، مما جعلهـا تهـوى الشعـر ، وتكتسب الكثـير من الـطلاقـة والثقـة بـالنفس ، ولمـا شبت عن الـطوق أخـذت تـطالـع دواوين الشعـر العـربي قـديمهـا وحـديثها ، وتكتب في عـدد من الصحف والمجلات الفلسـطينيـة ، وتـذيـع بعض الأحاديث التربوية والتوجيهية من محـطة الاذاعة الفلسـطينية (هنـا القدس) حـول الصدق والواجب والشرف ، وتربية الأطفال .

انتقلت بعد الانتهاء من دراستها إلى مدينة عكا حيث لعبت دوراً بارزاً في الحركـة الوطنية الفلسطينية ، بعد أن أخذت هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة بـالازدياد ، فقد أسست مع زميلتها رُقيّة حقي زوجة الشاعر أبي سلمى (عبد الكـريم الكرمي) «الاتحاد النسائي العكّي» عام ١٩٢٩ وأخذت تعمـل جاهـدة ليل نهار مـع زميلاتهـا لتأمين الطعام والكساء لجرحى المعارك التي كانت تـدور رحاهـا بين العـرب واليهود الدخلاء ، حيث «مئات الأسر رجالها في الجبال يناضلون» .

كانت تؤلف المسرحيات المستمدة من تاريخ العرب البـطولي ، أو الجهاد المشرّف مثـل «نساء وأسرار» و«شهيـدة الاخلاص» لـترفع بهـا من معنـويـات المـواطنـين ، ولتكسب بعض المال لصندوق الاتحاد كي يستطيع أن يقوم ببعض الخدمات .

تقول أسمى في كتابهـا «عبير ومجـد» تحت عنوان «اتحـاد عكا» : «كـانت حفلات التمثيل تتحول إلى مهرجان وطني تُلقى فيه الخطب الحماسية ، يقبل عليها المواطنون من حيفا والقرى المجاورة إقبالاً يتكفل بموزد أكثر من جيد للاتحاد . . . أما واضعة التمثيليـة ومخرجتهـا (وهي أسمى) وزميـلاتهـا اللواتي يعـددن المـلابس بـأيـديهن للممثـلات بعد أن تنبش كتب التـاريخ بحثـاً عن صور لتلك المـلابس ، فقـد كـان يعزيهن جميعاً أن الاتحاد يتموّل على قاعدة : «بعرق جبينك تأكل خبزك» ، وإن كـان هو لا يأكل هذا الخبز» .

كان منزلها يتحول إلى مسرح قـائم قاعـد تتمرن الشـابات فيـه على التمثيـل حتى

يصلن إلى مستوى تردد معه الصحف أن هؤلاء الشابات لايفوقهن مقدرة في الفن إلا جوقة يوسف وهبي . . .

* * *

شغلت أسمى طوبي أمانة سر الاتحاد النسائي العكي منذ تأسيسه ، ثم آلت إليها رئاسة الاتحاد ، فسارت في المظاهرات وهي تنشد الأناشيد الوطنية ، واشتركت في المؤتمرات ، وأرسلت البرقيات الجريئة ، محتجّة على وضع البلاد والتآمر عليها ، وشكلت مع شاباتها فرق الإسعاف التي نزلت إلى الميدان بجرأة المتطوعات الباسلات ، واستمرت تكتب وتناضل ثمانية عشر عاماً حتى حدثت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، فغادرت عكا وأقامت في بيروت ، لكنها لم تنس فلسطين الجريحة التي ظلت هاجسها الدائم ، تهفو إليها بقلبها وفكرها وروحها ، وتناجيها من بعيد ، إلى أن أطفأ الموت عينيها عام ١٩٨٣ إثر انفجار في الدماغ .

* * *

عاشت أسمى طوبي طوال حياتها كتلة من النشاط الدائب ، والحركة المستمرة ، لايشغلها أي شاغل عن الكتابة والتأليف وتقديم الأحاديث الاذاعية في محطة الشرق الأدنى والاذاعة اللبنانية ، وقد غذت العديد من الصحف والمجلات اللبنانية بمقالاتها وترجماتها ، ولاسيما مجلة «صوت المرأة» ومجلة«دنيا المرأة» على مدى ثلاثة عقود ونيف .

كانت تملأ فراغها بالكتابة ، وتسهم في النشاط الأدبي والاجتماعي والوطني ، وبما أنها لم تنجب أولاداً فقد كرست حياتها لأعمال الخير والاحسان ومساعدة الآخرين والتضحية في سبيلهم .

* * *

لأسمى طوبي تسعة كتب هي على التوالي : الفتاة وكيف أريدها ١٩٤٣ ، على مذبح التضحية ١٩٤٦ ، المرأة العربية في فلسطين ١٩٤٨ ، أحاديث من القلب ١٩٥٥ ، الدنيا حكايات (مترجم) ، في الطريق معه (مترجم) ١٩٦٠ ، عبير ومجد ١٩٦٦ ، حبي الكبير (ديوان شعر) ١٩٧٢ نفحات عطر ١٩٧٥ وثماني مسرحيات هي : أصل شجرة عيد الميلاد ، مصرع قيصر روسيا وعائلته ١٩٢٥ ، صبر وفرج ١٩٤٣ ، نساء وأسرار ، شهيدة الاخلاص ، واحدة بواحدة ، القهار ، الابن الضال .

يعد كتابها «عبير ومجد» الذي أهدته إلى أمها الراقدة في تراب غريب تنتظر أن تعود إلى تراب الوطن ، أهم كتبها ، فقد تحدثت فيه عن بدايات العلم والمعاهد العلمية الوطنية في فلسطين ، وعن البعثات الأجنبية من فرنسية وانكليزية ، وألمانية وأميركية وروسية ويونانية وإيطالية . . . ثم عن الرائدات الفلسطينيات في مجالات الطب والمحاماة والصحافة والكيمياء ، وعن الجمعيات الوطنية والاتحادات النسائية ، والسيدات الفلسطينيات اللواتي لمعن في الشتات في ميادين الأدب والشعر والفن التشكيلي والموسيقى والخياطة وتدبير المنزل وفن الطبخ والتجميل والاذاعة والديكور . . . وختمت الكتاب ببحث عن المرأة الفلسطينية والفداء ، وآخر عن المرأة والتصوّف ، فالكتاب إذاً مسح شامل لكل الأنشطة التي قامت بها المرأة الفلسطينية منذ بداية عصر النهضة الحديثة حتى اليوم .

أما كتابها الأخير «نفحات عطر» الذي صدر عام ١٩٧٥ وأهدته إلى بلادها قائلة : «وتبقين في كل حين ، صلاة على شفتي ، صلاة المحب الأمين» ، فهو مجموعة مقالات قصيرة تتحدث فيها عن الطرق التي يحتفل فيها الناس بأعراسهم في العالم ، وبعد أن تحدثت عن أول عرس في التاريخ ، والأعراس في فجر الاسلام ، والهند ، وروسيا ، والدانمارك ، وإيسلندة ، وبورما ، وغينيا ، وهنغاريا ، وسيام ، تحدثت عن أجمل هدية عرس .

وفي الكتاب مقالات عن أول إضراب في التاريخ ، والتربية في اسبارطة ، وعن بعلبك ، وكتاب بربارة يونغ عن جبران (هذا الرجل من لبنان) ، والعصامية في بلادنا ، والملكة توموريس قاهرة كورش ، وعن الربيع وأول من عيّد له ، وأطول وأقصر ربيع ، وأول من أهدى الزهور وتزين بالورود ، وعمن وصف الربيع وتغنى به كروبرت براوننغ ، وشكسبير ، وثمبسن ، وصفي الدين الحلي ، والبهاء زهير ، والشريف الرضي ، وعمر الخيام ، وإيليا أبي ماضي . . .

أجمل مافي هذا الكتاب الطريف اللطيف الذي تفضلت باهدائي نسخة منه ، وصفها لمغارة جعيتا في لبنان التي «تنحت الهياكل ، وتقيم التماثيل على أبوابها ، وتنصب الشموع من حولها ، كأنها تخشى علينا نحن البشر مغبة الضلال ، فهي تود أن تهيء لنا . . . مصلّى» .

وتعبر عن إعجابها بها بقولها : «إنها منحة السماء لا للبنان وحده ، بل للدنيا كلها . . . صاغتها لتكسر عنفوان الإنسان المتفاخر ، وتخفف من غلوائه ، فهو لا

يستطيع أن يفعل مثلما فعلت» .

وتتحدث عن عيد الأم ، وعن الفتاة الأميركية الفقيرة «آنا جارفس» التي كانت أول من عيّد للأم ، ثم أصبح ذلك اليوم عيداً قومياً ترفع فيه الأعلام ، وتقدم الهدايا للأم . . . وعن «لامارتين» شاعر الحب والجمال الذي زار لبنان عام ١٨٨٣ وحل ضيفاً على الأمير بشير الشهابي في قصر بيت الدين ، ولاتزال الغرفة التي نزل فيها تحمل اسمه حتى اليوم .

وتنهي الكتاب بالحديث عن الأشياء الصغيرة في الحياة ، وكيف أنها تؤدي دوراً أكبر من حجمها : ناموسة تدخل في أذن الفيل فتجعله مجنوناً . . . زر في غرفة القبطان يضغطه فيحرك الباخرة إلى الأمام أو إلى الخلف . . . ثقب صغير في مركب يغرقه . . . هذه الأشياء الصغيرة هي عناصر العظمة الحقيقية ، والحياة نفسها مكونة من الأشياء الصغيرة .

* * *

ان كتابات أسمى طوبي هي بالاجمال انعكاس للأحداث التي مرت بها في حياتها ، وحياة وطنها وشعبها ، وصدى لمطالعاتها الدائمة ، وتنقيبها المتواصل في بطون الكتب والصحف والمجلات ، وتعليقات على ماكان يستدعي اهتمامها ويستوقفها من هذه المطالعات . . . كتابات تشد القارىء غير المتخصص وتريحه وتمتعه ، لأنها انتقتها بذوق الفنان الأصيل ، لفائدتها ، أو لطرافتها ، أو لغرابتها ، كما في مقالها «زوجة للبيع» الذي تحدثت فيه عن فلاح بريطاني عرض زوجته للبيع لأنه تزوجها لتكون سلواه ، فإذا بها تنقلب لتصبح لعنة عليه من السماء وشيطاناً رجيماً ! . . ثم تتابع الكلام على الأزواج الذين باعوا أو رهنوا زوجاتهم في الماضي بسبب الفقر المدقع . . .

* * *

لقد كوفئت السيدة أسمى طوبي على أعمالها الانسانية ، وجهودها الكبيرة ، وتضحياتها الجسيمة باقامة حفلة تكريمية لها في فندق البريستول ببيروت في ٨ / ٤ / ١٩٧٣ ، قدم لها المطران اسبيريدون خوري متروبوليت زحلة وبعلبك وتوابعها خلالها وسام قسطنطين المعظم من رتبة ضابط أكبر ، وكانت أول سيدة تمنح هذا الوسام في العالم ، وألقى الشاعر القروي قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

خلقت لكل محمدة مجالاً   ففضلك ليس يُحصر في مجالِ

فكم ألفتِ من سِفْرٍ مفيد ... وديوان من السحر الحلالِ
وكم تركت يمينك في الملاجي ... وعادت تشتكي حسر الشمال
وكم فندتِ في التاريخ زعماً ... وأدميت العدو بلا قتال
فلسطينية وكفاكِ فخراً ... بأقدس تربة وأعز آلِ
فما رد الوسام إليك بعض ـ ... الذي قدمت من أدب ومال
ولو ذكروا الذي لك من أيادٍ ... غنيت بهن عن ألف احتفال
ولكنا رأينا الشكر فرضاً ... لمن قدروك يا أخت الرجال

* * *

هذه هي السيدة أسمى طوبي التي ملأت دنيانا بعطاءاتها ، ثم رحلت بصمت قبل أن تكتحل عيناها برؤية علم فلسطين يرفرف في الناصرة وعكا اللتين رعتا طفولتها وفتوتها وشبابها ، فلسطين التي قالت فيها : «كل ذرة من ذرات جسدي هي من ترابها ، وكل ذرة من ترابها هي من جسدي ، يوم جبل الطين فتساقطت منه بقايا» .

* * *

ألكسندرة الخوري (أفرينوه)

١٨٧٢ - ١٩٢٧

ولـدت الكسندرة قسطنطين نعمـة الله الخوري في بـيروت عام ١٨٧٢ ، وتلقت علومها في مدرسة راهبات المحبـة ، والمدرسـة الأميركيـة . قدمت إلى الاسكنـدرية وهي في العاشرة من عمرها ، فدخلت مدرسة الراهبات ، وأتقنت اللغتين الفرنسية والايطالية ، غير أن حب الوطن غلب عليها ، فلم تهمل لغة بلادها ، لذلك جاءت بمعلم يعلمهـا آداب العرب ، ويـطلعها عـلى آثارهم وأسرار فصـاحتهم ، ويقـوّي عندها ملكة النظم والنثر حتى برعت فيهما ، وأجادتهما إجادة تامة .

ولما بلغت السادسة عشرة من عمرهـا ، تزوجت من نبيـل أجنبي هو ملتيـادى ده افـرينو ، فـأفسح لهـا مجال الانـطلاق في دنيا الأدب ، ولم يشغلهـا الزواج وانجـاب الأولاد عن طلب العلم ، ولا ألهاها عن الأدب ، فانكبت على المطالعة ونـظم الشعر الذي ورثته عن والدها وأولعت به صغيرة ، حتى إنها قالته وهي في الثـالثة عشرة من عـمرها .

أحبت أن تدخل عالم الصحافة ، ولاسيما حين رأت المرأة العربية تتخبط في ظلام الجهـل والأسر والعبوديـة ، فأنشـأت في ٣١ كانـون الثاني سنـة ١٨٩٨ مجلة «أنيس الجليس» التي عاشت عشر سنوات ، ونالت من الصيت البعيد والسمعة الحسنة ما لم تنله مجلة نسـائية سـواها قبـل ذلك العهـد ، كما أنشـأت إلى جانبهـا مجلة «لوتـوس» بالفرنسية ، وقد اتخذت من مجلتيها المذكورتين منبراً حراً للدفاع عن المرأة العربيـة ، فراحت تناضل لتسترد حقوقها ، ولم يكن انتشـار مجلتها «أنيس الجليس» بـين النساء بأقل منه بين الرجال ، فأقبل الأدباء والأديبات على اقتنائها وقراءتها والكتابـة فيها ، حتى احتلت مـرتبة عـالية لم تحتلهـا أية مجلة أخـرى ، كما عـرفت الصحف الأجنبيـة قَدْرها ، فراحت تتسابق إلى نشر صور أغلفتها ، كمجلة المجـلات الفرنسيـة ومجلة «كران موندو» الايطالية ، ومجلة «مدام» الانكليزية ، ومجلة «فيمينا» ، ومجلة «آرتي» عدا مجلات أميركا ومصر وسورية .

كذلك لعبت دوراً كبيراً في دفع بنات عصرها إلى دخول المدارس ، ونالت مقامـاً رفيعـاً في عالم الأدب ، ولقيت حـظوة من السلطات الحاكمـة ، فلما التـأمت جمعيـة السلـم العام سنة ١٩٠٠ في بـاريس ، انتدبت لتمثيـل سيدات مصر فيهـا ، وكانت الأميرة الايطالية «فيزينـوسكا» رئيسـة تلك الجمعية ، فتعـرفت ألكسندرة عليهـا ، وحـظيت بصداقتهـا ومحبتها وثقتهـا ، ولما لم يكن لـلأميرة أولاد يـرثـون عنهـا لقبهـا

الشريف ، فقد أعلنت في وصيتها الأخيرة عن رغبتها في أن ينتقل لقب الامارة بعد وفاتها إلى السيدة ألكسندرة ، مع الحق بتسلسل هذا اللقب في أسرتها بعد وفاتها .

كانت مولعة بالسياسة وشؤونها ، وقد كتبت مقالات رنانة في جريدة «المؤيد» وغيرها تشهد لها بأفكارها الصائبة ، وخدماتها الوطنية والسياسية ، ومن شدة ولعها بالسياسة أنشأت جريدة «إقدام» لتخدم بها الوطن ، إلا أنها ألغتها لما عانته فيها من الخسارة والتعب ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى دعت النساء الوطنيات لمساعدة الجرحى فاستجيبت دعوتها .

ولصاحبة «أنيس الجليس» آثار أدبية أخرى ، فقد ترجمت رواية «شقاء الأمهات» ، وألفت مسرحية «أمانة الشعب» في خمسة فصول ، لكنها لم تطبع ، كما نظمت القصائد البديعة وطبعت على نفقتها ديوان الشيخ نجيب الحداد ومراثيه اعترافاً بفضله على مجلتها التي كان هو وأخوه الشيخ أمين يحرران فيها ، وديوان شعر «النحلة» للدكتور لويس صابونجي صاحب مجلة «النحلة» وكتاباً للسيدة عفيفة أظن .

قال عنها الكاتب الدمشقي سليم عنحوري في العدد الأول من مجلته «الشتاء» : إنها المرأة العربية الوحيدة التي أقدمت على أفضل مشروع أدبي علمي ، ونهضت بأعبائه خير نهوض ، وثبتت فيه أعواماً عديدة بهمة عالية ، عادت عليها وعلى بنات جنسها بالفائدة والنفع ، بينما نرى أترابها يصرفن الأيام جزافاً أمام المرآة ، وهن يحسبن سفر المرأة عيباً ، وارتزاقها بمهنة شريفة ذلا ، وقيامها بمشروعات خطيرة كالصحافة والخطابة والتأليف عاراً .

لم يصف الدهر للسيدة ألكسندرة الخوري ده أفرينو فيزينوسكا زمناً طويلاً ، إذ منيت بخسائر مادية فادحة ، فهاجر أولادها إلى بريطانيا طلباً للرزق ، ثم تبعتهم بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى أن توفيت في لندن عام ١٩٢٧ عن خمسة وخمسين عاماً .

* * *

لقد فتحت ألكسندرة منزلها في الاسكندرية لاستقبال الأدباء والشعراء والصحفيين ، وكان من أشهر رواد صالونها الأدبي الشاعر اسماعيل صبري ـ الذي كان أيضاً في طليعة رواد صالون مي زيادة ـ فقد أمضى هذا الشاعر عشر سنوات

محافظاً للاسكندرية ، ورئيساً لمحكمتها الأهلية ، فلنسمعه يخاطبها مشيراً إلى صالونها أو ناديها بقوله :

إن للفضل رونقاً وجمالاً   بهرا الحاضرين في ناديكِ
قد تفرّدت في الأنام برأي   غضّ من صوتِ معشرٍ جادلوكِ
انظمي الدرَّ يا سمية اسكندر   لأفُضَّ عقدهُ من فيك
وانثريه فالدر درٌّ وإن لم   يدخرهُ تجارةُ من سلوكِ .

ويتغزل بها فيرسل إليها قصيدة عاطفية رقيقة يقول فيها :

يا ربةَ الفضلِ يا فخر النساءِ وهل   ترضين إن قلتُ بل يا طلعة الفجر
يا أم اسكندرٍ بل يا سميتهُ   تيهي على دولة الأقلام وافتخري
هلا نظمت لنا شيئاً نقرُّ به   من ذلك الشعر بل من تلكم الدرر
هلا كتبت لأرباب النهى جملاً   تسير كالمثل الساري مدى الدهر
هل البدائع إلا ما جلوتِ لنا   من نفثة السحر أو من نفثة السحر

وإذا غاب عن صالونها هذا أرسل لها هذين البيتين :

باللهِ يمّمْ يا نسيم الصَّبا   بمصرَ عني دارَ اسكندرهْ
وحيِّها بين المها إن بدتْ   في سربها مقبلةً مدبرهْ

جليلة رضا

(١٩١٧ - ٢٠٠٠)

هي شاعرة مصرية ، ولدت في الاسكندرية عام ١٩١٧ ، وتلقت دروسها في المدارس الفرنسية ، وقرأت الشعر الفرنسي ، وحفظت منه قصائد كثيرة . بدأت حياتها بنظم الزجل قبل أن تدرس اللغة العربية ، ثم مالت إلى مطالعة الشعر العربي في الكتب والمجلات والدواوين حتى استقامت ملكتها الشعرية وتمكنت من النظم ، لكنها لم تكمل دراستها ، وكانت تقيم في حي «شبرا» بالقاهرة ، غير بعيد عن عيادة الشاعر الدكتور ابراهيم ناجي الذي أعجب بها وشجعها على مواصلة الكتابة ، واعتز بها حتى سماها «ناجي الصغير» .

كتبت الشعر الوجداني والوطني والقومي والاجتماعي ، وهي شاعرة مطبوعة ، ترسل قصائدها على سجيتها دون تكلف أو تصنّع ، وتصور مايدور في فكرها ، وما يجيش في نفسها بأسلوب عفوي واضح وسهل .

يغلب على شعرها النجوى والشكوى والحنين إلى الماضي ، والتغني بالأمل ، واللهفة على الحبيب ، وتبدي حيرتها من أمر الحياة ، وتفكر في سر الوجود ، وتحاول اكتناه الغامض فيه ، كما في قصيدتها «يا حبيبي» التي تقول فيها :

من أنا ؟ من أنت ؟ ما هذي الحياه ؟	ما هي الدنيا وما سر البقاء ؟
كرة حيرى بأطراف الإله	أم دمى يلهو بها كيف يشاء ؟
ربما نحن خيالات تجوب	في الدجى تستاف أنفاس الورود
في الربى . . حتى إذا حان الغروب	لست أدري أين نمضي أو نعود .

كما تعبر في شعرها عن اللوعة الباكية ، والحسرة الأليمة ، والظمأ الشديد إلى العطف والحنان منذ الصغر ، لأنها عاشت محرومة منهما .

* * *

أصدرت جليلة رضا ثلاثة دواوين هي : «اللحن الباكي» و«اللحن الثائر» و«الأجنحة البيضاء» عام ١٩٥٩ ، وقد أثبتت في هذه الدواوين كلها أنها شاعرة وجدانية جريئة ، استطاعت التعبير عن حالاتها الوجدانية وأشواقها وبدواتها في حرية وانطلاق ، كما في قصيدتها «وسأمضي» التي تقول فيها :

وسأرقص للفجر الساري
للطل على بدني العاري
وأمرّ على الشط المغري

وأعانق أمواج البحر
وسأرقص فوق سواعده
وسأرقص فوق وسائده
والموجة في رقصي سكرى
تغمرها العربدة الكبرى
لن أخشى أهوال مكاني
فالبحر له شط ثانِ

وحق لها أن تمضي متحررة طليقة ، فقد عاشت ولم تجد في طفولتها الحنان ، ولا في شبابها الإنسان الذي يفهمها ، وضاقت ذرعاً بالبيئة المتحجرة التي لا تقدّر عواطف المرأة وإنسانيتها وسموها على الرجل في انفعالاتها النبيلة : الحنان ، والمحبة والايمان بالمثل العليا .

شعر جليلة رضا مرآة صافية عكست كل ما لاقته في صباها وشبابها من غصص وآلام وعذاب وحرمان وإحباط وسيطرة الأخ والزوج ، فانطوت على نفسها ، وراحت تصعّد آهاتها الحرّى شعراً ينضح الأسى والحزن :

لاتلمني ، عشت كالقطة في أمسي ضريره
رهن حكم الأخ والزوج وأوضاعي أسيره
لم أذق من عطف أمي أو حنان الأب نهله
لم أكن أدرك إلا أنني روح مله
سئم الناس دجاها ومآسيها المريره

لقد قادها ظلم المجتمع وتجهم وجه الحياة ، وفقدان العطف والحنان ، وتنكر الأصدقاء والخلان ، إلى الانطواء على الذات ، واللجوء إلى الكتب تغرق روحها في أعماقها ، لا سمير لها سوى الليل الحالك ، والصمت الأخرس ، والأشباح الهائمة و . . . الشعر :

وانطويت الأمس ، لاخلٌ لنفسي غير نفسي
من صميم الذات أستوحي ومن عقلي وحسي
كل ركن من وباء الناس ، من جسمي محصّن
وبأعماق كتابي أغرق الروح وأُدْفَن
والدجى والصمت والأشباح خلاني ويأسي .

لم تلجأ إطلاقاً إلى تزوير مشاعرها وتكذيب أحاسيسها ، بل كانت واقعية ، أمينة مع نفسها ، ولم تحاول أن تختفي وراء أستار الخجل ، أو تنافق ، ومن هنا كان منبع الصدق في غزلها . فلنسمعها تخاطب حبيبها بمنتهى الصراحة قائلة :

حتى إذا اخترقت عيونك مهجتي ... أيقنت أنك رغم أنفي سيدي
لم أدرِ ماذا قلت أو قال الهوى ... لكن لمست حنان كفك في يدي
قد تعجز النجوى ورب إشارة ... جذبت عنيداً للهوى المتوقد

وحين لم تجد الشاعرة تجاوباً في قلوب البشر ، اتجهت بأنظارها إلى الله العلي ، الكلي القدرة ، الواسع الحب والرحمة ، الكامل الصفات ، لتبثه شكواها ونجواها ، محاولة أن تمتزج بذاته على طريقة الصوفيين وتحترق في نار حبه ، فحبه أوسع وأشمل وأكبر من كل حب آخر يعرفه البشر :

يارب إنك سيدي لك تنحني كل الجباه
عرفتُك روحي في الضياء وفي الجمال وفي شذاه
عرفتُك رباً كاملاً فوق الكمال وما علاه
يا رب إنك نبضة هي وحدها قلب الحياه
فلأمتزج بك مثل قلب نابض تسري دماه
لأكن هشيماً محرقاً من نار حبك من لظاه
لأكن كعشب غارق وسط البحيرة في المياه
تغنيه كثرة مائه ، ويميتني حب الإله

* * *

ولم تقف الشاعرة في شعرها عند التعبير عن مشاعرها الذاتية ، ولكنها عبرت كذلك عن مشاعر الناس ووجداناتهم ، كما قرنت هذه المشاعر بحبها المطلق لله ، وتصفو روحها وتشفّ فتقرن هذه المشاعر بحبها للإنسانية وللطير المسكين - كما يقول الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي - وآية ذلك قصيدتها «الدجاجة» ، وهي تربط شعورها الأليم بالشعور الانساني المرهف في هذه القصيدة التي تقول فيها :

ويروح يذبحها وفي كفيه عزم لا يلين
فترفرف المسكينة اللهفى وتهمد في سكون
رحماك يا ربي وأنت لنا الرحيم الأكبر
رحماك ! هل هذي الدجاجة حين تذبح تشعر

عفواً ، فكم سألتك نفسي في عناد حائر
ما سر حكمتك الرهيبة في عذاب الطائر
أيقنت أن لكل فرد في الوجود هنا نهايه
أيقنت ! أومن أنه في كل ما سددت غايه .

لم يصفُ الدهر لجليلة رضا ، فقد تزوجت ثلاث مرات . كان زوجها الأول قاضياً ، رزقت منه ولداً متخلفاً عقلياً وابنة ، ثم انفصلت عنه وتزوجت الشاعر عبد الله شمس الدين ، لكنها تركته حين عرفت أنه متزوج وله عدد من الأولاد ، وأخيراً تزوجت الصحفي محمد السوادي الذي توفي منذ سنوات .

جميلة العلايلي

(١٩١١ - ١٩٩١)

ولدت في مدينة «المنصورة» بمصر ، حيث يرسم النيل أجمل صوره الساحرة ، وأحبت الأدب منذ مطلع شبابها ، وأعانها على ذلك طبيعة شاعرة ، وبيئة علم وثقافة .

التهمت في سن مبكرة كل ما وقع في يديها من الانتاج الأدبي ، وبدأت تكتب منذ منتصف العشرينات من هذا القرن ، ففي عام ١٩٢٦ أصدرت أو ل كتاب لها ، وحين أتيحت لها فرصة الانتقال إلى القاهرة ، اندمجت في البيئات الأدبية ، وارتادت المحافل الفكرية ، وقد ربطتها صداقات أدبية متينة مع كبار الأدباء ، وكانت من رواد «جماعة أبوللو» التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، ومن الشاعرات اللواتي اعتز بهن ، وقد عهد إليها بالإشراف على مجلة «الأمام» عام ١٩٣٨ .

نشرت عددا من قصائدها في مجلات : أبوللو ، والرسالة ، والأديب ، ولمع اسمها وهي فتاة لم تبلغ العشرين ، وكانت من صديقات مي زيادة ، والمعجبات بالسيدة هدى شعراوي ، ومصطفى صادق الرافعي .

أصدرت بالاشتراك مع زوجها السيد ندا مجلة «الأهداف» التي استمرت تصدر أكثر من عشرين عاماً ، ومارست النقد الأدبي وكتابة القصة القصيرة والرواية ، لكن الشعر بقي عندها اللون المفضل ، تهيم به ، وتهفو إليه للتعبير عن عواطفها وخوالج نفسها ، وهي بالاضافة لذلك فنانة صادقة الحس ، رقيقة الشعور ، تعيش كل لحظة من حياتها ، وتسجل كل لحظة من وجودها .

* * *

عملت في مطلع حياتها مدرّسة ، إلى أن انتدبت عام ١٩٤٢ مديرة لمكتب المساعدات الاجتماعية في وزارة الشؤون الاجتماعية ، ثم اعتزلت الوظيفة ، وتفرغت للعمل الصحفي والشعر ، وقد اشتركت في عدة جمعيات أدبية بعد جماعة أبوللو ، مثل «جامعة أدباء العروبة» و«مجمع الأدب العربي» الذي انتخبت رئيسة له .

أحبت السياحة والرحلات فزارت سورية ولبنان وفلسطين ، وبعض الأقطار الأخرى ، وكان لها من هذه الرحلات زاد نفسي وثقافي كبير .

أصدرت عدة دواوين منها : «صدى أحلامي» و«كلام الله» و«أوبريت فلسطين» و«في طريق العودة» و«صدى إيماني» و«نبضات شاعرة» ومجموعة من الروايات منها :

«الطائر الحائر» و«هندية» و«أماني» و«الراهبة» و«الراعية» و«جاسوسة صهيون» و«أنا وولدي» و«من أجل الله» . . . وكان لها صالون أدبي يؤمه عدد من الأدباء والمثقفين في مصر .

اقتحمت السيدة جميلة العلايلي شعر الوجدان بشجاعة وصدق وإخلاص دون أن تستطيع التحرر كلياً من ربقة التقاليد العاتية ، كما تحررت بعدها الشاعرتان فدوى طوقان ونازك الملائكة ، لأنها ولدت في أسرة متدينة محافظة على التقاليد أرادت أن تعدها لإتقان شؤون المنزل ، وخلال دراستها الابتدائية مرض خالها ، بعد وفاة والدها ، فألزمها بمطالعة الصحف له ، وكان يحرص على مطالعة جريدة «الأهرام» فاسترعت انتباهها مقالات الأديبة مي زيادة ، فأخذت تطالعها بنهمْ وشوق ، وتستعين بخالها على فهم ما يصعب عليها من كتاباتها ، وهكذا اندفعت دون وعي إلى تصوير ما يحيط بها ، ويحدث لها في المدرسة والبيت ، وقد شجعها بعض أساتذتها على مواصلة الكتابة ، في حين نقدها بعضهم الآخر ، معتبرين جرأتها غير مشروعة ، وفي طليعتهم خالتها التي كانت تدرسها في المدرسة وتقيم معها في المنزل ، وكثيراً ما أوحت إلى أمها بإهانتها وإيذائها لأنها «تكتب عن الشروق والغروب وتهويم الفراش حول الزهرة وإغراء الضوء له ، ووصف أخلاق إحدى المدرسات وعلاقة أخلاقها بجمالها أو دمامتها» .

ورغم محاولة الأسرة إيقاف تيار أخيلتها وكتاباتها ، وإرغامها على دراسة التدبير المنزلي البعيد كل البعد عن الأدب والشعر ، فقد كانت تكتب خفية عن الأنظار ، بعد أن تختبىء في أي مكان !

تعلقت خلال دراستها بأدب مي زيادة ، إلى أن دعاها الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي إلى نشر أدبها وشعرها في مجلة «أبوللو» ، وكانت هذه الدعوة بدء انطلاقها الشعري ، وقد تخطت ظروف بيئتها القاسية ، وكتبت الشعر على استحياء ، وكثيراً ما كانت تلجأ إلى وأد عواطفها المتأججة ، لأنه كان محرماً على المرأة في الثلاثينيات أن تبوح بعواطفها ، وتسترسل في بث مشاعرها وتعبر عن معاناتها . . . وإذا ثارت العواطف في نفسها ، وشاءت أن تتمرد ، نسبت تلك التجربة إلى غيرها ، لتبعد عنها شبهة الحب المحرم ، كأن التعبير عن الحب والبوح بالعواطف الانثوية إثم أي إثم . تقول في حبيبها :

في عـالم الخـلد الجـمـيـل رأيـتـه كـالـوحي يسـطع في غـريب ظـلام
بتنـا كـروح واحـد مـتـلاصق فعـرفت طهـر تـلاصق الأجسـام
وسرحت ثمـة في نـعـيم جنـانـه ورشـفت مـن فيـه رحيق غـرامـي
وتـأود الـطيف الجميـل بـأذرعي فـرجمـتـه مـن حـرقـتي وضرامـي
قـد ظـل يـرشف من رحيق غـرامـه وظـللت أرشف مـن رحيق غـرامـي

* * *

يمتاز شعر جميلة العلايلي بالرقة والسهولة ، وصدق العاطفة ، والنزوع إلى الحرية والانطلاق ، والتأثر بالطبيعة والامتزاج بها ، وهي بذلك تذكرنا بالشاعر أبي القاسم الشابي ـ أحد أبرز شعراء جماعة أبوللو ـ وشعراء المهجر الشمالي كقولها :

وحدي وقفت على الربى كالطير في الليل البهيم
عشق الجمال فهام في الدنيا بأصداء النعيم
كم راح يخفق في الفضاء كأنه ملك الفضاء
وعلى الغصون الحالمات تراه يحلم في رجاء
كم راح في عشق الليالي هائماً بين الربى
يشدو بأنغام المحبة والسعادة والمنى
يشدو وحيداً في ليالي الصيف باللحن الجميل
فإذا الوجود وما به مصغٍ إليه في ذهول .

وفي قصيدتها «لحن» صرخة مدوية من الشكوى والنحيب والأنين والكآبة والاحتراق ، وإشراك الطبيعة بما تعاني من آلام وأوجاع مبرحة ، وتبرم بالحياة التي تدفعنا إلى الكفاح المضني ، في حين يجب علينا أن نحياها بامتلاء ، لأنها ماضية كالأحلام :

هـلا سمعت لقلبي وهـو ينتحب هـذا هـو اللحن مـا غنى بـه الأدب
فيـه الأنـين صـداه صـوت محـترق فيـه ابتسـامـة ثغـر وهـو مكتئب
نـدري العـواطف تحيـا في مشاعـرنـا وتلك عنـد سـوانـا كلهـا صخب
والـطير رق لحـالـينـا فـأسمعنـا شـدواً وشعـراً بـه الأرواح تلتـهب
والنهـر يحمـل منـا مـا يسيـل بـه في الشـاطئـين كـأمـواج بهـا لهب
مـا للحيـاة غـدت يـا خـلُّ تـدفعنـا إلى كفـاح بـه الأمـواج تصـطخب

تـلك الحيـاة كـأحـلام نـزاولهـا　　والعمـر يجري ودنيـا العيش تضـطرب

وتترحم في إحدى قصائدها على الشهيد الذي حمل روحه على راحته ، وسـار إلى غـايته ليحقق أمنيتـه الغاليـة ، ألا وهي الشهـادة في سبيـل الـوطن وتحقيق النصر ، وكيف أنه أمضى زهرة شبـابه وحيـاته القصيرة في النضال والحـرمان لينـال الخلود ، ويظفر بالذكر الطيب في النهاية :

وارحمتـا لشـهيـد بـات مكـرمـة　　أفنى الليـالي نضـالا ثم حـرمـانـا

الـله يـعـلم كـم نسري بـلوعـتـنـا　　نبكي الشهيـد بـدمـع بـات هتـانـا

حسب الشهيـد بنصر قـد أتـاح لـه　　ذكـرى الخلود فبـات اليـوم ريـانـا

توفيت جميلة العلايلي في ١١ نيسان سنة ١٩٩١ بعدما أقعدها المرض طويلاً .

* * *

جهان غزاوي عوني

(١٩١٦ - ١٩٥٦)

ولدت الأديبة جهان غزاوي عوني في طرابلس لبنان سنة ١٩١٦ ، وظهر ميلها إلى الكتابة والأدب في سن مبكرة ، إذ كانت تسجل انطباعاتها وخواطرها ومشاهداتها في الحياة ، وتضعها في قالب قصة قصيرة أو مقال .

درست في معهد الطليان بطرابلس ، لكنها اضطرت إلى ترك الدراسة قبل الأوان بسبب وفاة والدتها ، لتُعنى بأمور المنزل ، وتدبير شؤون الأسرة التي أصبحت بلا أم ، وماتت في أيلول سنة ١٩٥٦ .

عملت في تدريس اللغة العربية في مدارس طرابلس الرسمية عشر سنوات ، أي منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاتها . لم تطبع في حياتها القصيرة أي كتاب ، رغم أنها نشرت عشرات المقالات القيمة والقصص الجيدة في مجلات «صوت المرأة» و«الرسالة» و«الأديب» و«الآداب» ، وأنجزت قسماً كبيراً من روايتها «الجوهرة الدفينة» ومن دراستها الواسعة عن مي زيادة بعنوان «مي النابغة» فقد أحبت هذه الأديبة من كل قلبها ، وراحت تحصي وتجمع كل ما كتبت أو كُتب عنها في الصحف والمجلات ، وتنبرى للرد على كل من ينتقدها ، ولا سيما بعد محنتها الأخيرة ، وادخالها مستشفى العصفورية ، إلا أنها توفيت قبل أن تظهر هذه الدراسة إلى النور .

جرت بينها وبين الأديبة إملي فارس ابراهيم مناقشة واسعة على صفحات ملحق جريدة «التلغراف» الأدبي حول كتاب مي «المساواة» فقد اتهمت إملي مياً بأنها لم تنته في كتابها هذا إلى نتيجة واضحة حاسمة ، فتصدت لها جهان قائلة : «لتقل إنها لم تنته إلى نتيجة ترضيها هي ، وتوافق عليها هي ، وهذا لعمري ليس من شروط النقد في شيء . . . » .

وتقول في رسالة بعثت بها إلى الأديبة سميرة عزام في السادس من حزيران عام ١٩٥٥ ، وخصصتها تقريبا للحديث عن مي زيادة : «إن دراستي لمي ترجع إلى سنوات خمس ، جمعت فيها كتبها الأربعة عشر مع مجلدات عدة لمجلات الهلال والمقتطف والرسالة والمرأة الجديدة ، وما قيل عنها وفيها أثناء زيارتها لبنان سنة ١٩٢٢ ، وما قيل عنها أيضاً خلال نكبتها ، يوم حجر عليها ، وما قيل عنها وفيها بعد موتها المبكر» .

«أما رسائلها لجبران التي كانت في متحف «بشري» فلم يسبقني إليها إلا الأديب

حليم كنعان ، لكن بقية رسائل مي وجبران فما تزال محفوظة عندي ، مع صورة جميلة لمي في طفولتها ، وكذلك بضع بطاقات أرسلتها مي لجبران في بعض الأعياد ، تتجلى فيها نفسها الكبيرة ، وفلسفتها في الحياة ، ورأيها في فن جبران» .

وتدافع جهان عن مي فيما يتعلق بكبتها وطفولتها اليائسة وشذوذها ، وانها لم تفتح قلبها للحب فتقول : «أما تلك الطفرة اليائسة ، وأما ذلك الكبت المضني ، فلم ألمح لهما أثراً في كل ما كتبت مي . . . لقد قال فريق بشذوذها ، واتهمها بأنها لم تحب أحداً حتى ولا جبران» .

«وقال فريق آخر انها مسترجلة أتقنت كل شيء إلا أنها لم تفتح قلبها للحب ، وقال فريق إن سبب جنونها المباشر هو أن أحد أقربائها سرق منها رسائل جبران ، وقيل وقيل . . . كل هذا ولم يكلف أحدهم نفسه عناء درسها من خلال أدبها» .

قلت إن جهان غزاوي عوني كتبت في مجلة «صوت المرأة» اللبنانية عدة قصص ومقالات ، يوم كانت رئيسة تحريرها صديقتها الحميمة السيدة ادفيك جريديني شيبوب ، وقد عثرت في مجلدها لعام ١٩٥٢ على ثلاث قصص هي «هبة القدر» و«سعاد» و«ألعوبة الحياة» ، وعلى مقالين من النثر الفني الرفيع هما «صلاة» و«في ذكرى ملك حفني ناصف ومي» . تقول في مقالها عن مي : « . . . وكانت مي بحراً زاخراً يعب من الأنهار التي تتدفق فيه ، ولا يكاد يرتوي ويهيج ويموج بتأثير الأنواء المتلاطمة . ولكن عندما تدنو أمواجه من الشاطىء ، تدنو متأنية خفيفة فلا تكاد تلمس الرمال السمراء حتى تتراجع ململمة ذيولها خشية أن يكون قد علق فيها من الرمال ما يشوب بياضها . . . وهي إلى ذلك ما تفتأ تعيد الكرة مرة ومرة لتبلغ ما تريد من إصلاح المرأة والنظم والكون» .

وتتجلى في قصصها روح الأمومة الصادقة ، والعطف على الفقراء والمعذبين والمحرومين ، وعلى تلك المخلوقات الصغيرة الضعيفة التي لم تستطع أن تشق طريقها في الحياة بعد ، تقول في قصة هبة القدر : «أوه . . . ان ذلك الصوت شبيه بصراخ الاستجابة أو التوسل ، وقد تكون هذه الهرة صغيرة أضاعت في الليل الموحش أمها . . . وقد تكون خائفة جزعة ، أو جائعة تطلب أو . . . » .

أما قصتها «سعاد» التي أهدتها إلى صديقتها ادفيك شيبوب ، فتتحدث فيها عن طالبة فقيرة معدمة اسمها سعاد ، كانت احدى تلميذاتها في المدرسة ، وعبثا حاولت

أن تدعها تحمل معها دفتر الإملاء ، رغم تهديدها إياها بالصفر ، لأن والدها لم يكن يملك ثمن هذا الدفتر ، فهو بائع ترمس متجول . وبينما كانت المعلمة تسير في أحد الأزقة الفقيرة الضيقة ، رأت كهلاً يدفع أمامه عربة تحمل شيئاً من الترمس ، وحوله ابنة صغيرة ، فعرفت أنها تلميذتها الفقيرة النجيبة ، وأن بائع الترمس ما هو إلا والدها ، فعرّفتها به ، وبعد قليل حضرت أمها التي أصرت أن تأخذها إلى بيتها لترتاح قليلاً ، وترى بيتها البسيط المتواضع ، وأولادها السبعة الذين تتقاذفهم أكف البؤس والحرمان .

في أسلوب جهان غزاوي شفافية ورشاقة ، وفي لغتها سلاسة وعذوبة ، وميل إلى التصوير بالكلمات الشعرية التي تعرف كيف تنتقيها بأناقة ، وذوق رفيع ، وطبع سليم ، كقولها في مطلع قصتها «هبة القدر» : «أخذ الأفق يتنفس رويدا رويدا ، فران على الكون سكون موحش ، شبيه بسكون الموت ، عندما يلامس الجفون التعبة» .

ولا نراها تتخلى عن هذا الأسلوب الشعري في كل ما تكتب لأنه أبرز سمة تميز كتابتها . تقول تحت عنوان «صلاة» . . مناجية طيفه الغائب : «وكالسراب الخاطف ومضت مثلي ، واضمحلت كأنما لم تك يوما محرابي الذي اتجهت إليه ، منذ أن فهمت ما هي الحياة» .

«إيه أيتها الأحلام الخضر التي طالما هدهدتني على ذراعيك منذ طفولتي وشبابي ، وداعا إلى غير ما عودة ، لأنني أنكرت نفسي ونذرتها لسواي» .

لو مدّ الله في أجل هذه الكاتبة الموهوبة المبدعة ، لأعطتنا الكثير مما كان مقدراً لها أن تعطيه ، ولأغنت المكتبة العربية بمجموعة رائعة من مؤلفاتها في مجال الدراسة الأدبية والقصة القصيرة ، لكنها قصفت وهي في ريعان الشباب ، ولا نعلم ما حل بدراستها عن مي ورسائلها .

* * *

جوليا طعمة دمشقية

(١٨٨٣-١٩٥٤)

إذا استعرضنا رائدات الصحافة النسائية في الوطن العربي ، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم ، كانت السيدة جوليا طعمة دمشقية في الطليعة ، إذ تعتبر مجلتها «المرأة الجديدة» عاشر مجلة نسائية ظهرت في لبنان ، أما المجلات التي ظهرت قبلها ، وان لم تعش طويلا فهي :

١ ـ الفردوس ـ لويزا حبّالين ١٨٩٦
٢ ـ الأعمال اليدوية ـ الآنسة فاسيلا ١٩٠٨
٣ ـ العالم الجديد النسائي ـ أنجلينا أبو شقرا ١٩٠٩
٤ ـ مرشد الأطفال ـ عفيفة كرم ١٩١٢
٥ ـ فتاة لبنان ـ سليمة أبي راشد ١٩١٤
٦ ـ منيرفا ـ ماري يني ١٩١٧
٧ ـ فتاة الوطن ـ ماري زمّار ١٩١٩
٨ ـ الخدر ـ عفيفة صعب ١٩١٩
٩ ـ الفجر ـ نجلا أبي اللمع ١٩٢٠
١٠ ـ المرأة الجديدة ـ جوليا طعمة دمشقية ١٩٢١

أما أول مجلة نسائية ظهرت في الوطن العربي عامة فهي مجلة «الفتاة» لهند نوفل ، وذلك في مصر عام ١٨٩٢ ، وكانت قد هاجرت إليها من لبنان في جملة من هاجر من أعلام الصحافة ، طلباً للحرية ، كمريم مزهر صاحبة مجلة «مرآة الحسناء» ، وأستير مويّال صاحبة «العائلة» ، وأنيسة عطا الله صاحبة «المرأة» ، وروجينا عواد صاحبة «السعادة» ، وروز أنطون صاحبة «السيدات والبنات» ، ولبيبة هاشم صاحبة «فتاة الشرق» ، وملكة سعد صاحبة «الجنس اللطيف» . . .

* * *

ولدت جوليا طعمة دمشقية في قرية المختارة بلبنان عام ١٨٨٣ ، وتلقت علومها في مدرسة «الفنون» الأميركية في صيدا ، ثم انتقلت إلى «كفر شيما» حيث أكملت دراستها الثانوية ، وأصبحت معلمة فيما بعد ، لكن ميلها الشديد إلى الصحافة كان أقوى ، فراحت تكتب المقالات وتنشرها في مجلات : «فتاة لبنان» و«الحسناء» التي أسسها نصير المرأة جرجي نقولا باز عام ١٩٠٩ ، و«الفتاة» و«الفجر» . ولم تكتف باصدار مجلة المرأة الجديدة ، بل أصدرت إلى جانبها أول مجلة للأطفال هي «سمير الصغار» في أول كانون الثاني عام ١٩٢٥ ، ثم جريدة «النديم» عام ١٩٣٣ .

كذلك ألفت كتاب «مي في سورية» بمناسبة زيارة الأديبة مي زيادة لبنان وسورية عام ١٩٢٢ ومنذ ذلك الحين انعقدت بين الكاتبتين أواصر المودة والصداقة ، وراحتا تتبادلان الرسائل . . . أما المناصب الادارية التي شغلتها فهي رئاسة الاتحاد النسائي اللبناني .

تزوجت من السيد بدر دمشقية ، متخطية بذلك الشكليات الدينية والمذهبية وظلت تكافح من أجل رفع مستوى المرأة العربية ، إلى أن أصيبت بمرض عضال عام ١٩٣٤ أقعدها في الفراش عشرين عاماً حتى توفيت في بيروت سنة ١٩٥٤ عن واحد وسبعين عاماً .

مجلة المرأة الجديدة

لا أظن أن مجلة نسائية عربية صدرت قبل المرأة الجديدة أو بعدها استطاعت أن تضاهيها أو تكون في مستواها إخراجاً وشكلاً ومضموناً ، ويكفي أن نلقي نظرة على أبوابها الدائمة لندرك مدى رقي هذه المجلة الفريدة التي بذلت صاحبتها وقتها وجهدها في سبيلها ، حتى غدت في طليعة المجلات النسائية العربية ، فقرظها عشرات الكتاب والصحفيين كأسعد خليل داغر ، وجبران التويني ، وبولس الخولي ، وفيليب حتي ،وحليم دموس ، وبدوي الجبل ، وجميل صدقي الزهاوي ، وسليم سركيس ، وجبر ضومط ، ونقولا فياض ، وداود قربان ، ونعوم لبكي ، ونجيب مشرق ، ومحيي الدين النصولي ، مشيدين بمكانتها ، مقدرين فضلها وقيمتها ، أما أبوابها الدائمة فهي :

١ ـ مقال افتتاحي بعنوان «إلى ابنة بلادي» تحرره جوليا نفسها كل شهر ٢ ـ اللطائف الشعرية ٣ ـ العاملات في النهضة النسائية ٤ ـ البيت ٥ ـ أعمال النساء ٦ ـ أشغال يدوية ٧ ـ العلم والفن ٨ ـ الصحة والجمال ٩ ـ حكاية الشهر ١٠ ـ رسائل ١١ ـ عالم الأدب ١٢ ـ كل شيء ١٣ ـ حفظ الصحة والطب المنزلي ١٤ ـ أعظم الأشياء وأغربها ١٥ ـ مرآة الكون ١٦ ـ الأعمال الخالدة وأصحابها ١٧ ـ الفنون الجميلة ١٨ ـ حوادث وأخبار ، ثم أضافت إليها في مطلع السنة الخامسة ١٩٢٥ بابين جديدين هما : أسئلة الطفل والأجوبة عليها ، وتفسير الأحلام . أما باب سمير الصغار فقد

فصلته عن المجلة وجعلته مستقلاً في ست عشرة صفحة : يُهدى شهريا إلى مشتركي المجلة مع أجزائها دون زيادة في قيمة الاشتراك .

كانت غايتها من فصل باب سمير الصغار وجعله مجلة صغيرة تمكين الوالـدين من تسليم الطفل مجلته بقطع يتفق مع ذوقه وسنـه ، وتعويـده روح الاستقلال ، وحفظ أعداد المجلة نظيفة لأجل التجليد ، وتسهيل الاشـتراك في سمير الصغـار لمن يرغب من طلاب المدارس ، فلا يضطر إلى دفع بدل اشتراك المجلة بكامله .

تضمنت مجلة «سمير الصغار» فـوائد وطـرائف وأسئلةً وحكايـات وألعابـاً مفيدة تساعد على تهذيب الطفل وإنماء مداركه وتسليته ، وتقويم أخلاقه .

كـانت مجلة المرأة الجـديدة من أشهـر وأرقى المجلات النسـائية عـامة ، تصـدر بـانتظام في مـطلع كل شهـر على مـدار السنة ، وتحـوي من الأبحاث مـا يفيد ويمتـع الكـاتب والأديب ، والشاعـر ، والتاجـر ، والطالب ، والـطالبة ، وربـة المنزل ، والفتاة ، والصغار ، بالاضافـة إلى أخبار العـالم والاختراعـات ، وكل ذلـك في ثمان وأربعين صفحة من القطع الكبير .

لقد كانت الافتتاحيات التي تكتبها بعنوان «إلى ابنة بلادي» دروساً قيمة في أصول الأخلاق والتربيـة والتقويم والارشـاد ، فلنسمعها تقـول في افتتاحيـة عدد أيـار سنة ١٩٢٢ تحت عنوان «الجمال والمال» «سيدتي ، إني أغبطك على جمـالك الـطبيعي لأنه هبة إلهية لا يتمكن أمهر المتفننين من البشر أن يأتوا بمثله ، وإذا استطاعوا تقليـده فلا يستـطيعون أن يجعلوه دائـماً . لماذا ؟ لأن الجـمال الحقيقي لا يأتي من الخـارج بل من الداخل ، الجمال الخارجي مهما بلغ من البهرجـة ومظاهـر الثبات فـانه زائـل ، وإذا كان مجلوبا بمساحيق معدنية ترك أثرا يضر بالبشرة ضررا بليغا» .

«أمـا الجمال الحقيقي فمصـدره الدم ، وهـذا يتخذ قـوامه من الغـذاء والريـاضة والشمس والهـواء ، ومتى صح الـدم ، توردت الخـدود ، ولمعت البشرة ، فصارت وضاءة حسنة» .

وقالت في رسالة بعثت بها إلى مي زيـادة : « . . . نعم لقد قـرأت لك كتـابات كثيرة ، ولكنني أظنها صادرة لا من جسد بل من روح تحوم في فضاء مصر لا قرار لها لتهبط فيه ، ولا هيكل لتأوي إليه وعـلى هذا بقيت عنـدي روحا مجـردة من كل شيء مادي ، ولا أصدق وجود فتاة حقيقية باسم مي . . . أراك مثالاً لأعمالنا وجهادنا في سبيل النهضة النسائية في سورية ، وأنا على يقين تام أن ليس من سيـدة أخرى تخـدم

هذه النهضة الأدبية المنشودة بقدر ما تخدمينها أنت في كتاباتك السامية المؤثرة . . . وعلى رغمي أختم هذا الحديث مصافحة إياك بكل محبة وإخلاص» .

قالت عنها الأديبة اللبنانية اميلي فارس ابراهيم في كتابها «أديبات لبنانيات» :

« . . . إنها ما قطعت يوماً ذلك الخيط المتين الذي يشدها إلى أبناء وطنها ، تغضب لكرامتهم ، وتثور لحقهم ، توجه وتقود ، آية حس ، ورائدة مجتمع تبعث روح المثابرة على المضي في دفع القافلة إلى الأمام ، مقعدة ، كسيحة ، عيّية» .

* * *

روحيـــة القـــليـني

(١٩١٥ - ١٩٨٠)

ولـدت الشاعـرة روحيـة حسن القليني في الأول من آذار سنـة ١٩١٥ في مـدينـة «دسوق» بمصر ، وكان والدها شيخاً تقياً مستنيـراً ، فساعـدها عـلى شق طريقهـا ، وأرسلها إلى مدينـة «طنطا» لتتلقى تعليمهـا الابتدائي ، ثم إلى الاسكنـدرية لتتلقى تعليمها الثانوي ، وكانت ناظرتهـا في مدرسـة الأميرة «فـائزة» يـومئذ السيـدة نبويـة موسى التي شاركت في أكبر معارك تعليم الفتيات في مصر ، وتزعمت حـركة نسـائية كان لها أكبر الأثر في النهضة الحديثة ، فتشربت روحية منهـا روح الجهاد النسـائي ، ولما أنهت دراستها الثانوية انتسبت إلى جامعة القاهرة ، ونالت منها شهادة الليسانس في آداب اللغة العربية وعلومها سنة ١٩٤٢ .

سافرت بعد تخرجها إلى العراق لتعمل في حقل التعليم ، وتسلمت إدارة ثـانويـة الموصل للبنـات ، وبعد سنتـين عادت إلى القـاهـرة لتعمـل مـدرسـة في المـدارس الابتـدائية وتمـارس نشاطهـا النسائي بـالتعاون مـع السيـدة دريّـة شفيق ، وخليـل صابات ، وابراهيم عبده في مجلة «بنت النيل» .

تسلمت في عـام ١٩٤٥ الإشراف على صفحـة المـرأة في جـريـدة «الجمهـوريـة» وتعاونت معها السيدة عواطف البدري ، وفي هذا الوقت راودتها فكرة تأسيس اتحاد الجامعات على غرار اتحاد الجامعيـين الذي كـانت عضواً فيـه ، فتم لها مـا أرادت ، وصار الحلم حقيقة ، واستأجرت له مقراً في بناية سيف الدين بشارع البرجاس .

عانت روحية القليني كثيراً من العمل الوظيفي ، واستطاعت بفضل جهودهـا أن تنتقـل عام ١٩٥٧ من وزارة الـتربية إلى وزارة التعليم العـالي للعمل في تحـريـر مجلة العلاقات الثقافية الخارجية بادارة الوافدين ، وفي عام ١٩٦١ انتقلت نهائياً إلى وزارة الثقافة لتعمل في إدارة التفرغ ، إلى أن صارت مديرة عامـة له ، وقـد استطاعت من هـذا الموقـع أن تقدم العـون لعـدد من أدبـاء مصر ، وتخصص لهم رواتب شهـريـة ليتمكنوا من مواصلة العطاء مثل محمود أبو الوفا ، وجميلة العلايلي وغيرهما ، وذكر لي الأديب الصديق وديع فلسـطين في رسالتـه المؤرخة في ٢٦ /٣ /١٩٩٤ أنها «كـانت إنسانة كريمة في جميع تصرفاتها ، وحاولت خـدمة الأدبـاء واسعادهم بكـل ما أوتيت من طاقة ، وأنها كانت شديـدة البدانـة تفتقر إلى أي مسحـة من الجمال ، كـما كانت كليلة البصر ، ولم تـتزوج إلا في أواخر حيـاتها ، فكـان زواجـاً قصـير العمـر ، لأن زوجها توفي بعيد الزواج ، فلم تهنـأ بأنـوثتها كثيـراً ، ولكنها بـرغم هذا كله كـانت خفيفة الروح ، كثيرة الصداقات ، محبوبة من الجميع ، تتقبل النكتة حتى لـو كانت

جارحة ، وكان الشاعر صالح جودت يسميها «الشاعرة الفحلة» وكانت تحتمل منه هذا المزاح بصدر رحب وروح متسامحة» .

* * *

شاركت روحية في مؤتمرات الأدباء والشعراء في العراق والاسكندرية وبلغراد والسودان ، وألّفت كتابها «نساء عربيات» شعوراً بواجبها نحو جهاد المرأة العربية من أجل التحرير وحقوق الإنسان ، وأكد صديقها الدكتور عبد الفتاح الديدي[1] أنها واظبت على عقد ندواتها في جمعية الأدباء ، وشاركت بقصائدها في مجلات : الثقافة والرسالة ، وصارت عضواً في اتحاد الكتاب ، ولجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وأصدرت عشرة دواوين منها : أنغام حالمة ، لك أنت ، همسة الروح ، حنين إلى . . . ابتهالات قلب ، عبير قلب . . . كما ألفت كتاباً عن الأخطاء الشائعة في اللغة العربية ، وصارت صديقة لعدد من رائدات الشعر في مصر ورواده أمثال : جليلة رضا ، وجميلة العلايلي ، وملك عبد العزيز ، وحسن كامل الصيرفي ، وعامر بحيري ، والعوضي الوكيل وغيرهم . . .

نظمت روحية القليني الشعر الوطني والقومي ، واحترق قلبها بنار الحب والوجد ، فنظمت الشعر الغزلي الصادق والرقيق ، لكنها انكفأت في أواخر حياتها إلى الشعر الديني والصوفي الذي تتغنى فيه بالذات الالهية ، وتكثر من ذكر الجنة ، والآخرة ، والتقوى ، والاصلاح ، والخالق ، والايمان ، والخلود ، والغفران ، والصلاة ، والسجود ، والعفو ، والذنوب ، والهدى . . . وقد بدا ذلك جلياً في قصائدها : خشوع ، ضراعة ، عمق الايمان ، أنا ما انحنيت لغير وجهك ، دين العزة ، دعاء الفجر ، نجوى الرسول ، سنا السبحات ، عالم الغيب ، نصر الله ، قدرة الخالق ، ذكر الاله ، صلوات ، في ديوان «لك أنت» .

* * *

استهلت الشاعرة ديوانها «لك أنت» بأربع قصائد وطنية تضج بالحماسة والبطولة والثورة هي : رسالة من خط النار ، موعد بعد النصر ، إلى الميدان يا ولدي ، إلى ابني في المعركة .

تقول في قصيدتها «رسالة من خط النار» على لسان ابنها الرابض في جبهة القتال :

سآتي إليك حبيبة قلبي ، سآتي إليكِ فلا تقلقى

وصوني اللآلىء في مقلتيك وفي سبحات السنا حلّقي
بلادي وأنت هما كل حبي لغيركما القلب لم يخفق

وتعتذر لحبيبها الذي ظن أنها قد أخلفت الوعد ، ونسيت العهد ، وخانت الأيام الجميلة التي أمضياها معاً ، بألاّ يعتب عليها لأنها مشغولة عنه بحب وطنها الذي يناديها لتحميه بأهدابها ، وتصونه بمقلتيها ، وترد عنه كيد الأعداء قائلة :

أتظنني يا ظالمي قد خنت أيامي الجميله
ونسيت جاحدة عبير الهمس ترويه الخميله
بالله لا تعتب علي فإنني حيرى ضليله
هو موطني الغالي يناديني بأنات طويله
أجثو على قدميه أحميه بأهدابي الظليله
وأصونه في مقلتي وأرد عنه كل غيله
هو كل أحلامي وآمالي وأمجادي الأصيله
لاعشت يوماً بعده في ظل أيام ذليله
لأرد أمجادي إلى وطني بأعمالي الجليله

وتبلغ ذروة حماستها الوطنية ، وحميتها المتقدة ، واندفاعها القوي في قصيدتها «إلى الميدان يا ولدي» التي تقول فيها :

إلى الميدان يا ولدي إلى الميدان يا ولدي
فمن للأرض يحميها سوى الأبطال والأسد
ومن يقضي على الأعداء ذؤ باناً بلا عدد
ومن أغلى علي هنا لأهديه إلى بلدي
سوى ولدي الذي أرجو حمى يومي وحصن غدي

* * *

أما غزلها فيمتاز بالرقة ، والعذوبة ، والعفوية ، وصدق التجربة ، وحرارة العاطفة ، والاحساس العميق بالمعاناة ، كما في قصيدتها «عدت إليكَ» التي تقول فيها :

كلما حاولت أن أهرب من بين يديك شدني في قوة نور سرى من ناظريكْ
فسرى ملء كياني ، وتحدى كالزمان وتبدى كل ضعفي وانهزامي وحناني
وأراني يا حبيبي في الهوى عدتُ إليكْ

وتسبح في قصيدتها «عناق الأيدي» بدنيا الخيال حين تركت كفها في كفه ، فغامت في ضباب أحلامها ، ونسيت وجودها ، وعاشت في دفء هذه الكف أجمل اللحظات ، تنعم بندى الوصال :

وتركت كفي في يديه ورحت في دنيا الخيال
وودِدت لو تبقى تبوح بما يُقال ولا يُقال
تستاف عطر يديه تشربه وتحلم بالجمال
وتعيش في دفء اليدين قريرة بندى الوصال
وتنام بين يديه حالمة بأطياف الظلال
وإذا صحت تصحو على همس صداه ما يزال ،

وتتمنى من كفها أن تبقى عند حبيبها ، تشده كيما يعود إليها ، فينعش قلبها الذي أضنته أحلام الوعود ، ويخفق بنبض الحب من جديد :

يا ليتها تبقى لديه تشده كيما يعود
ليعود للقلب الذي أضنته أحلام الوعود
ليعود خفق الحب في لهف إلى قلب الوجود
أنا مذ رأيتك يا حبيب القلب أحيا من جديد
ونسيت كل الناس إلا أنتَ يا أملي الوحيد ،

* * *

حَسْبُ الشاعرة روحية القليني أنها كانت صادقة مع نفسها ، جريئة في بوحها وفي التعبير عن معاناتها ، وكان شعرها صدى لخفقات قلبها ، وانعكاساً للفح نار الحب التي اضطرمت في هذا القلب حتى أحرقته . . .

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كان ثمة رجل حقيقي يختفي وراء كل هذا الحب الصارخ ، أو أنها كانت تتخيل حباً وهماً يبتدعه خيالها وتصوره أحلامها الضبابية ، لتشيد عليه صروح شعرها ؟

يجيب الدكتور عبد الفتاح الديدي عن هذا السؤال بقوله : «كان الجالس إلى روحية ـ وكم جلست إليها على مدى خمسة وثلاثين عاماً ـ يحس أنها مولهة بحب مجهول دفين ، ولم تكن سعيدة بذكريات الحب وتجاربه في شبابها ، ولم تنطق مرة بفرحة العلاقات مع الشباب في سنها الأول وربيع عمرها ، ولكنها ظلت تعكس أحلاماً ، يخيل إلى من يسمعها أنها كانت تحتفظ في قلبها بحب خفي . . »[٢] .

* * *

يبدو أن الشاعرة روحية القليني قد ثابت إلى ربها بعد أن فشلت في حبها ، وضاعت أمانيها ، وتبددت أحلامها ، فلم تجد غير الله ملاذاً لها ، تبثه شكواها ، وتناجيه في حلمها ويقظتها ، وترتاح إن رددت اسمه ، ولهجت به سراً وعلانية قائلة :

أنا ما قصدتكَ مرة إلا وذللتُ الصعابا
وإذا لجأت إليك يصبح مطلبي أملاً مجابا
إن قلت يا ربي ترد مع الرضاء لي الجوابا
لبيت أمرك يا إلهي هل ترى أخشى الحسابا ؟
الليل يعرفني سهاداً بالتقى دمعاً مذابا
والفجر يشهد كيف أتلو بالضراعات الكتابا
فإذا هفوت فعفوك المرجو يلهمني الصوابا
أنّى اتجهت أراك يا ربي فتكشف لي الحجابا .

وهي تقضي الليل ساجدة ساهرة ، تتضرع إلى الله ، تستدر عطفه ، وتسبّح بحمده ليرضى عنها ، ويسدد خطاها ، ويذلل العقبات التي تعترض طريقها ، فهو مناها وهواها :

ربي جفوت النوم كيما أسهر الليلاتِ تسبيحاً وحمدا
وأرى بعين الحب وجهك مشرقاً يا رب ماأحلاه قصدا
في خلوتي يحلو الدعاء مع السجود وتنقضي الليلات وردا
ويشع نورك في سكون الليل يملأ خاطري حباً ووُدّا
ورضاك عني يا إلهي كم يحيل الشك في دنياي وَرْدا
ويذلل العقبات من حولي ويجعل كل ما أرجوه عبدا
يا رب أنت مناي ، أنت هواي ، أسلمت الأمور إليك عهدا

وترى أنها إن ذكرت الله تبسمت لها الحياة ، وإن رضي عنها ذابت آلامها وأحزانها ، وإن دعاه قلبها سهل الصعب في حياتها :

أنا إن ذكرت الله تبسم لي وتسعدني الحياه
وتذوب آلامي وأشجاني بفيض من رضاه
والصعب يسهل في حياتي كلما قلبي دعاه .

* * *

بقي أن نقول إن الشاعرة روحية القليني لم تعرف الأمومة في حياتها وماتت محرومة من الأطفال ، ودون أن تسمع كلمة «ماما» ترن في مسمعيها ، ويتردد صداها في حنايا صدرها .

لم ترزق ولداً يؤنس وحدتها ، ويبدد وحشتها ، ويلثم جبهتها ، ويسير خلفها إذا سارت ، ويحيا في ظل حنانها الدافق كما تقول :

أنا ليس لي ولد ليؤنس وحدتي
ويذيبَ وجدي من هجير اللوعة
ويدي يقبلها ويلثم جبهتي
ويسير خلفي يستنير بخطوتي
ويقول : أمي أنتِ دنياي التي
أحيا بظل حنانها في فرحتي
وتفوق موسيقاه أجمل نغمة
يشتاق إن طالت ليالي غيبتي
أحنو عليه وما أحن أمومتي !

* * *

هذه هي الشاعرة روحية القليني التي عاشت حياة عاصفة كما يعيش المناضلون وماتت بهدوء في ١٩ / ١٠ / ١٩٨٠ كما يموت الشعراء ، وقد لخص لنا الشاعر عامر بحيري في القصيدة الجميلة التي أهداها إياها ونشرها في العدد الثامن (آب) من مجلة «الأديب» اللبنانية عام ١٩٧٣ كل صفاتها النبيلة ، وسماها «مي» الجديدة ، وأشار إلى صالونها الأدبي الذي كانت تعقده في منزلها على غرار صالون مي قائلاً :

أندوة الفن ، أم روح وريحان ... للشعر فيه وحسن القول ميزان
يهفو إليها فؤادي كلما سنحت ... له إلى الفكر أشواق وأشجان
ألحانها الشعر والآداب راقية ... فما سواها لهذا القلبْ ألحان
هناك أسمع من «روح» قصائدها ... غراء كم ضمها كالروض ديوان
أبيت أصغي إلى «الأنغام حالمة» ... فيها من العطر تطريب وتحنان
وحين يسري «عبير القلب» يشملني ... من الشذى وجمال الورد بستان
أما الجديد فقلبي بات يرقبه ... وكم يجود به طبع ووجدان
على هدى الصدق في الاحساس ترسله ... مبرّأ النظم لم تخطئه أوزان

فيــه العـروبــة والإعـراب قــد جُمعـا	فـثـم بـعــدهمــا حـسـن وإحـســان
«مي» الجــديـدة تــدعـوني لنــدوتهـا	صــالـــونها من بــديــع الفن ألـــوان
في مجلس بجــلال الـفـكــر متـسـم	لــه الــفـضــائــل والآداب أركــان
وكــل مـن أمــه مثــلي يـصــافـحــه	فـضــل وعــلم وأخــلاق وإيمــان
من كـل شـاعــرة تـزهــو الحيـاة بهـا	وشــاعــر ذكــره في الــدهــر رنـان
تــديـر فيهم حــديثـاً تنتـقيــه لهـم	حــراً ، كـما يُنتـقى در ومــرجـان
يــا «روح» هــذا قصيــدي كله أدب	وفي ثنــايـاه تقـديـر وشكــران . .

* * *

(١) مجلة الثقافة (القاهرة) ـ العدد ٨٧ كانون الأول ١٩٨٠ ص٥٨ .
(٢) المصدر السابق صفحة ٥٩ .

روزعطا الله شحفة

ولدت في بيروت عام ١٨٩٠ من أبوين لبنانيين، وتعلمت في المدارس الأميركية في بيروت ، ومدارس الانكليز في برمانا ، وحين تزوجت عام ١٩٠٩ من السيد سرحان شحفة ، وهو سوري ، غادرت معه بيروت إلى دمشق ، حيث قامت بنشاط في الأوساط النسائية والأندية الأدبية التي كانت تدعوها للخطابة ، فتولت رئاسة نادي السيدات في دمشق التي أقامت فيها حتى عام ١٩٢٥ حين عادت إلى بيروت ، لكنها ظلت على اتصال وثيق بالحركة الفكرية والاجتماعية في سورية ، تدعى إليها من حين لآخر ، للاشتراك في الحفلات والمهرجانات .

لم تكن روز عطاالله كاتبة بالمعنى الصحيح ، ولم تمارس الكتابة إلا في المناسبات التي كانت تصادفها في حياتها الاجتماعية ، فقد كانت منذ صباها من أبرز الوجوه النسائية التي عملت في حقل الجمعيات والمؤسسات المختلفة حتى تولت عام ١٩٤٤ رئاسة الاتحاد النسائي اللبناني الذي كان يضم كل الجمعيات النسائية أو أكثرها .

ألقت في حياتها العديد من الخطب في أندية سورية ولبنان ومصر ، وكتبت بعض المقالات في مواضيع اجتماعية ، وقد قام نصير المرأة جرجي نقولا باز بجمع وتقديم هذه الخطب والمقالات في كتاب أسماه «وحي الأمومة» صدر عن دار صادر ـ ريحاني ببيروت عام ١٩٥٠ ضم أربعين خطاباً وعشر مقالات ، وهي ـ كما تقول ـ : «نفحات قلب سامره حب الوطن ، وشعور زوجة ، وعواطف أم ، قد اتخذت من المحبة والخدمة والاصلاح شعاراً» .

لقد دعت في خطبها ومقالاتها إلى الإصلاح والتحسين والنهوض والاستقلال ، وإلى التضحية في سبيل الحقوق والواجبات . . . وكانت في كل ما تكتب معتدلة ، واضحة الفكر ، صريحة البيان ، واسعة الخيال ، كثيرة الأماني ، سامية الآمال . . . كما عالجت كثيراً من القضايا الأدبية ، فتحدثت عن الوراثة وإصلاح النسل ، وواجبات المرأة في هذا العصر ، واحتفالات جامعة السيدات ، والنهضة النسائية ، والاتحاد النسائي ومؤتمراته ، وجمعية الشابات المسيحيات ، والعروة الوثقى ، ومتخرجات الجامعة والمدرسة الأهلية ، ونادي التعاون ومدرسة الأحد ، وعن المناعة الأدبية ، وتطور الأخلاق ، ومضار السينما والتدخين والمخدرات ، وأزمة الزواج ، والأمومة وقوة المرأة ، والمرأة والتصويت ، والمرأة وتربية النشء ، والنهضة النسائية ، ومقاومة المسكرات ، والمرأة والفن ، وحقوق المرأة السياسية ، والعادات والاقتصاد ، ومساعدة العاملات ، وعيد الاستقلال ، وذكريات مدرسة

برمانا ، والمدرسة الأهلية . . . كما تحدثت عن كل من : جرجي نقولا باز ، وجوليا طعمة دمشقية ، وماري عجمي ، وأليس قندلفت ، وأمينة الخوري ، ونجلا صعب ، وهدى ضومط ، ومي زيادة ، وهدى شعراوي . . .

* * *

قالت روز عطاالله شحفة في الكلمة التي ألقتها في استقبال الآنسة مي زيادة حين زارت دمشق عام ١٩٢٢ واستقبلتها أنديتها الأربعة : «ماانتشر نبأ حلولها الفيحاء حتى شعرت أن روحاً جديدة تتغلغل في فضائها ، ونجماً متألقاً يسطع في سمائها ، وأحسست بأن الفيحاء ترتدي اليوم أبهى حللها ، وتظهر بأبدع حسنها ، وأن بردى ينشد أطرب أغانيه ترحيباً بها» .

ولما فسح الأستاذ الرئيس محمد كرد علي المجال للمرأة لتحاضر في المجمع العلمي العربي ، كانت روز عطاالله شحفة من أوائل من وقفن على منابره ، وألقت عام ١٩٢٤ محاضرة بعنوان «واجبات المرأة في هذا العصر» قالت فيها : «إننا إن لم نقم بواجباتنا ، فكيف نطالب بحقوقنا المهضومة ؟ إن جلال المرأة وقوتها ينحصران في شعورها الرقيق ، فلتشعر بمسؤولية الواجبات نحو العائلة والانسانية ، موقنة بأنها مقدسة إن أتمتها بإخلاص وأمانة» .

وقالت في خطاب «المناعة الأدبية» الذي ألقته في جامعة السيدات : «ترفقوا بالمرأة أيها الرجال عندما تخدعونها وتجرونها بطلاقة ألسنتكم إلى هاوية الذل . إنكم تجرون معها بلاء يحيط بمجموعكم ، إنكم تدكّون أمنع حصونكم ، لأنها إن فقدت تلك المناعة وذلك الحصن ، فلا تقوى على أن تشيد في نفس أولادها ذلك الحصن المنيع» .

وقالت في مقالها «تمنياتي» الذي دعت فيه إلى رفض العبودية الغربية وما تحمله إلينا من مغريات وعادات وتقاليد دخيلة علينا ، ولاسيما الاقبال على اقتناء كل ما هو أجنبي ، وترك الصناعات الوطنية قائلة : «أتمنى أن تكسر المرأة قيود العبودية الغربية ، وتندفع بكل ما أوتيت من عزيمة ومضاء لمساعدة صنائع بلادها ومنسوجاتها ، فتأخذ عهداً على نفسها بأن لا تلبس ثوباً ليس من حياكة مواطنيها ، ولا تستعمل في بيتها غير صنع البلاد والأوطان من أثاث ومأكل ومشرب» .

وقالت في الخطاب الذي ألقته بمناسبة اليوبيل الفضي للآنسة ماري عجمي صاحبة مجلة العروس عام ١٩٢٦ : «لم تكتف ماري عجمي بتحرير مجلتها بنفسها

دون مساعدة لها ، بل أخذت تبث الفكرة لإيجاد نادٍ من كل الملل يجمع كلمتهن ، ويقودهن في سبيل التقدم الفكري ، ويعلي مقامهن في الهيئة الاجتماعية ـ وكان لها ما أرادت ـ فكان النادي الأدبي النسائي في دمشق ، تشع عليه من روحها ، وتنشط سواعد السيدات فيه ، وتوقظ أرواحهن بوثباتها الحرة وخطبها النفيسة ، ولم تكتف بذلك ، بل صممت أن تكوّن فيه مكتبة ، تجمع أهم الكتب النسائية التي تفيد المرأة في حياتها وبيتها» .

* * *

كانت روز عطاالله شحفة مصلحة اجتماعية قبل أن تكون كاتبة وأديبة ، تهزها مآسي البشر ، ويوجعها بؤسهم ، تهمها إقامة العدل والسلام والمحبة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وشعوبهم ، ولذلك ختمت كتابها «وحي الأمومة» بقولها :

«أتمنى أن يتحد قومي ، وأن تسود القومية الإنسانية الشاملة التي تذوب فيها العصبيات والعنعنات ، فيصبح العالم كله قطعة واحدة من كبد الحياة ـ حياة الحق والعدل والكمال» .

زهور ونيسي

(١٩٣٦ -

ولـدت الأديبة الجـزائريـة زهور ونيسي في مـدينة قسنـطينة عـام ١٩٣٦ ، وأتمت دراستهـا الجامعيـة في مصر ، حيث حصلت عـلى ليسـانس في الآداب وليسـانس في الفلسفة ، ثم مارست الكتابة والصحافة في جريدة «المجاهد» ومجلة «الجزائرية» التي أسستها عام ١٩٦٩ وتولت رئاسة تحريرها وأشرفت عليهـا ، وهي عضو في المجلس الوطني للاتحاد النسائي ، واتحاد الكتاب الجزائريـين ، ووزيرة للشؤون الاجتـاعية والعمل (سابقاً) ، وأكبر قاصة جزائرية .

لم تكتف الأديبة زهور ونيسي بكتابة القصة والروايـة ، بل كتبت المقـالة أيضـاً ، وقد ظهرت مقالاتها في مجلة الجزائرية التي كان عليها أن تكتب افتتاحيـاتها شهـريا ، وفي صحيفة المجاهد وغيرها ، تعالـج فيها الـوضع العـام للمرأة الجـزائريـة وبعض القضايا الاجتماعية ، وعلاقة الإعلام بالثورة ، بالإضافة إلى شؤون الفن والأدب ، وتبدو في مقالاتهـا كما في قصصهـا شديـدة الالتزام بقضـايا الجـماهير وهـموم المجتمع والوطن ، فالمرأة مهما اختلفت ظروفها الاجتماعية والفكرية ، ومواقفها من الثورة ، فإنها تظل في المقدمة ، وقد عمرت ميادين الكفاح بصمت ، ودون نقص في الفعالية والاستعـداد ، ولـذلـك فهي تلح عـلى تعليم المـرأة في الـريف ، ليكـون لهـا شرف الزحف مع الجموع المنتصرة من مرحلة التحول إلى مرحلة الانطلاق .

ان الأرياف في رأيها بحاجة إلى العمل قبل المدن ، ولذلك لا بد للمرأة الجزائـرية من أن تتحرك وتقوم بحملات تطوعية وتعبئات عامة واتصالات دائمة لخلق التفاعل والتلاحم بين القطاع الواحد من جهة ، وبين هذا القطاع المتفاعل على التـلاحم مع النصف الآخر من المجتمع .

ما إن استقلت الجزائر ونالت حـريتها حتى راحت الأديبـة زهور ونيسي تـدعو إلى تكوين منظمة نسائية تتولى قضـايا المـرأة الجزائـرية ، لتستـطيع أن تسهم في الحـركة النضالية من أجل حياة أفضل لها ولمجتمعها وبلادها .

وفعـلاً تحقق ما دعت إليـه ، وتأسس الاتحـاد العام للنسـاء الجزائـريـات الـذي استـطاعت المرأة الجـزائريـة من خلالـه أن تسهم في القضايـا الوطنيـة والاجتـاعيـة والسياسية ، وتقف مع الرجل جنباً إلى جنب في مختلف ميادين العمل والكفاح .

لقـد أثرت ثـورة نوفمـبر (تشرين الثاني) التحـررية التي انـدلعت شرارتها عـام ١٩٥٤ في حياة زهور ونيسي وأعمالها الأدبيـة إلى أبعد الحـدود ، لأنها عاشتهـا بقلبها وروحها ودمها ، وشاركت فيها مناضلة جريئة في جبهة التحـرير ، فقـد كانت هـذه

الثورة وما زالت تعبيراً عن إرادة الشعب لاعادة صنع وصياغة الحياة على أرضه ، وتحقيق الحرية المطلقة للوطن والانسان ، ولذلك كرست لها قلمها وكتبت عنها بحماسة شديدة واندفاع لا يعرف الحدود .

ترى زهور ونيسي أن الاعلام الحقيقي ولد مع الثورة مناضلا ملتزما بقضايا الانسان وحقوقه المشروعة في الحرية والكرامة والعدالة ، وأن للقلم التزاما أخلاقيا شخصيا يجبره ـ أو لا يجبره ـ على الاستنزاف ، وأن مقياس الحضارة في أي بلد انما يكون بالتزام الكاتب بقضايا مجتمعه ، وتعبيره عن آماله وآلامه وأحلامه وطموحاته .

ان قيمة الفن الملتزم ، سواء كان شعرا أم رسما ، أم نحتا ، أم لحنا ، تنبع من قدرة الكاتب على الاستجابة لمتطلبات الشعب ، ومن مدى ارتباطه بحياة الانسان ، والفنان جسر ، ركيزته الأولى في الماضي ، والثانية في المستقبل .

القصة في أدب زهور ونيسي

أصدرت السيدة زهور ونيسي مجموعتين قصصيتين هما «الرصيف النائم» ١٩٦٧ ، و«على الشاطىء الآخر» ١٩٧٤ قدمت للثانية الدكتورة بنت الشاطىء ، فأظهرت فيها اهتمام الكاتبة بالتركيز على الضمير الشعبي للثورة الجزائرية ، وتغيير الأشخاص بتنوع المواقف في القصص ، بحيث يبدو وكأن الضمير الشعبي ملء الميدان هناك ، يخرج من كل حي وزاوية ، ومن وراء كل جدار ، ومن تحت كل حجر أبطالا بواسل ، ويوجه كل امرأة ورجل وطفل ليؤدي دوره ، فهم جميعاً جنود للمعركة ، ورفاق في الجهاد الأكبر .

ان قصص زهور ونيسي تقدم إلى تاريخنا الأدبي المعاصر نبض الضمير الشعبي للجزائر الثائرة ، وتضيف إلى المعروف من بطولات المقاتلين في كتائب التحرير بطولات آبائهم وأمهاتهم وأطفالهم في كل ربع من ربوع الجزائر ، وكل دار من دورها ، وقد أهدت هذه المجموعة إلى «كل جندي مجهول ، وكل شهيد من شهداء النضال الصامت الدامي ، وكل من بقيَ على درب هؤلاء الأبطال ، يعمل لتخضر الأرض الطيبة ، والقلوب اليابسة .

. . . إلى كل شعبنا الوفيْ مفجر ثورة نوفمبر ، وكل ثورة البناء الجديدة» .

تستمد قصص المجموعة مادتها من الواقعية النضالية ، وتصور ما عاناه الشعب الجزائري من ظلم وضغط وقهر واكراه على ترك لغته وقوميته وتاريخه وتراثه العريق ، ولذلك فان معظم أبطال قصصها أشخاص حقيقيون عرفتهم وعاشت معهم تجربة الثورة التي توجت باستقلال الجزائر ، ولاسيما في قصة «المرأة التي تلد البنادق» ، إذ يطلب خطيب زهية ـ بطلة القصة ـ من خطيبته أن تستقبل في مكان عملها في المستشفى واحدة تدعى فاطمة ، مدعية أنها صديقتها جاءت بقصد المعالجة ، وتطلب فاطمة من زهية أن تحدثها على انفراد ، وتنتقل الاثنتان إلى غرفة أخرى ، فتجد أن حمل فاطمة انما هو من نوع آخر . . . لقد كان السلاح تحت حزامها فتأخذه زهية لتسلمه إلى خطيبها في نهاية الدوام .

ان من يقرأ قصص زهور ونيسي يلاحظ أن أغلبها ذو طابع تسجيلي يتسم بالسرعة وعدم المبالاة بالصياغة ، وهي نقل حرفي للواقع المعاش ، وفي كثير من الأحيان لا يستطيع القارىء أن يميز بين القصة والمقالة عندها .

يقول الأديب أحمد دوغان في نقده لقصص «على الشاطىء الآخر» بعد أن لخص طائفة منها وعلق عليها : «إذا اعتبرنا أن مجموعة «الرصيف النائم» تنتمي إلى الواقعية الثورية النضالية ، فإلى أي مدى يمكن اعتبار هذه المجموعة ؟ لاشك أنها أعطت في المجموعة الثانية بعدين واضحين : البعد الوطني النضالي الذي تمثل في قصص الكفاح والثورة ، والبعد الثاني هو البعد الاجتماعي الذي لم يظهر في مجموعتها الأولى بشكل واضح ، ذلك لأن النضال كان يطغى على كل شيء» .

كذلك عالجت في هذه المجموعة مشكلة الرجل الذي يقف من زوجته موقف النفور والاشمئزاز لأن زوجته لا تلد إلا البنات ، وكأنها هي وحدها المسؤولة عن تحديد جنس المولود ، وقضية اختيار الرجل زوجا لابنته دون استشارتها ، لا لشيء إلا أنه رجل ! .

إذا كانت مجموعة «الرصيف النائم» تنتمي إلى الواقعية النضالية الثورية ، فإن مجموعة «على الشاطىء الآخر» ـ وتقصد بها هجرة الجزائريين إلى فرنسا ـ تنتمي إلى الواقعية الاجتماعية ، لأنها تعرض مشكلات المجتمع الجزائري بشكل واضح ، وتعالجها معالجة واعية ، ولا سيما ما له صلة بالمرأة .

الرواية في أدب زهور ونيسي

أصدرت الأديبة زهور ونيسي رواية واحدة هي «يوميات مدرّسة حرة» عام ١٩٧٩ جاءت في ثمانية فصول احتلت مئة وثلاثا وعشرين صفحة . أما زمن الرواية فيبدأ بالثورة الجزائرية المسلحة التي تشبت في نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وينتهي باضراب ديسمبر عام ١٩٦٠ . وقد استطاعت هذه الرواية أن تسجل بأمانة تلك الفترة التاريخية من نضال الشعب الجزائري ، وتقدم للقارىء صوراً حية من واقع هذا الشعب المكافح بكل صدق واحساس من خلال تجربتها الذاتية كواحدة من اللواتي شهدن الثورة وشاركن فيها .

بطلة الرواية معلمة عايشت الواقع النضالي سراً عن طريق الانتظام في جبهة التحرير ، وجهراً بالعمل الجدي والسلوك الذي يمثل شخصية المناضل ، فقد كانت تستقبل الطالبات اللواتي أضربن عن تلقي الدروس بالفرنسية ، وتشارك في مظاهرات نوفمبر عام ١٩٦٠ ، وتقرأ جريدة «البصائر» ، وتلقي الأناشيد الوطنية في الحفلات مما أدى إلى اقتيادها إلى قسم الشرطة ، ووضع اسمها في قائمة المقبوض عليهم ، ولا يستغرب هذا من معلمة تتلمذت على أساتذة المدارس الحرة .

ان بطلة الرواية هي الكاتبة نفسها ، فالأحداث رويت بلسان المتكلم دون ذكر اسمه ، ولذلك صارت الرواية أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية ، وخير الروايات عندي ما كان مستمداً من الذات ، مع بعض التغيير والتحوير ، حيث يمتزج صدق المعاناة بالحرارة والعفوية .

* * *

زينب فواز

(١٨٥٠ - ١٩١٤)

ولدت الأديبة زينب فواز العاملية في قرية «تبنين» من أعمال صيدا بلبنان سنة ١٨٥٠ في بيئة فقيرة ، فلفتت بذكائها الوقاد ، ونبوغها المبكر ، نظر السيدة فاطمة الخليل زوجة علي الأسعد التي تبنتها ، وعلمتها مبادىء القراءة والكتابة ، ونصحتها بحفظ القرآن الكريم ، فحفظته عن وعي وفهم في زمن كانت الأمية تسود أغلبية سكان الجنوب اللبناني ، وقلّما يوجد من يفك الحرف ، أو يحسن قراءة أو كتابة رسالة ، وأجادت العربية ، آملة أن تصبح خطيبة وكاتبة وشاعرة .

تعرفت في قصر خليل الأسعد ، أخي فاطمة ، برجل من حاشيته فتزوجها ، ثم طلقها لعدم امتزاج طباعهما ، وحاول أحد أنسبائها إكراهها على الزواج منه فصدته ، ولما هددها هربت إلى بيروت مع قافلة من المكارين ، وراحت تطرق أبواب المنازل ، طالبة الاستخدام عند إحدى الأسر الغنية ، حتى تهيأ لها ذلك في أسرة يوسف حمدي يكن المصرية ، ثم سافرت معها إلى الاسكندرية ، حيث استرعت انتباه الأستاذ حسن حسني الطويراني ، صديق أسرة يكن ، وصاحب جريدة «النيل» ، فعلمها الصرف والبيان والعروض والتاريخ ، والشيخ محيي الدين النبهاني فدرست عليه النحو والانشاء ، وظلت عاكفة على الدرس والتحصيل ، حتى تمكنت من الكتابة ونظم الشعر . ولما ذاع صيتها راحت تكتب في جرائد «النيل» و«لسان الحال» و«المؤيد» و«الاتحاد المصري» و«أنيس الجليس» وسواها موضوعات اجتماعية ونسائية ، بوعي صحيح وجرأة نادرة ، فأعجب بأسلوبها الكاتب الدمشقي أديب نظمي ، فأخذا يتراسلان ، ويتبادلان الصور الشخصية ، حتى انتهى بهما الأمر إلى الزواج ، وعُقد له عليها وهي في الاسكندرية ، عند أستاذها حسن حسني الطويراني ، فحضرت إلى الشام ، وهي على حسابه شرعا ، وكان أديب يقيم حينذاك في قرية «الشيخ سعد» في حوران . ولما لم يطب لها العيش فيها ، انتقل بها إلى دمشق ، فاستقبلتها ضراتها الثلاث استقبالاً عاطفيا طيباً ، إذ كانت تمتاز عليهن علما وأدبا وخلقا ، لكنها لم تلبث أن تبرمت بحياتها غير الطبيعية ، فافترقت عن زوجها بعد أن قضت ثلاث سنوات ، وعادت إلى الاسكندرية التي شهدت ولادتها الأدبية ، فوضعت طفلاً كانت تحمله في أحشائها أسمته «غريب» لكنه مات بعد ذلك بوقت قصير .

كانت زينب فواز تعقد في دار زوجها أديب نظمي مجالس أدبية أسبوعية يحضرها : حسن الدوماني ، وأبو السعود مراد ، وعبد القادر بدران ، وسليم عنحوري ، ورشيد الحشيمي ، وسيد السلطجي ، وصالح طه ، ومحمود حمدي ، وحسين حسني ، وعمر نحولي (من صيدا) وصالح وهبي البغدادي ، وأسعد الحمصي ومحمد عبد المجيد الدوماني وغيرهم من أدباء ذلك العهد ، فيتطارحون الشعر نظما وتشطيرا ، ويتناقشون في قضايا الأدب ، وكان زوجها رسولا بينها وبين الحاضرين ، إذ كانت تجلس خلف ستار قريب ، أو في غرفة مجاورة ، ويحمل منها

واليها ما قالت وقالوه ، لأن التقاليد الصارمة كانت تحول دون انطلاق المرأة -حتى ولو كانت كاتبة - انطلاقا كليا في ميادين الحياة ، كما تقول السيدة املي فارس ابراهيم ، ومع ذلك فرضت شخصيتها ، لكنها لم تستطع في هذه الظروف القاسية أن تكون رائدة من رائدات الفكر الغني .

لقد فاقت زينب فواز غيرها من كاتبات زمنها كعائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي ، واضطلعت برسالة بعث المرأة العربية من جمودها وتخلفها ، بالرغم من أنها لم تدخل المدارس . عدت معجزة عصرها ، ومفخرة بنات جنسها ، بما نشرت من مقالات عديدة تدافع بها عن حرية المرأة العربية ومساواتها بالرجل ،وكثيراً ما ناظرت الأدباء في هذا الموضوع ، رغبة منها في تعزيز شأن المرأة ، وتوفير سبل تقدمها ، وكانت آراؤها في هذا المجال جريئة متحررة ، وكم كانت تنتفض ثائرة إذا قرأت أو سمعت أن واحدة من بنات جنسها أعلنت رأيا فيه شيء من التحفظ في حقوق النساء ، كما في ردها على الأديبة هنا كسباني كوراني .

آثارها

١ - في القصة : كتبت زينب فواز روايتين هما : «حسن العواقب أو غادة الزاهرة» طبعتها عام ١٨٩٥ وتقع حوادثها خلال القرن الماضي في لبنان ، حيث تعرض سلسلة من المآسي بين «شكيب» - أحد أمراء الدروز-وابن عمه الأمير «تامر» بسبب تنافسهما على حب ابنة عمهما الأميرة «فارعة» ، وقد تأثرت فيها بأسلوب سليم البستاني ، وذلك بحشد الكثير من المغامرات ، والمخاطرات ، والمؤامرات . أما أسلوبها فخليط من السجع والارسال ، فتستعين بالسجع على تصوير العواطف المتأججة ، والحوادث المثيرة ، وتكثر من التمثل بالشعر على طريقة الرومانسيين الذين نشأت في ظلهم كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم . ويشبه أسلوبها أسلوب سليم البستاني في الركاكة وضعف التركيب وانعدام الشاعرية ، وضآلة الأوصاف الجميلة ، لكنها تمتاز بقلة الحشو والاستطراد .

والرواية الثانية هي «كورش ملك الفرس» وهي من أحسن الروايات مغزى ومعنى ، غرامية ، تاريخية ، جمعت الفائدة والفكاهة ، وصورت قبح العبادة المجوسية ، وحسن الوحدانية أبدع تصوير ، وتحدثت فيها عن سقوط دولة الميديين ، وحلول دولة الفرس محلها ، واستيلاء الملك كورش عليها وعلى مملكتي نينوى وبابل ، وانقراض هاتين الدولتين العظيمتين ، واندماجها في مملكة فارس .

٢ - في المسرح : ألفت «الهوى والوفاء» وهي مسرحية ذات أربعة فصول ، لم تطبع وظلت بين محفوظاتها الضائعة .

٣ ـ في السيرة : لها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» وقد ترجمت في هذا الكتاب لعدد من النساء الشهيرات منهن السيدة فاطمة الخليل الأسعد التي حضنتها في صغرها ، وكانت السبب في تعليمها ، وجمعت مادته من كتب تاريخية وأدبية تقرب من أربعين مؤلفاً ، بالاضافة إلى ما أخذته من المجلات والجرائد من مقالات تؤيد تقدم المرأة وتدعو إلى تعليمها .

٤ ـ في الترسل : لها «الرسائل الزينبية» وهو كتاب يقع في ٢١٨ صفحة ، ضم رسائلها وطائفة من المقالات التي عالجت فيها حقوق المرأة ومكانتها في المجتمع ، وردودها على الكتاب ، كالأديبة هنا كسباني كوراني التي أخذت على نساء انكلترا طلبهن التدخل في السياسة ، وكالشيخ أحمد عارف الزين الذي انتقد طلبها اطلاق حرية المرأة في جميع مجالات النشاط الانساني ، فقالت له في إحدى الرسائل : «أما ما جال في فكر سيادتكم من أن المرأة لا تقدر على تأدية وظيفة الرجل ، فهو غلط أيها الفاضل ، لأن نساء الغرب فقن الرجل بمراحل ، وأما نحن فلا يمنعنا الحجاب عن الاشتغال بأعمال الرجال» .

٥ ـ في الشعر : نظمت السيدة زينب فواز أشعارا كثيرة لم تجمع في ديوان ، قالتها في مختلف المناسبات التقليدية المعروفة : كالتهنئة في الزواج والولادة ، وجلوس السلطان ، والغزل والمدح ، وجميعها لا تنطوي على معان عميقة ، كقولها في تفضيل الشرق على الغرب :

للشرق فضلٌ في البرية أنه ... يأتي الوجود بكل حسنٍ معجبِ
والغربُ أظلمُ ما يكون لأننا ... نشقى بفرقةِ شمسنا في المغربِ

وقولها متغزلة ، وقد طغى التقليد عندها فيه على الابتكار :

لا زال قلبي مدى الأيام خفاقا ... و بدر حسنك يجلو العين إشراقا

نور تجلى على الأرواح منفردا ... حتى جلى منه في الأحشاء أحداقا
سرى غرامُك في قلبي وفي جسدي ... لذاك أثّرَ إسقاما وإحراقا

ومهما يكن من أمر فنثرها أفضل من شعرها بكثير ، وكأنها خلقت لتكون ناثرة لا شاعرة ، ذلك لأن الأحداث الصعبة الأليمة التي مرت بها يستحيل أن يستوعبها الشعر ، كما تستوعبها القصة أو المقالة أو المسرحية ، ومن هنا فاق نثرها شعرها الذي لم يتعد المناسبات التقليدية كما ذكرت .

وكنموذج على نـثرها الـرفيع أسـوق هذا المقـطع من مقال لهـا عن حريـة المرأة :

« . . . مضى زمان والمرأة منا ، نحن الشرقيات ، مغلق أمامها بـاب السعادة ، لا تعرف نفسها إلا آلة بيد الرجل ، يسيرها كيف شاء ، ويشدد عليهـا النكير بـاغلاظ الحجاب وسد أبواب التعليم ، وعدم الخـروج من المنزل ، وبحـرمانها من حضـور المحافل النسائية العامة ، إلى حد أنه كان يخيل لها أن تلك الأفعال من الموبقات ، لو تبعتها لخلت بنظام شرفها ونامـوس صيانتهـا . وحجة الأزواج في ذلـك أن المرأة إذا تعلمت ، فإنها تصير غير راضية بعيشتهـا ، كارهـة لحكم زوجها الجـائر ، فيـوجبها العلم والتعلم إلى أن تشق عصـا الـطاعـة ، وتخـرج من ربقـة العبـوديـة إلى ميـدان الحرية ، هذا إذا كانت المرأة فقيرة والرجل غنياً ».

ولزينب فواز كتب أخرى لم تطبع حتى الآن مثل كتـاب «مدارك الكـمال في تراجـم الرجال» ، وكتاب «الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد» وغيرهما ، ولا يدري أحـد ماذا حل بهما بعد وفـاتها التي يـرجح أن تكـون في الاسكندريـة سنة ١٩١٤ ، قبيـل اندلاع الحرب العالمية الأولى بوقت قصير .

سلمى صائغ

(١٨٨٩ - ١٩٥٣)

ولدت سلمى صائغ في حي «المصيطبة» ببيروت في ٣ كانون الاول عام ١٨٨٩ ، وتلقت علومها في معهد «زهرة الإحسان» على يدي العلامة الشيخ ابراهيم المنذر (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠) فأخذت عنه أسرار الفصاحة والبلاغة والبيان .

عملت بعد تخرجها في عدد من مدارس بيروت الخاصة كالمقاصد الإسلامية ، وكلية بيروت للبنات ، والبعثة العلمانية الفرنسية (اللايك) والعازارية . . . لأن التعليم في نظرها مهنة سامية ومقدسة ، وطريق إلى الاصلاح ، وبناء المستقبل الزاهر .

كانت سلمى فتاة بارعة الجمال ، ذات شعر أشقر ، وعينين زرقاوين ، وأنوثة طافحة ، وإنسانية عميقة ، وحديث جذاب ، ولذلك حامت حولها أنظار المعجبين ، وأحبها غير واحد من الأدباء كحبيب اسطفان الذي كان يدرسها اللغة العربية ، والشاعر أديب مظهر (١٨٩٨ ـ ١٩٢٨) وأمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) وفليكس فارس (١٨٨٢ ـ ١٩٣٩) ، لكنها لم تقترن بأي واحد من هؤلاء ، بل اقترنت عام ١٩١٢ بطبيب الأسنان الدكتور فريد كساب الذي استهواها برجولته وأخلاقه الرفيعة ، ثم افترقا بعد بضع سنوات ، بعد أن أنجبا ابنتهما الوحيدة «عائدة» التي أصبحت فيما بعد زوجة الشاعر صلاح لبكي (١٩٠٦ ـ ١٩٥٥) .

توزع نشاط سلمى صائغ بين التعليم والأدب والصحافة وقضايا المرأة والمجتمع ، فأسهمت في تأسيس عدة جمعيات نسائية منها «النهضة النسائية» و«الاتحاد النسائي اللبناني» وغيرهما .

غادرت وطنها وابنتها وأصدقاءها وأهلها وذويها إلى البرازيل عام ١٩٣٩ بحثاً عن أخ لها هاجر قبل أربعين عاماً ، وهي لا تزال طفلة ، فعثرت عليه ـ بعد البحث والتفتيش ـ في أحد مجاهل الأرياف البرازيلية النائية ، وقد هدّ المرض جسمه ، فحملته إلى سانباولو تمهيداً للعودة إلى الوطن ، لكنه مات بطريقة مأساوية قبل أن يعود .

مكثت في البرازيل ثماني سنوات انتسبت خلالها إلى العصبة الأندلسية ، وأصدرت كتابها الثاني «صور وذكريات» عن دار الطباعة والنشر العربية في سانباولو عام ١٩٤٦ وهو مجموعة مقالات وأبحاث بلغت فيها سلمى ذروة الكمال ، كما ترجمت عن البرتغالية عددا من المقالات والقصص القصيرة .

أما كتابها الأول «النسمات» الذي جمعه لها نصير المرأة جرجي نقولا باز ، فقد صدر عن المطبعة الأدبية في بيروت في تشرين الأول عام ١٩٢٣ ، وقدمته إلى صديقتها الدكتورة أنس بركات زوجة نصير المرأة ، لأنها «المرأة السائرة إلى ذروة الكمال الإنساني ، والمضيئة بروحها النبرة «رسول» جهادنا النسائي ، المرأة التي علمتني أن أخدم بمحبة ومعرفة» .

ضم كتـاب «النسمات» حـوالي أربعين مقـطوعـة ومقـالـة كـانت قـد نشرتهـا في مجـلات : الحسناء ، ومنـيرفـا ، والفجـر ، والخـدر ، والمـرأة الجـديـدة ، والحيـاة الجـديدة ، والـبرق ، والمعرض ، والسـائـح ، والشعب ، ولسـان الحـال ، ومجلة سركيس وغيرها من المجلات والصحف . . . وفي هذه المقطوعات والمقالات جمال وفن ، وريشـة مصور ، ونغمـة موسيقي ، وخيـال شاعـر ، ومعرفـة عالم ، وأدب كـاتب ، ورأي مفكر . . . فيهـا وطنية وحـرية وغـيرية وإنسـانيـة وجـرأة ونهضـة وحكمة ومحبة وشفافية لامست الروح ، وسمو بلغ السماء .

هي نسمات باردة ، حارة ، منعشة لاذعة - كما يقول جرجي باز - فيها من تغـريد العصفور ، وهينمة النسيم ، ورواء الزهر ، وشذى العبير ، وحنـان الأم ، وشعور الأخت .

إن من يطالع تلك المقطوعات والمقـالات يلاحظ تـأثر سلمى بجـبران والريحـاني ومي زيادة بشكل واضح شكلاً ومضموناً : ثورة في الأفكار ، وتمـرداً على الـواقع ، وحرارة في العاطفـة ، وإبداعـاً في الصور . . . كـما في «أغاني الجنـود» ، و«أنشودة المهاجر» و«أجراس العيد» وغيرها . . . تقول في أنشودة المهاجر :

«أرجعوني إلى لبنان ! إلى أديمه وسمائه ، إلى ثلوجه ومـائه ، إلى وديـانه الجليلة ، واكامه الجميلة ، وغاباته الخميلة ، أرجعوني إلى لبنان . .

إن الحياة في أشعة الشمس البارزة من وراء جباله ،
والحب يدب خلال أنوار البدر الساطعة فوق تلاله
كل ما فيك يا لبنان يُهيب بالنفس إلى العبادة والأمل . .
قباب أديارك القديمة ، وهي ترتل مساء أصوات النواقيس
وخرير مياهك ، وهي تتدفق في الوديان ،
ودبيب الهواء بين أوراق الزان
وهمس النسيم في مباسم الغزلان . . .» .

ولبنان سلمى صائغ هو عين سورية وقلبها، فصلتها الجراح الدامية في المـاضي، فلمَ لا تندغم عناصرها اليوم اندغاماً لايحلّه الجهل ولاتفرقه الأديان؟ :

كبيراً كنت أوصغيراً، فأنت أنت يا لبنان
ولئن فصلتك جراحك الدامية عن سوريا
فأنت عين سوريا وقلب سوريا.
هاهم بنوك في المشارق والمغارب
(بنوك آن كنت صغيراً)
يحملون النشاط في قلوبهم والأنفة في نفوسهم
بنوك نفخوا في الشرق نسمة التجدد
فتكهرب الشرق من سوريا إلى النيل إلى العراق. . .

وبنوك يا لبنان سيحملون في الغد الحياة الجديدة إلى الشرق الجديد . . .
وفي ودیانك ستنشأ فكرة اندغام عناصر سوريا ولبنان
اندغاماً لا يحلّه الجهل، ولاتفرّقه الأديان .

* * *

كانت سلمى صائغ أديبة وطنية متحمسة، تريد أن يكون لبنان بلداً حراً سيداً، لا تفرّقه الزعامات والعصبيات، والطوائف والمذاهب والأديان. . . وهي لا تستطيع أن تحيا بغير هذا الوطن:

« يا أبناءبلادي أعطوني وطناً وإلاّ أموت»

وتريد بعث صناعته الوطنية والإقبال عليها:

«كلوا وطني، واشربوا وطني».

وكانت حريصة كل الحرص على تعليم اللغة العربية لطلاب المدارس، ولذلك صبت كل لومها على المناهج المطبّقة في لبنان واتهمتها بالتقصير في هذا المجال:

«ففي البلد اليوم عدد من الشابات والشبان يجهلون لغتهم. هم فئة غريبة لايحسون بحس الأمة، ولا يقرؤون صحافتها، ولا يعرفون شيئاً من آلامها القومية. نريد أن تكون اللغة العربية إجبارية لكل طالب لبناني».

الوطن واللغة في فكرها واحد لا يتجزأ، والعلاقة بينهما صريحة لا تحتمل التأويل، فلا وطن بدون لغة، ولا لغة بدون وطن، ولا ينعش اللغة ويحييها ـ في رأيها ـ مثل المعاهد الوطنية، ولذلك دعت إلى «إقامة معاهد علم وطنية، تعلّم فيها كل العلوم الحديثة باللغة العربية، وتفوق المعاهد الأجنبية الموجودة في البلاد لنتمكن من مزاحمتها والقضاء عليها»، كما دعت إلى مقاطعة المدارس الأجنبية.

* * *

نشرت سلمى بعد كتابيها «النسمات» و«صور وذكريات» كتابين أخرين عام ١٩٤٩ هما «أعمال الرحمة» و«نواحي الخير في لبنان» بالاتفاق مع منظمة اليونسكو، غير أن القدر لم يمهلها لتجمع كل ما كتبته من قصص ومقالات وخواطر وترجمات، فقد توفيت في السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٥٣ وظلت توافي مجلة «صوت المرأة» بانتاجها حتى عام ١٩٥٢ حين أقعدها المرض وحال بينها وبين مواصلة الكتابة، وكانت تقول لصهرها الشاعر صلاح لبكي:

«إذا أمهلني المرض فسأملي عليك وتكتب».

كان من المفترض أن تقوم وحيدتها عائدة لبكي بجمع مقالاتها ونشرها في كتب، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وبقيت هذه الروائع دفينة المجلات الكثيرة التي كتبت فيها.

في عام ١٩٥٥ قدمت الجامعة اللبنانية منبراً دائماً باسمها تلقى من عليه سنويا محاضرات في الأدب النسوي، ومنحة دراسية باسمها تمنح لأي فتاة لبنانية تكون

متفوقة في اللغة العربية وآدابها. وكانت الحكومة اللبنانية قد منحتها وسام الاستحقاق المذهب من الدرجة الأولى، فاعتذرت عن قبوله في حينه ـ لأنه جاء متأخراً ـ وبعد غيابها أعادت إليها الوسام، وأطلقت اسمها على أحد شوارع بيروت.

لقد انطوت بوفاتها صفحة أدبية لبنانية كبيرة، وغاب وجه امرأة جميلة تميزت بالنضال والكفاح طوال حياتها، تاركة لنا أربعة كتب، وفيضاً من المقالات الرائعة، النابضة بالقوة والعذوبة والرشاقة والجمال.

سلوى سلامة

(١٨٨٣ - ١٩٤٩)

ولـدت الأديبة السيـدة سلوى سـلامـة في حمص ، في السـادس من نيسـان سنـة ١٨٨٣ ، في زمن كانت المرأة فيه لا تزال أسيرة البيت ، وكانت في الحـادية عشرة من عمرها عندما ظهرت عليها علامات النجابة والـذكاء ، فـاهتم بها أخـوها حبيب ، وكان من كبار الأساتذة في ذلك الحين ، ومتضلعا باللغـة العربيـة ، فعلمها الصرف والنحو والبيان والعروض . وبعد أن أكملت دراستها ، مارست التعليم في مـدرسة البنـات الأرثوذكسيـة في حمص ، ثم تسلمت إدراتها مـدة من الزمن ، إلى أن دعيت للتعليم في مدرسة «زهرة الاحسان» بزحلة عام ١٩٠٧ ، وصارت تكتب في جريـدة «المحبة» مقالات اجتماعية وأخلاقية ، وتخـطب في النوادي والجمعيـات ، وهي أول سيدة حمصية وقفت على المنابر وخاطبت الجماهير .

عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها سافرت إلى مدينة القدس ، فساءها ما لاقته من اضطهاد المرأة في كـل مكان ، واعتقـاد الناس بـأن المرأة لـوالديهـا ، ثم لزوجها ، يتمتـع بها كـما يشاء ، ولا يعـاملها كـزوجة لهـا من الحقوق مثـل ما لـه ، فكتبت عدة مقالات تنتقد هذه الأمور .

ثم أخذت شهرتها تتسع بين الأدباء يوماً بعد يوم ، عـلى الرغم من صغـر سنها ، وأصبح منزلها في زحلة ناديا أدبيا ، يجتمع فيه كبار الشعراء والأدباء كحليم دموس ، وعيسى اسكندر المعلوف وغيرهما ، وقد أحبوا مداعبتها يوماً ، فطلبوا منها أن تقرأ ما كتبه ياقوت الحموي عن حمص في موسوعتـه «معجم البلدان» ، ولم تكن قد اطلعت على هذه الموسوعـة من قبل ، فتنـاولت الكتاب وأخـذت تقرأ بصـوت عال ، ولغـة سليمة ، ونبرة خطابية ، لتبرهن على مقدرتها .

وبعـد أن قـرأت مـا كتبـه يـاقـوت عن مـوقـع حمص ومنـاخهـا وعــدد سكـانها ومزروعاتها ، وصلت إلى قوله «ونساؤها مشهورات بالجمال والبلاهة» فقرأت العبارة دون تردد «ونساؤها مشهورات بالجمال والنباهة» ، فصفق لها جميع الحاضرين ، لأنها نجت من الشرك الذي نصب لها .

وبلغت مقالاتها الرائعة ما وراء البحار ، ونالت استحساناً عامـاً ، وكان من بـين المعجبين بها الأديب الكبير جورج أطلس ، وهو حمصي المولـد ، سكن أوروبا ونـال الجنسية الانكليزية ، ثم انتقل إلى أميركا ، وحل في كندا ، وكان يجيد احـدى عشرة لغة ويستطيع الخطابة بها ، بالاضافة إلى اللغات التي يلم بهـا . أعجب هذا الأديب بجرأة سلوى وصراحتها في التعبير والانتقاد ، فعـاد سنة ١٩١٢ إلى أوروبـا ، ومنها

إلى حمص ، وهدفه الأول معرفة هذه الفتاة التي أحبها من خلال كتابتها .

وفي حفل كبير أقيم على شرفه ، أجال طرفه في الحضور ، وتقدم بخطى ثابتة نحو سلوى سلامة ، ودليله فراسته فقط ، فتعرف إليها وباح لها بما يكنه قلبه من مودة واعجاب وتقدير ، وفي سنة ١٩١٣ تزوجها وسافرا إلى أوروبا ، وظلا سنة يتنقلان في ربوعها ، وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى قصدا البرازيل وحلا في سانباولو ، وفي أول حزيران سنة ١٩١٤ أنشأت سلوى مجلة «الكرمة» ، وهي مجلة علمية تاريخية أدبية فكاهية انتقادية ، فلاقت رواجاً كبيراً واقبالاً شديداً ، ودرت عليها أموالاً وفيرة ، لما كانت تتمتع به سلوى من موهبة أصيلة وسمعة حسنة ، وكانت المجلة النسائية الوحيدة في المهجر ، استمرت في الصدور خمسة وثلاثين عاماً دون انقطاع ، وكان زوجها ينضد حروف مجلة الكرمة وجريدته «الزهراوي»[1] في منزله ، حيث أفرد غرفة خاصة للحروف وعدة الطباعة ، وهكذا عمل الزوجان في حقل الصحافة بوقت واحد ، وكان منزلهما ندوة دائمة لمعظم أدباء المهجر .

وعلى الرغم من وفاة زوجها سنة ١٩٢٦ ، وهو مسافر في الأرجنتين ، تاركاً لها ستة أولاد ، أصغرهم في الشهر الأول من عمره ، فقد استطاعت أن تنهض بهذا العبء الثقيل وحدها ، في تربية الأولاد ، واصدار الكرمة التي لم تتوقف حتى وفاتها عام ١٩٤٩ . كذلك ألفت ثلاثة كتب هي «المن والسلوى» و«كلمات خالدة» و«تاريخ البرازيل» ، بالاضافة إلى مجموعة كبيرة من الخطب ألقتها في عدد من المناسبات .

احتفلت الجالية العربية في البرازيل بيوبيل مجلة الكرمة الفضي عام ١٩٣٩ ، فجمعت مبلغاً من المال وفى بنفقات الحفلة الرائعة التي أقيمت لها ، وخصص المبلغ الباقي لشراء منزل لائق تقطنه مع أولادها الأذكياء ، قُدم لها مفتاحه الذهبي في الحفلة نفسها ، وحضر الحفلة عدد كبير من الأدباء والصحفيين وأبناء الجالية ، وكان ابنها «جوليو» يحرر القسم البرتغالي في جريدة «الأنباء» التي كان يصدرها الدكتور عبد اللطيف اليونس في سانباولو ، قبل انتقاله إلى الأرجنتين وإصدار جريدة «الوطن» في عاصمتها ، كما كان الشاعر نبيه سلامة ، نسيب سلوى ، يحرر القسم العربي .

لقد أجمع الناس في الوطن والمهجر على احترام السيدة سلوى سلامة ، وتقدير ما

تحلت به من أدب وتقى وصلاح ، وكانت مثال الزوجة الوفية لزوجها ، أحسنت معاملته ، وحفظت عهده ، وأحيت ذكره بعد وفاته ، فنشرت له مجموعة من الخطب أحسن في التقديم لها الأديب الحمصي داود شكور .

كانت سلوى شديدة الذكاء ، حاضرة البديهة ، سريعة الخاطر ، تفهم حتى من الاشارة ، ومما يُروى عنها أن الشاعر القروي ـ وهو من عشاق التورية والتلاعب بالألفاظ ـ كان يتناول الطعام يوما على مائدتها ، فالتفت إلى زوجها وسأله أن يعطيه قلبه ، فلم يفطن إلى قصده ، ولكن سلوى خاطبته قائلة : «أعطه السَلَطَة !» .

يقول توفيق ضعون في كتابه «ذكرى الهجرة» ، وكان أحد المشاركين في حفلة تكريم سلوى سلامة : « . . . وقد اشتركت في حفل اليوبيل ، بالأصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن ابنة الخال الأديبة ماري يني عطاالله المقيمة في سانتياغو عاصمة تشيلي ، فقد عهدت إلي أن أقدم للمحتفى بها ، باسم أولادها الثلاثة : منيرفا (وهو اسم المجلة التي كانت تصدرها في بيروت) ، وأدونيس ، وغاندي ساعة يد ، فقمت بهذه المهمة ، وأرفقت الهدية التذكارية بهذه الأبيات :

أولادُ ماري يا صديقةُ قدموا ... هذي الهديةَ للولا تذكارا
عرفوكِ عن بعدٍ بأختِك أمِهِمْ ... ولطالما هَتَكَ الهوى أسرارا
زرعتْ ودادكِ في صميم قلوبهمْ ... والحقلُ خصبٌ أنتج الأثمارا
هي ساعةٌ نباضةٌ كقلوبهمْ ... بالذكر ليلاً والحنين نهارا
أسماؤهم نُقِشَتْ عليها مثلما ... وجدتْ رسومهمُ بقلبكِ دارا
فتذكريهم كلما استنبأتِها ... فَوَقْتُكِ إخلافاً يجرُّ العارا
وتقبليها من يذي أنا خالهم ... وأخاك ساعة قلدوك الغارا

وقال في مناسبة أخرى يشيد بذكر مجلة الكرمة ، وكتاب صاحبتها «المن والسلوى» :

يا «كرمةٌ» أسكرتْ بالراحِ أنفسَنَا ... فكان سُكْرٌ ولكنْ يَفْضُلُ الصحوا
المنُّ يا قوم والسلوى (لماظتِها) ... وللحزينِ إذا اشتد الأسى «سلوى»

تلك هي سلوى سلامة أطلس التي كانت مجلتها الكرمة رائدة المجلات النسائية

في المهجر ، ومهدت الطريق لزميلتها مريانا دعبول فاخوري لانشاء مجلة «المراحل» فيما بعد ، وكانت في طليعة أديبات المهجر عامة كماري يني عطالله ، وسلمى صائغ ، وأنجيل عون شليطا ، ونجلا أبي اللمع معلوف وغيرهن .

* * *

(١) عندما علق السفاح جمال باشا أحرار العرب على أعواد المشانق سنة ١٩١٦ ، وبينهم الشهيد عبد الحميد الزهراوي صديق جورج أطلس الحميم ، أصدر على الفور جريدته التي سماها الزهراوي تخليداً له ، ونظم فيه قصائد ثورية لاهبة .

سلوى محمصاني مومنة

(١٩٠٨ - ١٩٥٧)

ولدت في بيروت سنة ١٩٠٨ في بيئة تحب العلم ، وتهوى الأدب ، وتلقت علومها في كلية المقاصد الاسلامية للبنات ، ثم في كلية القديس يوسف الفرنسية للبنات أيضاً ، ودرست اللغة العربية على العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني .

عملت في حقل التعليم ، فدرّست اللغة العربية وآدابها في كلية المقاصد التي تخرجت منها ، مدة ثلاث عشرة سنة .

تفتحت مواهبها على الكتابة والتأليف في سن مبكرة ، فكتبت أولى مقالاتها في مجلة «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية ، وكانت أصغر الكاتبات اللواتي حملن القلم في ذلك العهد مثل ماري يني عطاالله ، وسلمى صائغ ، وحبّوبة حداد ، ونجلا أبي اللمع وغيرهن ، فنشرت في جريدة «السياسة الاسبوعية» التي كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل في مصر تحت اسم مستعار ، ثم مجلة «صوت المرأة» اللبنانية .

تزوجت عام ١٩٤١ من السيد محمد عزيز مومنه ، صاحب المدرسة العزيزية ، فكانت له خير رفيق ومعين . ورغم أنها لم ترزق أطفالاً ، فقد أحبت الصغار ، وبرعت في تأليف الحكايات الجميلة لهم ، ومن قولها فيهم : «ما أرى القلوب عند الصغار ، إلا كنماذج من قلوب الكبار . . . بعضها كالزجاج إذا كسر لا يلتئم ، وبعضها ككرة المطاط ، فهي تعود إلى شكلها الأول مهما ضغطنا عليها . . .» .

أصدرت مجموعة قصصية واحدة بعنوان «مع الحياة» وتركت عددا من المقالات المنشورة في الصحف والمجلات ، دافعت فيها عن حقوق المرأة العربية ، وقد عثرت على بعض هذه المقالات في مجلد السنة الثامنة لمجلة «صوت المرأة» التي كانت تكتب فيها دائماً عام ١٩٥٢ ، فلا تكاد تمر مناسبة دينية أو اجتماعية أو قومية ، إلا ويتحرك قلمها فيها . تقول في ذكرى المولد النبوي الشريف ، الذي كانت تحييه كلية المقاصد كل عام : «ولكن ذكريات البطولات مع أمجادها جميعاً ، ما هي إلا شموع خابية الأشعة أمام الضياء الأعظم من سناء محمد بن عبد الله ، وانها لتتضاءل أمام ما تحمل هذه الذكرى المباركة من مثل عظيمة ، تثير في النفس الاحساس بالاكبار والتعظيم ، وترسم من الأخيلة صورا تملأ القلب خشوعاً وتمجيداً» .

وتتحدث عن معنى الايمان الحقيقي عند البشر ، فتبين أنه عندما يملأ القلوب ، يصوّب قوس الانسانية نحو الخير ، ويوجه ميولها نحو الصلاح ، ويسمو بمناها نحو

الحقائق الرفيعة ، فتنكشف عن البصائر حجب من زيوف الحياة ، ليستقر نـور الاله في أعالي الكمال .

وإذا مر أسبوع المرأة ، راحت تنعته بأسبوع الكرامة الوطنية الشاملة ، لأن نهضة المرأة للمطالبة بحقوقها ، دليل عـلى اكتمال الشعـور الوطني العـام ، وتشبعه بـالعزة القومية التي تليق بالشعوب الناهضة ، وهي تطلب الحياة .

وتؤكد في مقالها أنه مـا من كرامـة لأمة الا بتحـرير جميـع أفرادهـا من عقد نفسيـة تشعر أصحابها بالضعة ، وبالدونية دون سـائر أفـراد الشعوب . . . وهكـذا تخرج من موضوع تحرير المرأة ، إلى تحرير الشعوب المستعبدة قاطبة ، لأنه «لا يليق بانسان كـريم ، ولا بشعب عـزيـز ، أن يتـأخـر عن أخـذ حقـه ، ولا أن يـتركـه بـأيـدي الظالمين» .

وترى السيدة سلوى محمصاني أن المجتمع لا ينهض إلا إذا تحـرر جناحـه الآخر ـ وهو المرأة ـ من العبـودية ، وتـربط بين تحـرر المرأة وتحـرر الوطن ، وبـين استقلالهـا الذاتي واستقلالـه فتقول : «ومـا نهضة المـرأة إلا نتيجة حتميـة لهذا الشعـور الكريم بوجوب استقلال الذات ، واستقلال الوطن» .

وتهاجم بحدة الأوساط الرجعيـة المتحجرة التي تقف في وجـه تحريـر المرأة ونيلهـا استقلالها وتؤكد أنه «عنـدما تسفـر الحركـات الفكريـة عن النهضات الحقيقيـة ، لا يمكن حينئذ للرجعية المتحجرة أن تصمد في طرق معاكستها . ان النهضات لا تقـاوم بالأفكار البالية ، والأوهام الواهية» .

ولا تكتفي بهذا بل تطالب باعطاء المرأة حقوقها السيـاسية واشراكهـا بالعمـل في جميع الميادين الوطنية ، لأن ذلك «خطوة حاسمة في طـريق التحرر الكـامل من بلبلة الماضي وظلمة جهالته» .

ولا تشك السيدة محمصاني بأن العفة والصيانة تنموان عنـد المرأة الفـاضلة خارج الحجر المظلمة بالأوهام ، وأنهما كثيراً ما تضعفان داخل ستائرها المسدولة من الجهـل والخرافات .

وتختم مقـالها بـاظهار الـدور المهم الذي تلعبـه المرأة في الحيـاة ، فهي «التي تخلق الشعب الـذي ينهض ، وتوحي المـدنيـة التي تنشـأ ، وتلهم الفكـر الـذي يضيء ، والعقل الذي يعلم ويقود . . .»

وتتحدث في مقال آخر عن أثر النظام في حياة الفرد والمجتمع ، فتبين أن الارتجال

وعدم مراعاة الأنظمة والاستهزاء بالقوانين ، من أهم عوامل الفساد ، وأن النظام في كل مجتمع دليل على مقدار رقيّه وحضارته ، لأنه ميزان العدل والأمن والاستقرار ، وعنوان الحياة العقلية القائمة .

وعندها أن كل ما في الطبيعة يسير حسب نظام دقيق عجيب ، يرتكز على أسس علمية ثابتة ، ولولاه لتزلزل الكون وماد ، وما الانسان إلا من هذا الكون الذي يكمله النظام .

وتلح على نقد المجتمع الاتكالي اللامسؤول ، الذي يلقي كل فرد فيه التبعة على غيره ، دون أن يقرر حظه من هذا التقصير ، وقسطه من هذا التشويش ، وتضرب مثالاً على ذلك أنها حضرت يوماً اجتماعاً لاحدى الجمعيات ، ساده كثير من الفوضى ، فكان كل فرد ينتقد هذا الاضطراب السائد ، ويلوم الجميع إلا نفسه ، مع أنه كان من مسببي هذا الفساد ، وتعلق على ذلك بقولها : «ان هذا الاجتماع ليس إلا صورة لما نراه في سائر أعمالنا من قلة التنظيم» .

وتضرب مثالاً آخر على التنصّل من المسؤولية ، والقاء تبعاتها على الآخرين من صميم عملها كمدرسة فتقول : «عندما يرسب أحد التلامذة ، لا ينظر الأهل إلى الاهمال الذي اقترفوه بحق الولد ، ولا إلى اللامبالاة التي أبداها التلميذ ، بل يوجهون النقد إلى المدرسة ونظامها متناسين واجباتهم نحو الدرس والتدريس ، فتحصل البلبلة ، ويكون التقصير» .

وتنهي مقالها في النقد الاجتماعي بالاصرار على أن يتعود الطفل النظام منذ الصغر في البيت والمدرسة والطريق ، تحت حراسة المرأة ، ومشاركتها عقلياً وعملياً داخل البيت وخارجه ، ومن تنمُّ عنده مزية العدل ، فهو يعرف واجبه ، كما يعرف واجب غيره ، ويعرف خطأه كما يعرف خطأ غيره ، لأنه يستطيع ارجاع الأمور إلى نصابها ، وحكمتها في هذا الموضوع أن «مصارحة النفس بالخطأ ، أولى خطوات الاصلاح : اصلاح الفرد ، واصلاح المجتمع» .

لقد كان هدف سلوى محمصاني مومنه اصلاح المجتمع ، بدءاً بالفرد ، فإذا حرص الفرد على ضبط سلوكه ، وتقييد تصرفاته ، ووجهها نحو الأكمل والأفضل والأحسن ، اقتربنا من المجتمع المنشود .

عادلة بيهم الجزائري

(١٩٠٠ - ١٩٧٥)

«إذا كنا نريد لبلادنا أن تنمو وتزدهر ، ولشعبنا أن يحقق التقدم والنصر ، فلا بد أن تأخذ المرأة دورها كـاملاً ، وأن تتهيـأ لها كـل العوامـل التي تمكنها من أخـذ هذا الدور . من أجل هذه المعاني كانت يقظة المرأة بداية درب عادلة بيهم الجزائري» .

الرئيس حافظ الأسد

ولـدت السيـدة عـادلـة بيهم الجـزائـري في بـيروت عـام ١٩٠٠ في بيت عـريق بعروبته ، فقد كان عمها مختار بيهم ، ووالدها عبد الرحيم بيهم من كبـار المناضلين الوطنيين ضد الحكم التركي الغاشم .

نما عندها الشعور القومي في سن مبكرة ، فلما تأسست الجمعيات السريـة من المفكرين والسياسيين والنواب والعسكـريين للدفـاع عن الوجـود العربي ، اتصلت بهذه الجمعيات وآزرتها ، وكتبت عدة مقالات وطنية في صحيفتي «المفيد» لعبد الغني العريسي ، و«الفتى العربي» لعبد الغني العُرَيْسي وفؤاد حنتس بتوقيع «الفتاة العربية» تحث فيها الفتيات على العمل مع الرجال يداً بيد .

وفي عـام ١٩١٥ أسست مع رفيقـات لها جمعيـة «يقظة الفتـاة العـربيـة» لإيقـاظ الشعـور القومي عنـد المرأة ، وتعليم الفتيـات الفقيرات ، كـما اشتركت في تـأسيس «جمعية الأمور الخيرية للفتيات العربيات» ، وكان لهذه الجمعية نـاديها ومـدرستها ، وتـرأست عام ١٩١٦ لجنـة تشرف عـلى دار للصنـاعـة تقـدم وجبـة طعـام وأجـوراً للعاملات ، وقـد ضمت هذه الـدار ألفاً وثـماني مئة عـاملة يعملن في مختلف الحرف اليدوية .

وحين زارت بيروت بعثة الموفـد الأميركي «كـرين» عام ١٩٢٠ لـلاستفتاء حـول الاستقلال ، قابلتـه السيدة عـادلة ، وطـالبت بالاستقـلال التام للبـلاد العربيـة ، ورفضت أي شكل من أشكال الوصاية أو الحماية أو الانتداب ، ولمـا وقع الاحتـلال الفرنسي شاركت في المقاومة السرية ضده ، وراحت تمد ثوار الثـورة السوريـة بالمؤن واللباس والعـلاج ، واشـتركت في المـظاهـرات عـلى مـدى ربـع قـرن ، حتى تم الاستقـلال ، كما اشـتركت مع عـدد من المواطنـات بتأليـف لجنـة لإغاثـة ومساعـدة عائلات الثوار وأبناء الشهداء .

وفي عام ١٩٢٧ اشتركت أيضاً في تأسيس جمعيـة «يقظة المـرأة الشاميـة» لتشجيع اليد العاملة النسائية في الـريـف ، وإحياء الصنـاعات اليـدوية ، وفي تـأسيس جمعية «دوحة الأدب» ومدرستهـا عام ١٩٢٨ لتنشئـة الفتاة العـربية الجـديدة تنشئـة وطنية

صحيحة ، وتربيتها تربية قومية سليمة ، فلم تنل الترخيص إلا بعد مضي ثلاث سنوات ، ولا تزال هذه المدرسة حتى اليوم منارة للعلم والأخلاق الوطنية .

وفي عام ١٩٣٣ أسست الاتحاد النسائي العربي السوري الذي ضم إحدى عشرة جمعية نسائية سورية ، وقد أسهم هذا الاتحاد برئاستها وتوجيهها بتأمين العيش للعمال المضربين أيام إضراب عام ١٩٣٦ الذي استمر خمسين يوماً ، وفي مشروع إنعاش الريف ، وفي المؤتمر الفلسطيني الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٨ بدعوة من السيدة هدى شعراوي .

وفي عام ١٩٤٤ انضمت تسع جمعيات أخرى إلى الاتحاد النسائي ، وانتخبت عادلة بيهم الجزائري رئيسة له ، بغية الاشتراك في مؤتمر الاتحادات النسائية العربية في القاهرة ، فانبثق عنه الاتحاد النسائي العربي العام الذي انتخبت السيدة عادلة رئيسة له أيضاً وأصبح مقره دمشق ، وظلت تشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٦٧ .

وبعد أن تم الجلاء ونالت سورية استقلالها عام ١٩٤٦ اتجهت السيدة عادلة بيهم الجزائري للتفكير بقضايا المرأة وتوعيتها وطنياً وقومياً ، فطالبت بحقوق المرأة السياسية ، وقدمت عدة مذكرات لرؤساء الجمهورية والمسؤولين لتلافي بعض الثغرات في قانون الأحوال الشخصية في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات والراتب التقاعدي بعد الوفاة ، وإفساح المجال أمامها في الوظائف القضائية والتنفيذية . . . حتى تحققت هذه المطالب كلها ، كما مثلت الاتحاد النسائي في لجنتي تحرير وانقاذ فلسطين .

وفي عام ١٩٢٩ مثلت سورية في لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة ، وحضرت المؤتمر الثاني للاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في بيروت ، وفي عام ١٩٥٤ أيّد الاتحاد النسائي برئاستها ثورة الجزائر وقام بجمع الأموال من أجل هذه الثورة ، وفي عام ١٩٥٥ أسهم الاتحاد في جمع التبرعات لدعم أسبوع التسلح ، وكانت السيدة عادلة عضواً في اللجنة المركزية العليا ، وفي اللجنة التنفيذية لهذا الأسبوع .

وفي عام ١٩٥٦ ترأست وفداً لحضور حلقة دراسية لحقوق المرأة أقامتها الأمم المتحدة في موسكو ، فاستقطبت السيدة عادلة أنظار معظم المندوبات بخبرتها وحنكتها ، وتدارسا معاً موضوع عقد مؤتمر نسوي آسيوي - أفريقي ، وانتخبت رئيسة للجنة التحضيرية فيه .

وفي عام ١٩٥٧ عقد الاتحاد النسائي العربي العام مؤتمره الرابع في دمشق لمناقشة وضع المرأة ودورها في الوطن العربي ، فانتخبتها الوفود المشاركة رئيسة للاتحاد النسائي العربي بالاجماع ، وأصبحت دمشق المقر الدائم لمكتب الاتحاد حتى عام ١٩٦٣ .

وفي عام ١٩٦٠ تلقت دعوة الاتحاد النسائي الصيني لزيارة الصين الشعبية وحضور العيد الوطني في بكين ، فلبت الدعوة ، كما لبت دعوة جمعية عموم نساء الهند في دلهي ، وفي عام ١٩٦١ اشتركت مع وفد الاتحاد النسائي العربي السوري في المؤتمر الأسيوي - الأفريقي الذي عقد في القاهرة ، وفي عام ١٩٦٦ عينت في المجلس الوطني لقيادة الثورة في سورية ، كما دعيت عام ١٩٦٩ لحضور حفل اليوبيل الذهبي لاشتراك المرأة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩ ، وفي عام ١٩٧٣ للمشاركة في اليوبيل الذهبي لتأسيس الاتحاد النسائي المصري في القاهرة .

* * *

هذا غيض من فيض من الأعمال الجليلة التي اضطلعت بها السيدة عادلة بيهم الجزائري ، وقد كانت في هذه الأعمال كلها مثال القائدة الحكيمة التي لا تجازف ولا تتهور ، والرائدة الرزينة التي تشق طريقها ، فلا تتهاون ولا تتخبط . . . وكانت مخلصة وفية للشعب ، فحفظ لها الشعب هذا الاخلاص وهذا الوفاء .

كانت - كما تقول ابنتها السيدة أمل - «طليعية في تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ، ولما أدت رسالتها في وطنها الصغير التفتت إلى وطنها العربي الكبير ، فقامت مع أعلام الأقطار العربية تجمع الشمل وتوجه الخطى للسير في طريق النضال من أجل المرأة وحق الشعب» .

كانت تؤمن أنه لا نهضة ولا تقدم إن ظل نصف المجتمع مشلولاً جاهلاً يقبع في الظلام ، وظلت طوال حياتها وفية لهذين الهدفين العظيمين : الوطني والاجتماعي ، إلى أن لقيت وجه ربها في الثالث من كانون الثاني ١٩٧٥ ، وقد منحها السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية ، نتيجة لهذا الجهاد الدائب والجهود الحثيثة المضنية وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة بتاريخ ٦ /٥ /١٩٧٥ وسُميت باسمها مدرسة ثانوية في حي المهاجرين بدمشق ، تقديراً لكفاحها الطويل ، وخدماتها الكبيرة في سبيل تقدم المرأة العربية .

عزيزة هارون

(١٩٢٣ - ١٩٨٦)

الزمان ١٩٢٣ والمكان حي القلعة في مدينة اللاذقية . . الناس يقبلون على منزل الحاج عمر هارون يهنئونه بالمولودة الشقراء ذات العينين الخضراوين والوجه الجميل . . اسمها عزيزة . . هكذا راح الوالد يجيب سائليه في موجة من الغبطة العارمة والفرح الغامر . .

لم يتشاءم من البنت إذ بشر بها ، ولم يسود وجهه وهو كظيم كما اعتاد أن يفعل بعض الجهلة منا . . كلا . . بل انه مسرور . . متفائل . . سعيد . . لأن أمارات النجابة والذكاء بادية على سيمائها . . انها حركة ، نشيطة . . رضية الطباع ، فلا تزعج البيت بالبكاء . . يا لها من شاعرة طفلة تحس بأعباء أمها المتعبة فتوفر لها النوم الهيء . .

وتكبر الطفلة سريعاً وينمو جسمها . . سنوات وإذا طفلة الأمس صبية يافعة ، يانعة كالزهر الندي . . ينظر إليها الناس بنهم لا يرتوى . . وقبل أن تنهي دراستها الابتدائية أخذ الأنسباء يتهافتون على طلب يدها . . لا . . لن ينتظروا أكثر فربما حليت الصبية الحسناء في أعين الآخرين . . لنخطبها إذن من والدها . . وهكذا كان ، فليس بين الأقرباء تكليف ، والخاطب ابن عمتها . .

غير ان الصبية التي لم تتهيأ جسمياً ونفسياً وفكرياً للزواج المبكر سرعان ما تأنف من حياة الزواج للتفاوت الكبير في السن والعقلية والمزاج . . ولم يمض غير أشهر وإذا الفتاة تعود لبيت أبيها لتستأنف سيرتها مع الكتاب الذي أحبته فأخذ يشغلها عن كل شيء . . تقرأ الشعر وتحفظ أجوده ضاربة عن الزواج صفحا . .

وتخرج مرة برفقة أبيها للتجوال في الطبيعة ، فيعن لها أن تقطف زهرات تضفرها باقة . . تزين بها طاولتها المليئة بأشتات الكتب ، بيد أن الذبول سرعان ما عصف بالزهرات فتأسى وتحزن لمصيرها ثم تردف قائلة لأول مرة :

بنتَ الطبيعةِ ما دعاكِ إلى الذبولِ المسرعِ
فلئن حزنتِ على الندى فخذي الندى من أدمعي
والشعرُ عندي روضةٌ بجمالها فتمتعي
قلبي إليك هدية والشعر أثمن ما معي
ولهت قلبي بالاسى ، ذكرتني في مصرعي .

انها شاعرة ! هكذا راحت العائلة تردد . . وسرى الخبر بسرعة البرق بين

الجيران والأقربـاء ، ثم في الأوساط الصحفيـة والأدبية . . هـذه هي قصة السيـدة عزيزة هارون مع الشعر ترويها لسائليها : كيف صرت شاعرة ؟ . . وتشرق بالدمع كلما ذكرتها بحياتها الخاصة ، لأنها لا ترجوها لامرأة ، وبخـاصة المـرأة التي تريـد أن توفق بين فنها وحياتها الزوجية . .

* * *

يقسم شعر عزيزة هارون إلى ثلاثة أقسـام : وجداني ووطني واجتـماعي ، غير أن شعرها الوجداني يفوق شعرها الوطني من حيث الكمية والنوع ، وان طابع التجديد يسم معظم قصائدها . . صحيح أن عزيزة بدأت بـداية كـلاسيكية ولكنهـا اتجهت إلى التجـديد اتجـاهـا واضحـاً كفـدوى طـوقـان ونـازك المـلائكـة وسلمى الخضراء الجيوسي ، وهو في شعرها الوجداني أوضح وأظهر بكثير ، لأن جل شعـرها الـوطني قيل في الحفلات الرسمية والمهـرجانـات العامـة ، والمناسبـات القوميـة التي تتطلب شعراً عمودياً يحرك ضمائر الجماهير بموسيقاه الصاخبة وقوافيه المنحدرة انحدار السيل يهبط من عل كما في قصيدتها «اقبال» ـ شاعر باكستان الأكبر ـ و«جزائرية مناضلة» .

ومهما يكن من أمر فتجديد عزيزة هارون يختلف كثيراً عن تجديد بعض اللبنـانيين في انها رغم تمردها على الوزن والقافية الواحدة لم تستهن باللغة ، ولم تلجأ إلى التعمية الناتجة عن الرمز ولم تطعم شعرها بالرؤيا الحضـارية التي اجتـذبت جماعـة التجديـد المتطرف ممن تأثـروا بالفكـر الاوروبي الحديث . . ومن يـدري فلو اتيح لعـزيزة أن تـطلع على صراع هـذه التيارات العـالميـة وانسرابهـا في مـدارس ومـذاهب لا تحصى لأكسبت شعـرها بعض العمق . . من هنـا تبدو ضرورة الثقـافة الاجنبيـة للشاعـر وعدم الاكتفاء بالاطلاع على الأدب المترجم .

لقد استلهمت عزيزة الشعر من حياتها المضطربة المتألمة ، من تجربتها الخاسرة مع الرجل ، من غربتها القاسية ، من حيرتها وضياعها وقلقها وهمومها . . من مصيرها مصير الزورق بلا شراع ولا مرفأ . . ألوان حياتها هي التي لونت شعرها كما تقول ، فجاء قاتماً حيناً وزاهياً غير حين ، باسماً ومكتئباً ، ضاحكاً وعابساً . . تربد سماؤها بالغيوم فتهتف :

متى يا تراب ؟
تضمُّ كياني . . بغير عذاب
صحارى . . جياتي . . عواءُ ذئاب
وكلُّ حياتي
سراب . .
بفجر شبابي . . ضممتُ الأغاني
إلى النازحين
ضممت كنوز الجمال الأبي
إلى العارفين
ولكن . . لصوص الحياةِ
استبدوا بكل الضياء الثمين
ركنت أغني . . وأبكي ضياعي
بذوب الحنين
وكل انتحابي . . ذوى واكتئابي
واغلقت بابي . . . .
متى يا تراب ؟ . .

سجينة في قفص قيودها . . تريد الانطلاق وليس من ينطلق معها في الدرب . . تريد أن تحلق في سماوات الحب الذي لا يعرف الحدود ولا السدود . كما تهوى . . حرة . . لا تثقلها مواضعات البشر ولا سخافاتهم وتفاهاتهم . . تريد وما أكثر ما تريد ولكن :

وهذي القيود بدربي وأي حبيب يطير معي
وقلبي يضم الوجود

وهذا الهوى كانطلاق العبير يثير
يسير ويأبى الركود

أطير بهذا الفضاء الرحيب وأي حبيب يطير معي
ويهتف في مسمعي أن أعود
أعود إلى أين يا صاحبي لأي مكان
وليس لقلبي زمان وليس لروحي حدود
أعود إلى الأرض . . لا لن أعود

هكذا يبدو تجديد عزيزة . . في الشكل والقالب ، وليس في المضمون ، في الهيكل والصورة وليس في الروح . . في رقص القوافي وتمزقها على ضفاف السطور . تأبى أن تحبس فكرة ، أو تُعيق حركة خاطرة . يفيض بها الطبع الشعري السليم :

على رعشة من شعاع أسير وامضي
وبعضي يلهم بعضي

أسير ومني العبير يضوع بأرضي

* * *

أهيم لحبي وافتح قلبي لكل الوجود

فأبصر دربي

وكيف أعيش بنور الشموع وشمسي بين الضلوع

تريد السطوع

ونـاري سر انـطلاقـي وسر انـعتـاقـي ومنهـا انـبثـاقـي !

وعلى هذا النهج يسير معظم شعر عزيزة الغزلي ان لم أقل كله ، ولعلي لا اخطىء إذا قلت ان هذا الضرب من تلوين القوافي ومناوحة الأبيـات بين طـويلة وقصيرة ، يعطي صورة طبق الأصل للنفس الشاعرة المحبة التي تحيـا نوعـاً من الذبـذبات غـير المنتظمة ، فهي مائجة تروح وتغدو كالجزر والمد . .

ان الشعـر الحر الـذي يعتمد عـلى تلوين القافيـة ـ تتوج البيت الشعـري حيناً ، والكلمة حيناً آخر ـ إنما يسـير وفق الدفقـات الشعوريـة ويسايـرها ، فعندما تكـون الـدفقة الشعـورية عـارمة يمتد البيت ويطول ، وعنـدما تـأتي واهنة ضعيفـة يقصر ويتقلص إلى حدود الكلمة الواحدة :

أأسلب من نفسي الوارفة
لأغمرَ بالسحر والعاطفة
أنا خائفة

من العين دنيا حنان وحب رحيب
من النور يلمع بين ثنايا حبيب
من الوجد ناراً ودنيا ولوع

ومن حرقات الدموع
إذا التهبت في يدي الشموع
أأغمر نفسي به

وأوغل في قلبه
وأنعم في حبه

وأدخل في قابه
منى راعفه
أيسجن شوقي وحبي
ويقفل قلبي
على عاصفه ؟
أنا خائفه ! !

قد تمر بعزيزة فترات صمت وهدوء، تسكن فيها النفس سكون الطبيعة بعد العاصفة . . تخمد انفعالاتها . . تموت . . وتتأبى على الثورة . . تخرس صوت وجدانها لتعيش لحظة تأمل نفسي حالم ، تزجر القلق الذي لا يفتأ يمرمرها ، لتغرق في خضم النغم الدافىء نغم الموسيقى الكلاسيكية ، فيوحي إليها هذا الاستغراق بقصيدة «شلال» :

أحبه من غير أن أفهمه   شلاله   ألحان
يظل في حيرته   مولّها   ظمآن
أوتاره من السلظى   كأنها   بركان
ملوناً ابداعها   يالهفة   الألوان
أحبه من غير أن أفهمه   شلاله   ألحان . .

بوركت أيها الحب ما دمت تخصب النفوس ، وتنطق الأحاسيس المبهمة بأعذب الشعر .

* * *

أما شعرها الوطني فليس له غضبة شعر الدكتورة طلعة الرفاعي ولا جلجلته ، إلا أنك تحس بالنقمة الدفينة تتفجر منه ، تقرؤه فتشعر بالقساوة من غير عنف ، بالنار تحرق من غير فرقعة ولا دخان . . ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الطبيعة النفسية عند كل منهما : فعزيزة مستسلمة تغزو شعورك من حيث لا تدري ، وطلعة متأبية ، ثائرة . وإذا كان الشعر القومي يحتاج - أكثر ما يحتاج - إلى التأبي والثورة فطلعة لاشك تسبق عزيزة في هذا الميدان ، فمن شعر عزيزة الوطني قولها في قصيدة «ثائرة» :

ان في قلبي آلام بلادي حزن قومي في فؤادي
ومتى تعبق بالطيب تنادي للجهاد
وكأن النار في قلبي تغني ولهيب الثأر في اشعاع ناري
وأرى حلمي في ضوء النهار
يا رفيقي في المنى والوثبة الحمراء هيا انما الفجر تهيا
حان لي أن أتغنى هات لي ما أتمنى
أعطني اليوم سلاحي لا تبال في كفاحي
سأباهي بجراحي انها ورد صباحي

شعرها الوطني شعر مناسبات ، يؤرخ للأحداث التي مرت بها سوريا خلال السنوات الأخيرة ، ونظمت من وحيها قصائد رائعة عبرت فيها عن مشاعرها بخاصة ومشاعر قومها بعامة ، منها قصيدة «غنيت وحدة أمتي» التي تقول فيها :

ماذا أرى يا موطني ماذا أحس وأشعر
قل لي بأن الوحدة الكبرى تعود فتزهر
قلبي يهيم وليس لي إلا هواك مسير
أهلي وأحبابي وخلاني فممن أثار ؟
جرح ينام على العزاء وألف جرح يسهر
في سوريا قومي يثور على القيود ويزأر . .

وقصيدة «سورية» التي تقول فيها :

أغلى من الدم والدموع ديارنا وأحب من نعم الجنان كفاحنا
أشبالنا نار الفداء وسحره والنار تعلم من همو أشبالنا
يا سوريا عاش الكفاح ولم يزل هذا الكفاح به تشع سماؤنا . .

وقصيدتها «الوطن الكبير» :

قالوا ديارك فانثنيت أعانق الفجر النضيرا
ولمحت في وهج العيون تماوجا وهوى أثيرا
ورأيت زغب الطير في الساحات توشك أن تطيرا

ولا تنسى الشاعرة أن ترمي بنظرها خلف حدود بلادها ، إلى الجزائر أرض البطولات والكرامات الذبيحة ، لتعيش مع أحرارها معركة تحقيق الذات وتقرير المصير . . فتقول بلسان «جزائرية مناضلة» :

لم لا أثور وكل شيء ثائر ضجت براكيني وضج سعاري
اتهان في سجن الدخيل جزائري وتذل في أعماقه احراري
أنا ثورة الدنيا على آلامها أنا نقمة الدنيا على الأشرار
يا جرح خولة في جراح نسيبة ونضال كعب في نضال نزار
أرفيقة الثوار ألف جميلة في دفقة التيار كالتيار

* * *

إلى جانب هذين اللونين المذكورين هنالك قصائد اجتماعية قليلة عبرت فيها عن عطفها الكبير على الفقراء واليتامى والمشردين ممن فقدوا حنان الأم وعطف الأب .

ان حرمانها من نعمة الأطفال ومتعة ضجيجهم وموسيقى لغطهم ، لم يزدها إلا تاججاً وشوقاً إليهم . . ليت شعري أي شيء يبقى للمرأة إذا أجدبت دنياها . وأقفر سريرها الصغير من صوت «ماما» يهدهدها ويترع حنجرتها بأبدع الألحان ؟ . .

سئلت عزيزة عن أحب قصائدها إليها ، فأجابت دون تردد : قصيدتي «نداء الأمومة» . . ولو بحثنا عن السبب لرأيناه يكمن في هذا الوجد المقيم والحنين الصارخ من الأعماق كله لهفة وشوق إلى رائحة الأمومة . . هذه اللهفة المعذبة المحرقة . .

اسمع عزيزة (الأم) تقول في قصيدتها «نداء الأمومة» التي أهدتها «إلى الطفلة البائسة المحرومة من الحنان . . «إلى التي نادتني (ماما) وتعلقت بي دون معرفة سابقة . . إلى من فجر نداؤها في نفسي ينابيع حب عميق كنت أجهله . . إلى «سامية» الطفلة الشاحبة الملهمة التي عصرت قلبي بندائها الحنون» :

أنا ماما يا بنيه
هكذا ناديتني
فانتشت بي آه
في كل حنيه

ياسخيه
أنت أغليت الهديه
أنت أترعت كؤوسي
بالنداءات النديه
فأنا ظمأى إليها
يا بنيه . .

وفي قصيدتها «حنان العطاء» تصور حالة مستعطية صغيرة مدت إليها الكف، تستجدي لكن الشاعرة لم تجد في حقيبتها إلا ما اعتادت المرأة أن تحمله من أشياء ترضي غرورها لأنها دفعت جميع ما تملك ثمن رداء جديد وعقد فريد . . وهكذا رجعت السائلة صفر اليدين ، غير ان خيالها الملحاح ظل يرافق الشاعرة ويسري في عظامها ، يبكتها ويشعرها بكابوس الندم والتوبة :

ومدت إلي يدا تريد نقودا
وتنشد جودا
فتاة صغيره
فقيره
فتحت الحقيبه ، ما في الحقيبة غير عطوري
وأشياء ترضي غروري
وأين نقودي ؟
شريت رداء جديدا
وعقدا فريدا
تركت الفتاة ورائي
وسرت بثوبي الأنيق
لكن لمحت خيالا
بجو الفضاء الطليق
خيال الصغيرة يمشي أمامي
بل في عظامي
ويشرب من قوتي
دموع الندامة والتوبة . .

تلكم هي الشاعرة عزيزة هارون صاحبة الصوت الدافىء يحمله الأثير من إذاعة دمشق ناقلاً إلينا أجمل ما تقرأ من أعذب الشعر قديمه وحديثه ، موضوعه ومترجمه . . تختاره بذوق رفيع وتنتقيه كما ينتقي الصائغ الحاذق خالص الذهب من خليطه . .

● توفيت في ١٢ / ٢ / ١٩٨٦ ، وقد قامت الندوة الثقافية النسائية ، بطبع ديوانها وقدم له كل من : الفة الإدلبي ، وعفيفة الحصني ، وعبد اللطيف الأرناؤوط .

الحسناء ـ عدد (٤٢) في ١٩ حزيران ١٩٦٢

كلثوم عودة فاسيليفا

(١٨٩٢ - ١٩٦٦)

ولدت السيدة كلثوم عوده فاسيليفا في بلدة الناصرة بفلسطين عام ١٨٩٢ ، وهي خامس بنت لأسرة تتلهف لأن يرزقها الله صبياً ، فاستقبلت يوم ولادتها بدموع الحزن والخيبة ، ورافقتها كراهة والديها زمناً طويلاً . كانت سمراء اللون ، حتى صار أهلها يعيرونها بـ«السوداء» ، ولما انكمشت على نفسها ، ولاذت بالصمت ، صاروا يعيرونها بـ«الست سكوت» ، ولكي تعوض عن هذا النقص الذي غرسه الأهل البسطاء فيها ، انكبت على العلم ، بالرغم من ارادتهم ، فالتحقت بالمدرسة الروسية أو «مدرسة الجمعية الفلسطينية الروسية» كما كانت تسمى ، وبعد أن تخرجت فيها عام ١٩٠٨ راحت تعمل مدرسة في المدرسة نفسها .

ولكي تهرب من جو الأسرة الخانق اقترنت سنة ١٩١٤ بطبيب روسي يدعى ايفان فاسيليف ، وسافرت معه إلى روسيا ، حيث درست فن التمريض خلال الحرب العالمية الأولى ، فلم يغفر لها والداها ذلك الذنب الذي اقترفته إلا بعد سنوات عديدة .

عملت ممرضة في الجيش الروسي الذي كان يقاتل في الصرب والجبل الأسود مدة سنتين (١٩١٤ ـ ١٩١٦) وبعد تقهقره عادت إلى روسيا عن طريق ألبانيا ـ فرنسا ـ أسوج ـ نروج ـ فنلنده ـ لتعمل ممرضة في الجبهة الروسية حتى عام ١٩١٧ ، ثم ذهبت إلى أوكرانيا لمكافحة وباء التيفوس الذي انتشر فيها .

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها عام ١٩١٨ حتى تركت مهنة التمريض نهائياً وسافرت إلى بطرسبرغ ، فالتحقت بقسم اللغات الشرقية في جامعتها ، وأخذت تعلم اللغة العربية تحت إشراف المستشرق الروسي الكبير أغناتي كراتشكوفسكي ، فتدرجت من رتبة أستاذ مساعد إلى رتبة أستاذ «بروفسور» ، وهي أول امرأة عربية تنال هذا اللقب . لكن فرحتها به لم تطل ، لأن زوجها توفي عام ١٩٢٠ ، تاركاً لها ثلاث طفلات كبراهن في السنة الخامسة من عمرها ، وصغراهن في الشهر الثاني ، لا معين لهن في هذا المحيط الغريب بالنسبة لها .

ظلت في بطرسبرغ حتى عام ١٩٤١ ، ثم انتدبت بعدئذ للعمل في جامعة موسكو ، حيث علمت ودربت عدداً من الطلاب الروس ، ليقوموا بنقل مختارات من الأدب العربي إلى اللغة الروسية ، وفعلاً ترجمت معهم مجموعة من الكتب العربية القيمة لمشاهير الأدباء العرب في العصر الحديث ، باذلة أقصى جهودها لنشر اللغة العربية في روسيا ، فقد علمتها لأناس كثيرين تخرجوا عليها ، واستلموا أرفع

المناصب من سفراء ، وأساتذة ، ومراسلي صحف ، ووكالات أنباء . ولم تكتف بذلك بل علمت اللغة العربية لحفيدها ، دليلاً على تأصل محبة هذه اللغة في نفسها .

زارت فلسطين عام ١٩٢٨ لتطلع على حالة النهضة النسائية في وطنها الأم ، ثم عادت إلى روسيالتستأنف رسالتها السامية ، وتتابع العمل الذي ندبت نفسها إليه .

أ ـ مؤلفاتها :

١ ـ «المنتخبات العصرية لدراسة الآداب العربية» . طبع عام ١٩٢٨ ، وظل يدرس حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كأفضل كتاب مدرسي لتعليم اللغة العربية للأجانب ، واشتهر على نطاق واسع داخل روسيا وخارجها . .

٢ ـ «كتاب اللغة العربية للروس» طبع عام ١٩٣٦ .

ب ـ ترجماتها إلى اللغة الروسية :

١ ـ كتاب «الأرض واليد والماء» و«قصة قضية مجيد رحيم» للكاتب العراقي ذى النون أيوب عام ١٩٦٠ .

٢ ـ كتاب «القصص المصرية» عام ١٩٥٦ ، وكتاب «١٩ قصة مصرية» عام ١٩٥٧ .

٣ ـ ترجمت كتابين يضم الأول قصصاً مختارة لمجموعة من الكتاب السوريين ، والثاني قصصاً مختارة لمجموعة من الكتاب اللبنانيين عام ١٩٥٨ .

٤ ـ ترجمت نماذج مختارة من القصة العربية الحديثة ونشرتها عام ١٩٦٣ .

٥ ـ كذلك ترجمت معظم أبحاث «الموسوعة السوفييتية الكبرى» فيما يتعلق بالأدب العربي وأشهر أعلامه .

ج ـ ترجماتها إلى اللغة العربية :

١ ـ كتاب كراتشكوفسكي ، عميد مستشرقي الروس ، عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي المصري (١٨١٠ ـ ١٨٦١) الذي يعتبر أول رجل عربي علم اللغة العربية في روسيا .

٢ ـ كتاب «حضارة العرب في الأندلس» .

٣ ـ لخصت دراسة كراتشكوفسكي عن أقدم مخطوط عربي في آسيا الصغرى .
٤ ـ ترجمت كتاب «تانيا» للأديب الروسي «ليدوف» ، الذي يتحدث عن بطولة الفتاة الروسية «كوساديميا تسكايا» في الحرب الوطنية .
٥ ـ مجموعة قصص عن لينين للكاتب «كونوف» .
٦ ـ كتاب «أساطير شعوب الاتحاد السوفييتي» .

وتقديرا لهذه الجهود الكبيرة التي بذلتها السيدة كلثوم عودة في حقل التعليم وتعريف شعوب الاتحاد السوفييتي بالأدب العربي والعكس ، فقد منحتها الحكومة السوفييتية وسام «شعار الشرف» عام ١٩٦٢ بمناسبة بلوغها سن السبعين ، وكانت من قبل قد نالت الميدالية الذهبية مرتين ، تقديراً لبطولتها في الحرب .

توفيت عام ١٩٦٦ عن أربع وسبعين سنة قضتها في العمل المضني والكفاح المتواصل في ميادين التمريض والتعليم والترجمة ، تاركة ذكرا لا يمحى بين طلابها الكثيرين وقرائها العديدين ، بينهم طائفة من كبار المستشرقين .

وهذا نموذج من مذكراتها التي بعثت بها إلى الأديبة الفلسطينية أسمى طوبي ، حينما عزمت على تأليف كتابها «عبير ومجد» ، وهو يبين قصة صراعها الدامي في الحياة ، ولاسيما بعد وفاة زوجها .

«لقد كنت في ساحة الحرب في البلقان وفي روسيا ، ولكن ألم أكن سعيدة لمعافاة كل جندي أو لتخفيف آلامه ؟ لقد علمت . . . زرت الفلاحين في منازلهم . . . . عالجتهم . . . طببت عيون أطفالهم عملت الأعمال الشاقة لأعيل نفسي وطفلاتي الثلاث ، فاستأجرت أربعة أفدنة من الأرض لأزرعها ، وكنت بالفعل أزرع وأسير وراء الحصادين لأجمع لفائف القمح» .

«كان علي أن أزود الآلة البخارية التي تدرس القمح بالوقود ، وهو من القش والتبن يومئذ ، ويحتاج هذا التزويد إلى حركة دائمة تضني طوال النهار . . . في كل تلك الحالات كنت أحسب عيشي هنيئاً لأنني لم أشعر وطفلاتي بالجوع والعوز . . . لم يكن لدى وقت أضيعه بالملل والضجر . . لم أعرف الاحتياج المادي أو النفسي حتى ابان تلك المجاعة الهائلة وتلك الحروب الفظيعة» .

«مع الفلاحين لم يضع وقتي سدى . . . كنت أدرس أخلاقهم وعاداتهم عندما أفرغ من العمل في ليالي الشتاء الطويلة ، كنت ألقي عليهم المحاضرات في نظافة المنزل ، وفي بعض الأمراض الوبائية والجلدية . . . كنت أقرأ لهم عن أمراض

المواشي فيتجمعون حولي مشوقين للسماع . . . كانت ثقة القرويين بي كبيرة والحمد لله ، فكنت أجمعهم أيام الآحاد وأحدثهم عن كل موضوع مفيد . . . وكم كانت فرحتي كبيرة حينما أرى امرأة في الأربعين تكتب اسمها لأول مرة» .

«عندما توفي زوجي سمعت احدى المعلمات السائرات خلفي في الجنازة تقول لرفيقتها . . . ما أتعس هذه المرأة ! لم يبق لها سوى أن تحمل «الكشكول» وتطرق الأبواب متسولة . . . فهي غريبة لا معين لها وطفلاتها يعقنها عن العمل ، وخاصة الصغرى ابنة الشهرين . . . ثم انها لم تصل إلى هذه القرية إلا من ثلاثة أيام» .

«لم أكن أشتغل في عهد زوجي ، لذلك لم يعرفني أحد ، ولكن لم يكد يمضي عام حتى قالت تلك المعلمة نفسها . . . سعيدة أنت ، ما أهنأك !» .

«كنت في كل أدوار حياتي أعمل راغبة لا مكرهة . . . ولا أجد الراحة إلا عند تذليل المصاعب . لقد أحببت الناس كل الناس ، فكان اعطائي لهم هذا الحب باعثاً على سعادتي . . . كنت أعمل طوال الحرب الأهلية بلا أجر وأسعد بهذا . . . كل عمل كان شريفاً بالنسبة لي . . . لم أخجل من أي عمل كان ما دام هذا العمل لا يمس شرفي أو شرف سواي» .

«لقد علمني الرجل الكبير العلامة كراتشكوفسكي أشياء كثيرة جميلة عن شعبي العربي لم أكن أعرفها من قبل ، فزادت سعادتي بالأمل أنه لا بد لنا نحن العرب من مستقبل لا يقل مجداً عن الماضي . . . » .

لبيبة هاشم

(١٨٨٢-١٩٥٢)

ولدت لبيبة هاشم في بيروت سنة ١٨٨٢ ، وكان والدها يدعى ناصيف ماضي ، وتعلمت في مدرسة راهبات المحبة أولاً ، ثم في الجامعة الأميركية في بيروت .

نزحت مع أسرتها إلى مصر في مطلع القرن العشرين ، وهناك تعرفت بالأديبة وردة ناصيف اليازجي ، صاحبة ديوان (حديقة الورد) وأخيها العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي ، فدرست عليه اللغة العربية ، وتعلمت منه أصول كتابة الخط الفارسي الجميل ، فأجادته كل الاجادة ، وكان يشجعها على الكتابة ، مما حملها على انشاء مجلة (فتاة الشرق) في ١٥ تشرين الأول عام ١٩٠٦ . عينتها الجامعة المصرية خلال عامي ١٩١١ و١٩١٢ أستاذة في القسم النسائي ، وعهدت إليها بالقاء محاضرات في التربية ، فنالت محاضراتها كل توفيق ونجاح ، ويقال إن أحد أنسبائها حاول أن يجمع هذه المحاضرات في كتاب مستقل ، لكني لم أعثر لها على شيء من هذا القبيل .

دعتها الحكومة العربية (حكومة الملك فيصل الأول) إلى دمشق سنة ١٩١٩ ، وكلفتها بوظيفة التفتيش في وزارة المعارف ، فقامت بهذه المهمة خير قيام ، وهو منصب رفيع لم يسبق لامرأة عربية أن تقلدت مثله .

سافرت إلى سانتياغو عاصمة جمهورية تشيلي في أميركا الجنوبية سنة ١٩٢١ وأصدرت فيها مجلة (الشرق والغرب) في ١٥ أيلول سنة ١٩٢٣ ، لكنها لم تلبث أن عادت إلى مصر في السنة التالية ، واستأنفت اصدار فتاة الشرق ، بما عرف عنها من قلم سيال ، ونشاط جم .

آثارها :

أصدرت لبيبة هاشم رواية (قلب الرجل) سنة ١٩٠٤ ، وهي رواية اجتماعية ، تبدأ حوادثها في لبنان ، أثناء فتنة عام ١٨٦٠ ، ويتنقل أبطالها بين لبنان ومصر وأوروبا ، وتنتهي أخيراً في مصر ، فكأن المؤلفة أرادت أن تجمع بين هاتين البيئتين في قصة واحدة . تبدأ الرواية بغرام حبيب نصر الله ـ وهو شاب مسيحي من أبناء جبل لبنان ـ بفتاة درزية أنقذها من الموت .

أرادت المؤلفة من وراء هذه الرواية أن تظهر شهامة المرأة ، وتقلب الرجل وخداعه ، لذلك غلب عليها طابع الدفاع الصريح عن المرأة ، ولا غرو فقد كانت الكاتبة في طليعة اللواتي حملن القلم للدفاع عن المرأة الشرقية وحقوقها ، وقد

أصدرت مجلتها فتاة الشرق لهذا الغرض .

والحكاية قوية محكمة السرد ـ كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم ـ لكنها تعتمد كثيراً على عنصر المصادفات ، وتكثر فيها المبالغات الميلودرامية ، وتتكرر حوادث الوفيات (وفاة فاتنة وسلمى ويوسف) كما ان نهايتها متكلفة بعيدة الاحتمال ، وشخصياتها حية واضحة الملامح .

اهتمت بتحليل العواطف تحليلا ظاهرياً ، وحاولت تحليل الصراع الداخلي والحياة الباطنة للشخصيات وقد وفقت في معالجة العواطف العميقة التي ظهرت في حب روزة لعزيز .

أما أسلوب الكاتبة فجميل ومتقن ، ولعله من أجمل الأساليب القصصية في هذه الفترة ، وقد تخلصت من الوعظ والاستطراد إلى النصائح والارشادات ، كما اهتمت بتصوير البيئة والجو العام للحوادث ، وكثيراً ما كانت تمهد لها تمهيداً نفسياً ، يساعد على فهم الصورة العامة لها .

وهي تعتمد على الحوار ، ويعينها ذلك على احياء الشخصيات ، وبث النشاط في الحوادث ، وبالاجمال فهذه الرواية نعتبر في طليعة الروايات الاجتماعية التي كتبت في هذه الفترة .

وللسيدة لبيبة هاشم عدة قصص تاريخية واجتماعية قصيرة وأقاصيص ، نشرتها في مجلتها فتاة الشرق سنة ١٩٠٧ منها قصة (شيرين) التي اعتمدت فيها على ما ورد في كتاب الشاهنامه للفردوسي فيما يتعلق بهذه القصة العالمية التي دارت حول الأميرة الأرمنية شيرين التي أقسم الملك الفارسي كسرى أن يتزوجها ، ولكن القدر أبى عليهما أن يتساقيا كؤوس الهوى والحب صافية ، وغايتها من هذه القصة أن تبين أن القاتل سوف يقتل ، وأن القدر لا بد أن ينتقم يوماً ما .

ومن أقاصيصها أيضاً (جزاء الاحسان) وهي وعظية تبين لنا أن فاعل الخير لا بد أن يكافأ على عمله . و(شهيد المروءة والوفاء) التي تتحدث فيها عن فتاة اسمها ليلى أحبت شاباً اسمه سالم ، وتعاهدا على الزواج ، ولكنها سافرت قبل زواجها منه إلى أميركا بصحبة أمها ، ثم عادت إلى حبيبها وهي في أشد الشوق إليه ، لكنها تفاجأ بمرضه بالجدري ، ثم بموته بمكيدة دبرها أخوه وزوجته فتصاب بالجنون . وهذه الاقصوصة بعيدة كل البعد عن الواقع ، وتعتمد فيها على المبالغة غير المعقولة .

وللكاتبة مقالات كثيرة نشرتها في مجلة «فتاة الشرق» أشهرها (القمار والزواج) وتتحدث فيها عن مساوىء هذه العادة الذميمة التي تفشت بين ذوي اليسار من أهل الطبقات البورجوازية تاركين زوجات «في مقتبل العمر ، وقد لبسن من الحسن أكمل سربال ، تستعر صدورهن بالزفرات . . وقد هجر أجفانهن النعاس» .

ما يهمها من القمار هو انعكاسه على المرأة التي تظل في بيتها ساهرة ، تتقلب على جمر الانتظار ، بينما الرجل لاه عنها ، مستسلم إلى لذاته وشهواته . تقول : «واني لأجد للمقامر عذراً إذا قصّر عن تصوير حال قرينته ومقدار شقائها ، متى كان مكباً على مائدة القمار ، تاركاً اياها بين أيدي الهواجس ، تستعد لما سوف تأتيها به الخسائر والأضرار ، بل لا ألومه إذا بهره بريق الأصفر الغرار ، فلم يفطن إلى أن تلك جناية يجنيها ، ووديعة لأولاده يتصرف بها ، ولكني أعجب كيف يجوز له سرقة الغير على تلك الصورة التي يسمونها المقامرة ، وهو يرى من نتائجها في سواه من المقامرين ما لا ترضاه أحقر النفوس ، وأحط الأخلاق ، وكفاه نذيراً ما يراه من ضياع أموالهم ، وشقاء أسرهم ، وتعريضهم مستقبل أولادهم على أثرهم ، وتمهيدهم السبل أحياناً لنسائهم للانضمام إلى حلقة القمار» .

«فلا أهلاً بعصر جر على الشرق أمثال هذا الداء ، ولا مرحبا بفرنجة اقتبسنا عنهم هذه الخلة الشنعاء ، وسلام على زمن قضاه أجدادنا في بسطة العيش وصفو المسرات ، وسقيا لأيام سادت فيها الجهالة ، ولكنها امتازت بالفضل وصيانة الذات ، بل تعسا لدهر غدونا نشكو فيه الحاضر ونتلهف على ما فات ، فقد قنعوا من دهرهم بالراحة ورخاء البال . . . حتى أصبح الزواج في عصرنا مثلاً يضرب في اجتناء الشوك دون الأزهار ، وباتت بناتنا هدفاً لسهام الذل وشفار البوار ، وغدا شباننا يتسابقون في مضمار هذا التقليد الذي أخف ما فيه من الويلات عار القمار» .

«وليت تفشي هذا الداء قد وقف عند حد الرجال ، بل ان عدواه تناولت قسماً كبيراً من ربات الحجال ، فغدون لا يلذ لهن إلا الاشتغال بأسبابه ، ولا يفكرون من الواجبات إلا في إتقان أبوابه» .

مـــاري عجـــمي

١٨٨٨ ـ ١٩٦٥

عندما أردت أن أكتب عن ماري عجمي ، لاح لخاطري شريط طويـل مما كتبت عن هذه الأديبة الـرائدة المنـاضلة يوم كنت أول من دعـا للكتابـة عنها ، بعـدما ظن الكثيرون أنها فارقت الحياة ، في حين أنها كانت لا تزال تعيش في منزلها في حي «باب توما» بدمشق ، بعيدة عن الناس والأضواء والصحافة والأدب ، مـع أختها ايلين ، عـازفة البيـانو الشهـيرة ، لاتفتح بـابها لانسـان إلا للأخوات «عـويشق» اللواتي كن جارات لها .

كنت عام ١٩٥٦ طالبا في صف البكالوريا ، في ثانوية الآسية الارثوذكسية . وفي يوم كنت عائداً إلى البيت ، فلمحت في مكتبة «جـورية» الصغـيرة كتابـاً يحمل هـذا العنـوان «ماري عجمي ـ في مختـارات من الشعر والنـثر» وعلى غـلافه هـذان البيتان للمرحوم فارس الخوري :

يـا أهـيـلَ الـعـبـقـريـه سـجـلوا هـذي الـشـهـاده
إن مـاري الـعـجـمـيّـهْ هـي مـيٌّ وزيـاده

ولما سألت صـاحب المكتبة عن سعـره قال : «خمس لـيرات سوريـة فقط» مع أن عدد صفحاته هو ١٠٤ صفحات ، فترددت في شرائه ، لان ثمنه باهظ جداً بـالنسبة لطالب لم يكن مصروفه الشهري يتجاوز خمس لـيرات ، ولما رآني صـاحب المكتبة ذو الوجه الأسمر النحيل ، راغباً في الكتاب قـال : «خذه وادفـع ما تشـاء» فدفعت لـه نصف ليرة كانت كل ما في جيبي ، وعدت إلى البيت فرحاً مغتبطا بهذه المختارات ، أقرؤها بنهم لا يرتوي وجوع لا يشبع أحملها في حقيبتي المدرسية يوميـاً ، أطالعهـا في الفرص بين الدروس ، إذ أنتحي زاوية مهملة ، لا يصـل إليها شغب المشـاغبين أو صراخ المتشيـطنين من أولئـك العفاريت الـذين كـان همهم الـركض والقفـز واثـارة الفوضى !

لقد وقع حب تلك الأديبة في نفسي منذ ذلـك اليوم ، وكم فـرحت عندمـا عرفت أن منزلها لم يكن يبعد عن المدرسة غيربضعة أمتار ، ولما حدثت صـديقاً لي عن رغبتي في التعرف إليها قال : تعال نقرع بابها ، فاما أن تستقبلنا ، وامـا أن تعتذر ، فنعـود أدراجنا . وفعلاً تم لنا ما أردنـا ، إلا أننا عـدنا بخفي حنـين ، دون أن نعرف سببـاً للرفض ، واعتقدنا أنه ربما يعـود إلى كوننـا حديثي السن ، فكيف تستقبـل أديبة في السبعين من عمرها طالبين ناهضين ، ليست لهما باع طويلة في الأدب ! لكن يكفيني على كل حال ، أنني نفذت رغبتي المكتومة ، واسترحت مما كان يؤرقني .

وبعد أن تخرجت من الجامعة عام ١٩٦١ وصرت قريبا من حلب ، شاءت الظروف أن أتعرف بالاديب الكبير سامي الكيالي (١٨٩٨ - ١٩٧٢) ، وبينما كنا نتحدث ذات يوم عن أدب المرأة السورية ، دفع إلي بالعدد الجديد من مجلة «العربي» الكويتية ، لأقرأ ما كتبه عن أديبتين سوريتين هما : مريانا مراش وماري عجمي ، وأكد لي في حديثه أن الثانية قد توفيت من زمان ، فاستغربت الأمر وقلت له : أعتقد جازما بأنها ما تزال على قيد الحياة ، فأجاب : إذا كان ما تقوله صحيحاً فأنت مكلف منذ الآن بالاتصال بها وتقديم محاضرة عنها في حلب ، وكان الكيالي يومئذ مديراً للمركز الثقافي العربي ، ولما عدت إلى دمشق في أول عطلة مدرسية ، سعيت للاتصال بالأسرة لأجمع المعلومات اللازمة وأطلع على مجلتها «العروس» وأهيّء من خلالها محاضرتي ، ولحسن الحظ وفقت في مهمتي . . . فقد فتح لي الباب المقفل هذه المرة ، واستقبلتني أختها «ايلين» ، لما عرفت اسمي وقصدي من الزيارة ، وبعد أن استأنست بي قدمت لي أحد عشر مجلداً من مجلة «العروس» التي كانت تصدرها أختها ، ونسخة من رواية «المجدلية الحسناء» التي ترجمتها عن الانكليزية وأهدتها إلى مشتركي مجلتها ، واستطعت بهذه المناسبة أن أحصل على عدد من الصور التذكارية المعلقة على جدران منزلها ، وأصور في الوقت نفسه هذا المنزل الأثري الذي كنت أتمنى أن يصبح في يوم من الأيام متحفاً يضم تراث ماري عجمي وأشياءها ، وهو دار دمشقية واسعة ، في صحنها بركة ماء ، وأشجار نارنج ، وأزاهير شتى ، ومرايا و . . . وما زلت أحتفظ بهذا الفلم المصور إلى اليوم . ولما عدت إلى حلب حملت للأستاذ الكيالي بعض الصور التي تؤكد أن ماري عجمي حية ، لكنها متوارية ، تكره الناس ، كل الناس ، وحملت له أيضاً أحد عشر مجلداً من مجلة العروس هدية لمكتبة المركز الثقافي أو دار الكتب الوطنية ، ومحاضرة عنها قدمتها في كل من المركز الثقافي العربي والنادي الكاثوليكي بحلب في فترتين متباعدتين ، وبينت في المحاضرة أن ماري أحبت أن تعتزل الناس وتحتجب عنهم ، ولا تريد أن تقابل أياً كان ، وأنا نفسي لم يتح لي أن أراها إلا بعد لأي ومشقة ، وبعد أن تواريت وراء شجرة النارنج ، وكانت هي في الدور الثاني تنشر بعض ثياب غسلتها بنفسها وكان من عادتها ، أواخر أيامها ، أن تزاول أعمالها وأمورها الخاصة بنفسها ، ولا تترك ، حتى لأختها ، مجالاً لذلك .

لم أكتف بتلك المحاضرة في حلب ، بل قدمت سواها في النادي الفني بدمشق ،

والمركز الثقافي في كل من اللاذقية وإدلب ، وكتبت عنها أكثر من مرة في مجلات : الأديب والمعارف ودنيا المرأة في بيروت ومجلتي المعلم العربي ، والفتوة ، وجريدة الثورة ، وكان آخر ما كتبت عنها في عدد تموز ١٩٧٤ من مجلة المرأة العربية وقصرت المقال على مجلتها «العروس» فقط .

أما اليوم فإنني أعود للكتابة عن المجلة وصاحبتها بشيء من الاسهاب ، لأغني الجوانب التي أوجزتها هناك ، ولأضيف أشياء أخرى كنت قد أغفلتها ، أو اكتفيت بالاشارة إليها ، مبيناً من خلال ذلك الدور المهم والفعال الذي لعبته ابان الاستعمارين التركي والفرنسي ، فكانت بحق مثال المرأة الطليعية المناضلة .

* * *

انشئت مجلة العروس في دمشق في مطلع كانون الأول عام ١٩١٠ بتشجيع من السيد قسطنطين يني ، وكانت تطبع في مطبعة جريدة حمص في حمص ، ثم نقلت طباعتها إلى دمشق ، وتحملت أعباءها التحريرية والمادية بنفسها ، وعمرها لم يتجاوز الثانية والعشرين[1] ، وهي «مجلة علمية أدبية صحية فكاهية» وشعارها «ان الاكرام قد أعطي للنساء ليزين الأرض بأزهار السماء» . ولا غرابة إذا جعلتها تهتم بالصحة ، وهي التي درست فن التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٦ ومارسته في مستشفيات الجامعة نفسها ، لكنها لم تكمل الدراسة إلى النهاية بسبب انحراف صحتها ، أما زميلتها الدمشقية أديل كساب ، فقد تابعت دراستها ، وكانت أول ممرضة سورية تنال اجازة رسمية في فن التمريض ، وتروي أديل قبل هجرتها إلى كندا ان ماري كانت شديدة الولع بالأدب منذ ذلك الحين ، حتى انها كانت تقدم لوائح درجات حرارة المرضى مصحوبة بالأشعار . وكانت فكاهية لأن ماري كانت صاحبة نكتة فريدة وسخرية لاذعة ـ كما حدثني بذلك الشاعر أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وكانت صديقة له ولأخيه المرحوم أحمد شاكر الكرمي صاحب جريدة الميزان ـ ولا يكاد يخلو عدد من أعداد مجلتها من بعض النكات التي تنقلها لقرائها ممن برعوا في هذا الفن كمارك توين وجورج برناردشو ، وكم مرة تندرت على نفسها لتضحك الحضور كما كان يفعل الجاحظ في زمانه .

كان عدد صفحات العروس في أول عهدها اثنتين وثلاثين صفحة ، ثم ازداد إلى

أربعين ، وظلت تصدر هكذا إلى خريف سنة ١٩١٤ حيث توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، وأصدرت منها ثلاثة مجلدات وتسعة أعداد في أكثر من ألف وخمس مئة صفحة ، وكانت كما ذكرنا تحررها بمفردها انشاء وترجمة ، وتتولى بنفسها كل شيء ، وتكتب ، بالاضافة لذلك ، في صحف : المراقب ، والوطن ، والسهام وزحلة الفتاة وغيرها .

وما ان وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى أعادت أصدارها في تشرين الأول عام ١٩١٨ ، وزادت عدد صفحاتها حتى صار أربعاً وستين صفحة ، واستمرت تحررها بقلمها الجريء حتى سنة ١٩٢٥ حيث توقفت نهائياً ، بسبب مناهضتها الصارخة للاحتلال الفرنسي ، وقد حاول الفرنسيون شراء ضميرها بالمال ، فباؤوا بالخيبة والخذلان ، إذ رفضت رفضاً باتاً أن تتعاون معهم ، أو تجعل من مجلتها بوقا لهم ، كما رفضت من قبل الاذعان والاستسلام للأتراك ، وأبت إلا أن تقابل جمال باشا السفاح لعلها تستطيع أن تشفع لشهداء السادس من أيار ، ولاسيما صديقها الشهيد بيترو باولي الذي كانت تلقبه بالباتر ، ولكن شفاعتها كانت محدودة .

كان مجموع ما صدر من المجلة في المرحلة الثانية سبعة مجلدات تقع في حوالي خمسة آلاف وأربع مئة صفحة ، وهكذا يكون مجموع ما صدر من العروس أحد عشر مجلداً في ستة آلاف وتسع مئة صفحة ، وبعد توقف المجلة لم تنقطع عن الكتابة ، بل استمرت تكتب في صحف ومجلات عديدة منها : حرمون ، والاخاء ، ونور الفيحاء ، وسورية الجديدة ، والرابطة الأدبية ، وألف باء ، والميزان ، والفيحاء (في دمشق) ويقظة العرب (في الأرجنتين) ، والحقيقة ولسان الحال ، والهدية ، والاحرار ، ومنسيرفا (في بيروت) والحياة والشعب (في الاسكندرية) .

كانت توقع مقالاتها الخطيرة باسم (ليلى) ، وتحت عنوان «حديث ذو شجون» ، وفي ذلك يقول الشاعر نبيه عبده :

لَرَشْفُ السحرِ من ثغرِ «العروس» ... أحبُّ إليَّ من رشفِ الكؤوس
بها دررُ المعاني قد تجلتْ ... شموساً دونها حسنُ الشموس
فأبدت من سنا (ليلى) جمالاً ... يقدمه البخيلُ على الفلوس

وبالاضافة إلى باب «حديث ذو شجون» ، الذي كانت تكتبه من حين لآخر ،

تتحدث فيه شهرياً عن انطباعاتها ، وتضمنه أبرز آرائها وأفكارها ومطالعاتها في اللغات الأجنبية . . . هنالك أبواب أخرى هي : باب المباحث النفسية ، وكان لها ولع فيه ، وباب الفنون الجميلة ، وباب الرواية ، وباب تدبير المنزل ، وباب الاجتماع ، ثم زاوية للاخبار الأدبية والاخبار الخاصة المتفرقة ، وكانت تزين الصفحة الأولى من كل عدد بصور المشاهير العرب والأجانب ، كهلن كيلر ، والكونتيس دي نواي ، وميخائيل نعيمة ، وأحمد شاكر الكرمي ، والدكتورة أنس بركات باز ، وجون رسكن ، وعارف النكدي ، وصفية حرم سعد زغلول ، والشاعرة اليونانية سافو وسواهم .

كان من كتاب المجلة آنذاك عدد كبير من رجال الفكر والأدب في الوطن العربي والمهاجر ، معظمهم من الرجال لأن عدد النساء الكاتبات كان يعد على الأصابع ، فمن النساء العربيات : روز شحفة ، والدكتورة أنس بركات ـ زوجة نصير المرأة جرجي نقولا باز الذي كتب سير العشرات من النساء اللامعات ، وألف كتابه المشهور «اكليل غار لرأس المرأة» وزينب فواز ، وأديل عجمي ، وسلمى كساب ، وسلمى جنبلاط وفاطمة اليشرطية ، ونازك العابد ، وسوزي كحيل . . . وكانت تترجم لعدد من الكاتبات الاميركيات والانكليزيات مثل دوروثي دوكس ، وليزا الكوت ، وألن روبنصون ، وهرييت ستانسون . . . أما الكتاب والشعراء فنذكر منهم على سبيل المثال أولئك المداومين على الكتابة في العروس مثل أديب فرحات ، وأحمد شاكر الكرمي وسليم حمدان ، وعبد المجيد رمضان ، وجورج قصاص ، وايليا أبو ماضي ، ومحبوب الشرتوني ، والرصافي ، والزهاوي ، وعبدالله النجار ، والدكتور خالد الخطيب ، قسطنطين تيودوري ، وجورج ميداني ، وميخائيل الله ويردي ، وبدوي الجبل ، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) الذي قال في حفلة يوبيل العروس الفضي :

خمسٌ وعشرونَ جهادٌ كلُّها   ملء عيونِ الفجرِ تلك العبقريهْ
(قال) خذوا لغتكم عن أعجمي   فهل ترى أضمر هذي «العجميه»

لا أستطيع أن أقدر عدد النسخ التي كانت تطبعها من مجلتها شهريا ، لكن يمكن أن نستنتج من المدن التي انتشر وكلاؤها فيها ، أنها كانت موزعة توزيعاً واسع الانتشار في الوطن والمهاجر ، ومقروءة على نطاق بعيد . . . فقد كان لها وكلاء في كل من : بونس آيرس ، والقدس ، وبيروت ، ونابلس ، وسوق الغرب ،

وكندا ، وبغداد ، وكاليفورنيا ، وسانباولو ، والـلاذقية ،والاسكنـدرية ، ويـافا ، وحماه ، وعمان ، ومرجعيون ، ومشغرة ، وجزين ، ويبرود ، ودير الـزور ، ووادي شحرور ، وطرابلس ، وبشمزين ، والقاهرة ، وصور ، وبعبدا ، وعبيه . . .

ماري والاستعمار التركي :

لقد ارتبط كفاح الآنسة ماري عجمي ، بالدرجة الأولى ، بشهداء السـادس من أيار ، فزارت السجـون غير مـرة ، ووصفت أحوالهـا وأحوال من فيهـا من السجناء السيـاسيين ، ورأت بـأم عينها الأوضـاع السيئة التي كـانوا يعـانـون منهـا ، وألـوان العذاب والاضطهاد التي تحملوها بصبر الجبال ، ووصفت جمال باشا بأنه شر طاغيـة ابتليت به البلاد ، غير خائفة من عقابه ، ولا متهيبة مشانقه وجـواسيسه ، فقـد كان الشهـداء أولئك الـذين قتلوا حباً بـالاستقلال ، بعـد أن جعلهـم جمال بـاشا بمنـزلـة الواشين المجرمين على حد تعبيرها .

تقول : «لقد كنت أسمـع أنين أولئـك الشهداء ، وأبصر مـواكبهم المزمعـة على الـرحيـل ، وأرى المشـانق المنصـوبـة كـأنها مـواقف منـاطيـد المجـد المحلقـة إلى السماء . . .» .

«كنت أول من لبى دعوة بعض الأدباء السجنـاء ومن الساعـين لانقاذهم ، ففي ذات يـوم هرعت إلى السجـون وهي تعج بـالمجرمين ممن ساغ لهم شرب الـدماء ، واختـلاس أموال النـاس ، والأبريـاء الذين وشي بهم من أنهم حفـار قبور الـترك ، وجلهم من الأدبـاء وأعيـان البـلاد ، أتي بهم إلى الشـام من كـل أطـراف ســوريـة وشواطئها ليـلاقوا من محكمـة الموت العـرفية جـزاءهم . . . دخلت بابـاً قام عـلى جانبيه وفي صدره ثلاثة سجون منفصلة لكل منها حاجز خاص مصنوع من القضبـان الحديدية ، وهي مجموعـة سجون أو عبـارة عن كهوف صخـرية يـوصل إليهـا بثماني درجـات فرأيت وراء أحـد تلك الأبواب نخله مـطران جالسـاً عن كثب من مدخـل مغارته الضيقة المنخفضة السقف ، أمامه سلسلة ضخمة معلقة إلى قدمه تزن ثلاثين رطلاً لقعقعتها كلما تحرك صدى أجش ، وكـان يرفعهـا بيديـه إذا مشى ، ولما رآني رفع بصره إلي وأشار بالصمت مخافة الجواسيس والرقباء ، وأنا أعجب لحالتـه وتجلده

بعد أن نال تلك الاهانات ، ولطخ وجهه بالاقذار ، وصفع مئات الصفعات بأيدي أناس لم يكن يرضى أن يكونوا له عبيداً . بلى عجبت وايم الحق عجباً شديداً كيف لم يقع مريضاً في الفراش على الأقل» .

«وقد كنت لا ترى يوم تشهيره بين عقلاء المسلمين وكافة المسيحيين إلا أناساً مرتعشين واجفين مفتتي الأكباد ساقطي الرؤوس يهتزون كأوراق الخريف عند هبوب العاصفة . . . خرجت من ذلك المكان ، فإذا غلام يحمل قصعة من اللبن أرسل طلبها أحد معارفي من الأدباء ، فإذا الخفير يحفر بأنامله القذرة حفرة في تلك القصعة للتثبّت مما فيها ، ثم يلحس أنامله لتطهيرها مما علق بها ، فيفحص غيرها من القصاع على اختلاف ألوان الطعام» .

ثم تتحدث عن سجن جامع المعلق فتقول :

وجامع المعلق جامع أثري قديم يجري تحت ردهته الرحبة أحد فروع نهر بردى . وكانت ردهته تضم ٤٢٠ سجيناً من كل طبقات الأمة ، وكانت النوافذ محكمة لأفوهة ، صغيرة في باب الجامع الخشبي يخال لناظره أنها فوهة مدخنة لما احتشد فيها من الأبخرة المتعفنة ، وكنت أتمكن من محادثة من أريد من الشهداء برشوة الخفير ليدعوه إلي ويخرجه إلى البهو» .

«وما زالت زياراتي للسجون تتوالى حتى رأيت أن أسعى جهدي لانقاذ بعض الأدباء ساعة علمت أن لا مفر من حكم الاعدام . وكانت المحكمة العرفية لا بسمح بدفاع المحامين ، فرأيت أن أدلي بالتجارب لعل لي إلى تخليصهم من سبيل ، يستعينة بنفوذ الفضلاء أمثال : غالب الزالق ، وحسين ايبش ، وحسن المغربي غيرهم ، فتمكنت بواسطة محمود زكي صاحب جريدة العدل من تمزيق أوراق التهمة التي وجهت إلى أحد الأدباء . . . »

«كنت إذا وقفت أحدث أحداً من الأدباء السجناء سددت أنفي بالمنديل لنتانة الروائح التي يستنشقونها ولا يميزون ، وقد رأيت الخفراء مرة يخرجون جثة من السجن مضى عليها أربع وعشرون ساعة» .

«وكان أولئك الشهداء يجودون بالقسم الأكبر من طعامهم ولفافاتهم وملابسهم على المجرمين ، ويتلهون بكتابة رسائل وعرائض يرفعها المجرمون إلى حكامهم أو ذويهم ، ولم يكن الشهداء يجرؤون على أن يردوا لهم طلبا نجاة من تعدياتهم . فكانوا تحت رحمتهم ورهن اشارة الخفراء والحكام الظلام ، وإني لعلى ثقة بأن أعظمهم رحمة

من كل هؤلاء هم المجرمون ! ! . »

«وكان الأدباء يفترشون الكراسي في الليالي الباردة مخافة سراية البعوض المنساب مزدحماً على تلك الفرش البالية المتهافتة . »

«وجئت مرة إلى السجن فاعتذر إلي الخفير بأن السلالم وراء الباب ملأى بسجناء وصلوا حديثاً ، فلا سبيل إلى رؤية من أطلب ، وتلطف ـ أو تلطفت بربع مجيدي ـ فأرشدني إلى فوهة قسطل الماء ، وهو قناة توصل مياه عين الفيجة إلى ذلك السجن الأرضي ، فناديت باسم الشهيد ، وأصخت السمع ، فإذا أصوات جياشة ، وضحكات متقطعة وأنات عميقة أشبه بعاصفة ثائرة مخيفة بينها صوت ذلك الشهيد يجيب ندائي ، فهلع قلبي خوفاً وحزناً ، ثم استجمعت قواي وبلغته الرسالة بواسطة ذلك التلفون المائي ـ على قدر ما مكنه خرير الماء من فهم ما أقول . »

«نعم أنقذت بعضهم من السجن ، والبعض الآخر من الاعدام ، ولكني لم أسلم من الظنون . . . ولما نقل الشهداء إلى عالية أخذت رسائلهم تتوالى على بطرق خفية ، وقد عادوا إلى عيشتهم الاشتراكية وانقطعوا فيها إلى التفكير في عسف تلك الآلام التي ترهق أمتهم ، وإلى المطالعة والمناقشات الأدبية ونظم الشعر . وكثيراً ما قطع عليهم الدكتور حسين حيدر تناول الطعام ، وسقطت اللقمة من شفاههم إثر قوله : «أنسيتم المشنقة يا اخوان» فيلتجئون إلى زوايا حجراتهم فاقدين الشهية ، تائهين في فدافد تلك الحقيقة الموجعة» .

وبعد أن وقعت كارثة الاعدام المشؤومة ، في السادس من أيار سنة ١٩١٦ انفجرت حقدا ونقمة على الأتراك الذين ساقهم القدر الغاشم للفتك بأحرار البلاد وتقتيلهم ، من خلال خطابها أرواح الشهداء قائلة :

«ردي علي يا أرواح الشهداء ، هل كانت تلك الأوسمة مطمحك الوحيد ؟ وهل أنت راضية عن تلك الأعواد التي علقت عليها ؟ وهل أفرخت فأزهرت آمالاً جالت في أحلامك ، وعقدت ثماراً سقيت بدمائك ، فأمنت عليها شر العقم والجفاف ووثقت بأنها لن تصير فيما بعد وقوداً ؟ . . أو تصلح لتعليق آخرين من الشهداء ؟» .

ما أمر خطابها أرواح الشهداء الذين قضوا في مطلع أيار ، وما أقساه وآلمه ! لأنها خبرت فعلاً أحوال الشهداء وما عانوه من قهر واذلال قبل الاعدام ، وأسفت كل الأسف على تلك الأرواح البريئة التي أزهقت دون ذنب ، إلا مناداتها بالحرية

والاستقلال وطرد الأتراك الغاصبين :

«أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون ؟

أما تعبت أجنابكم ، وملت من اللصوق بالرمال ؟

قوموا ، فقد نمتم نوماً طويلاً !

ان نفحات الربيع تملأ الفضاء

والأطيار تتسابق على الأفنان

والجداول تناديكم «أن هيا عودوا إلينا»

لقد كفى القلوب وجدا وأنينا .

لانستطيع أن نرحب بالربيع وأنتم بعيدون عنا !

ولا يطيب لنا فوح الأزهار ، وفي الأرواح نفحات دمائكم البريئة» .

وهكذا استمرت تقارع الاستبداد وتندد بالمستبدين وتتخذ من قلمها سلاحاً فعالاً تحارب به بلا هوادة غير عابئة بالنتائج التي تترتب عليها ، وكان ان أوقفت مجلتها أكثر من مرة ، وتعرضت لغرامات باهظة في سبيل إعادة إصدارها ، ومنيت بالاخفاق المادي لكنها لم تخفق معنويا وفكريا ، إذ استطاعت أن تحرك الأذهان الغافلة ، وتوقظ الضمائر النائمة .

ماري والاستعمار الفرنسي :

لقد كان رد الفعل على اعدام شهداء السادس من أيار اعلان الثورة العربية بقيادة الشريف حسين ، فانضم إليها العرب ، كل العرب ثم دخلت الجيوش العربية سورية ، ظافرة منتصرة ، بعد أن هزمت فلول الأتراك ، وقام الحكم الوطني إلا أن الفرحة لم تطل كثيراً ، إذ أعلنت فرنسا حربها على سورية ، المستقلة ، واقتحمت حدودها في معركة ميسلون . . وبعد أن تم الاحتلال الذي لم ينقلنا إلا من تحت الدلف ـ دلف الاستعمار التركي ـ إلى تحت المزراب ـ مزراب الاستعمار الفرنسي ـ على حد تعبيرها ، راح الفرنسيون يراودونها ، ويحاولون اقناعها بالكف عن مهاجمتهم في مجلة العروس وسواها ، مقابل مبالغ ضخمة من المال تدفع لها ، لكنها رفضت أيما رفض ، وزادتها المحاولة عناداً وتصلباً ، وحدة في المهاجمة . . . وعندما أقضت مضاجع الفرنسيين بمقالاتها الثورية اللاهبة ردوا عليها بتعطيل المجلة نهائياً ، تقول :

«بعد أيام قليلة انقضت على استيلاء فرنسا على دمشق ، جاءني شرطي برقعة

يدعوني فيها رئيس الوزراء إلى اجتماع أراد عقده ، فخططت عليها كلمة «تبلغت» وأبيت أن ألبي الدعوة . وبعد انعقاد الاجتماع ، سألت عن القصد منه ، فقيل لي إن مدير ادارة المطبوعات الفرنسية خطب في الحضور ، وهم الكتاب وعلمهم (كيف يكتبون) ووزع عليهم رقعاً بلا ثمن ، ووعدهم بالمساعدة . . »

«ولم يمر ردح طويل على ذلك حتى جعل أحد معارفي يتردد إلي كل مساء ، محاولاً اقناعي بأني إذا هتفت لفرنسا ، وأنشأت الفصول معددة الاصلاحات التي تقصد الانتداب علينا من أجلها فزت بأجر شهري ضخم من الذهب الوهاج ، وشهد منه ذلك بعض زائري ، فحاولوا مساعدته على اقناعي بالقبول ، ثم طفقوا يسخرون معه مني لاصراري على الرفض إلى أن فاجأته يوماً بقولي : ماهي تلك الاصلاحات التي تريد أن أكتب عنها ؟ قال : علي أن آتيك بقائمتها مرة بعد أخرى ، وعليك اقناع القوم بها شفاها وخطابة وكتابة ، قلت لتنجز فرنسا أولاً ما تعدنا به من الاصلاحات فأترنم بذكرها مجاناً ! وكان جوابي هذا آخر عهدي به . . »

«مرت الأيام والأسابيع والشهور والسنون ، وأنا أترقب فرصة القيام بما وعدت من الهتاف لفرنسا مكافأة على الاصلاحات التي تمت على يدها ، فلم أجد غير المحاكم المختلطة التي يئن فيها القوم ، والديون المتراكمة ، والضرائب تتكاثر في غير اصلاح ولا تحسين ، والشركات الفرنسية تطرد هذا وتستبد بذاك ، دون أن يسمع أحد شكواه ، ولو ملأ أنينه عنان الفضاء ، والمال الذي كان في أيدينا مفقود ، وأكثر النفعيين ـ وهو الأنكى ـ هم وحدهم الذين تمتعوا بما أحدثته فرنسا من الاصلاحات» .

لا أعتقد أن مجلة نسائية عربية تحملت من الأعباء ، مثلما تحملته «العروس» وقليلات هن اللواتي خرجن إلى ميدان العمل السياسي ، ومواقف النضال المشرف كماري عجمي ، فحاضرت وخطبت في الجماهير ، وتنقلت بين سورية ولبنان وفلسطين ومصر والعراق ، تارة تنشر آراءها الثورية عن طريق القاء الدروس في المدارس ، وتارة عن طريق الكتابة ، توزع مقالاتها على الصحف والمجلات التي كانت تحثها على المزيد ، وظلت هكذا حتى شهدت جلاء آخر جندي فرنسي عن أرض الوطن في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ ونعمت سورية بالاستقلال والحرية في ظل الحكم الوطني .

نشاطات أخرى :

قلنا ان ماري عجمي درست فن التمريض في الجامعة الأميركية سنة ١٩٠٥ لكنها لم تكمل الدراسة بسبب انحراف صحتها ، فاتجهت في البداية إلى التعليم ، وعينت معلمة أولى في المدرسة الروسية بدمشق عام ١٩٠٦ ، ثم راحت بعد ذلك التاريخ تراسل كبريات الصحف والمجلات كـ«المقتبس» في دمشق و«المهذب» في زحلة و«الاخاء» في حماه ، والحسناء ولسان الحال في بيروت مدة سنتين .

ثم انتقلت إلى الاسكندرية عام ١٩٠٩ حيث عينت ناظرة لمدرسة الأقباط ، فقضت سنة واحدة ثم عادت إلى دمشق لتنشىء مجلة العروس في كانون الأول عام ١٩١٠ .

أسست النادي الأدبي النسائي في حي القصاع بدمشق ، ثم جمعية نور الفيحاء وناديها ، ومدرسة بنات الشهداء عام ١٩٢٠ ، وانتخبت عضواً في لجنة النقد الأدبي في جمعية الرابطة الأدبية عام ١٩٢١ ، وأسهمت في تحرير مجلة الرابطة المذكورة التي لم تعش أكثر من عام واحد ، وكانت المرأة الوحيدة في تلك الرابطة .

عربت عن الانكليزية ، بالاضافة إلى روايتها «المجدلية الحسناء» التي صدرت عام ١٩١٣ كتاب «أمجد الغايات» سنة ١٩٢٧ للكاتب باسيل ماسيوز ، وقد أهدت الرواية إلى فليكس فارس «الكاتب الرقيق الروح والقلم ، والقائد الذي بث بي روح الشجاعة الأدبية ، والأخ الذي رفع ستار الشقاء وأراني سبيل الواجب ، ودعاني إلى الجهر بما في جسد الاجتماع البائس من السوس الناخر ، أهدي روايتي هذه عربون شكر وولاء» .

درست الأدب العربي في مدرسة الفرنسيسكان (دار السلام) مدة أربع سنوات في مطلع الثلاثينات وسافرت إلى بغداد بقصد التدريس أيضاً عام ١٩٤٠ ، لكنها لم تمكث هناك أكثر من سنة ، عادت بعدها لتنصرف إلى النشاطات الأدبية والاجتماعية فانتخبت عضواً في جمعية حلقة الزهراء لسيدات ورجال الأدب عام ١٩٤٤ .

احتفلت بها الأوساط الأدبية فاقيمت لها حفلة يوبيل فضي . في بيروت سنة ١٩٢٦ بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على كفاحها وعملها في ميادين الخطابة والكتابة والصحافة . . . ولقيت مثل ذلك التكريم في حفلتين أقيمتا لها في حيفا ويافا سنة ١٩٢٨ ، كما كرمها النادي الارثوذكسي بدمشق عام ١٩٢٩ ، وفازت

بجائزتين من الاذاعة البريطانية عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ أحداهما عن قصيدتها «الفلاح» الذي تقول فيه :

هو الزارع الفلاحُ لولا جهادُهُ ... لما شمْتَ بالريحانِ حسنَ المخايلِ
نبيٌّ فقد أوحى إلى القفرِ بالشذا ... وعلّقَ أقراطَ الغصونِ الحواملِ . .

توفيت ماري عجمي في ٢٥ كانون الأول ١٩٦٥ عن سبعة وسبعين عاماً ، فأقام لها اتحاد الجمعيات النسائية في سورية حفلة تأبين على مدرج جامعة دمشق في ٢٥ نيسان ١٩٦٦ تكلم فيها كل من : فؤاد الشايب ، رئيف خوري ، جان كميد ، وداد سكاكيني ، الدكتور كاظم الداغستاني ، عفيفة صعب ، أمين نخلة ، والدكتور جدعون محاسب نيابة عن أسرة الفقيدة .

ثم طبعت لها وزارة الثقافة والارشاد القومي مختارات من الشعر والنثر تحت عنوان «دوحة الذكرى» . وما يزال قسم كبير من مخطوطاتها غير منشور .

---

(١) ولدت ماري في دمشق في ١٤ أيار سنة ١٨٨٨ وتعلمت في المدرستين الروسية والايرلندية ، وخطبت في الحفلات المدرسية وهي في الرابعة عشرة ، ونشرت أول مقالة باسمها في جريدة «المحبة» ولم تتجاوز الثالثة عشرة . . . استفادت من مكتبة نعمان قساطلي ، ثم حظيت بمجلة «الجامعة» لفرح أنطون فاستفادت منها ، وتشبعت بآراء صاحبها الثورية وبعد أن ارتوت من اللغة العربية وآدابها ، التفتت إلى الانكليزية ، فعبت منها ما شاءت .

راسلت فيليكس فارس وتأثرت بأفكاره ، قال عنها خليل مردم : «لا أحب من غواية المرأة إلا غوايتها في الأدب ، وأكثر ما يعجبني من أدب المرأة سحر الحياء وهذان المعنيان ماثلان في الأنسة ماري عجمي» .

ماري يني عطا الله

(١٨٩٥ - ١٩٧٥)

قد لا يعرف قصة حب الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي لماري يني ، الا نفر قليل من الناس ، لأن قصة حبه لمي زيادة طغت على هذا الحب الأول ، وهي التي ذاعت بين الخاصة والعامة ، وتناقلها الرواة ، وتناولها الكتاب في الصحف والمجلات والكتب بشيء من التفصيل ، كطاهر الطناحي ، وكامل الشناوي ، وجميل جبر ، ووداد سكاكيني وغيرهم . . . ولو لم يكشف الأستاذ محمد سعيد العريان النقاب عن هذا الحب الأول في كتابه «حياة الرافعي » ، ومقدمتيه لكتابي الرافعي «رسائل الأحزان» و«أوراق الورد» ، لظلت قصة هذا الحب الجارف طي الكتمان ، لا سيما وأن الرافعي لم يبح لأحد به ، حتى العريان نفسه لم يشر إلى اسم هذه المحبوبة صراحة ، بل أومأ إليه بطرف خفي ، لأنه عندما نشر هذه الكتب ، كانت السيدة ماري يني لا تزال على قيد الحياة . أما الآن ، وبعد أن توفيت في آب عام ١٩٧٥ ، فيمكننا أن نكتب عن هذه العلاقة بشيء من الصراحة والوضوح ، ولكن قبل أن نتحدث عن قصة هذا الحب الذي عصف بقلب الرافعي وهو شاب في مقتبل العمر ، لا بد أن نسلط الضوء على حياة ماري يني صاحبة مجلة «منيرفا» ، واشتغالها في ميادين الصحافة والخطابة والتعليم والادارة .

* * *

ولدت ماري يني في بيروت عام ١٨٩٥ ، وتعلمت في المدرسة الانكليزية خمس سنوات ، ثم في مدرسة زهرة الاحسان» ثلاث سنوات ، حيث تلقت مبادىء اللغة الروسية ، بالاضافة إلى اللغتين العربية والفرنسية ، وكان من أساتذتها الشيخ ابراهيم المنذر ، ومن زميلاتها الأديبة سلمى صائغ ، أما اللغة اليونانية فتلقتها على يدي والدها في البيت ، لأنها لغة أجدادها .

وعندما وثقت من نفسها ، أخذت تكتب في الصحف ، وأول مقالة نشرتها كانت بعنوان «نصيحة مفيدة» في مجلة «الحسناء» التي كان يصدرها نصير المرأة جرجي نقولا باز ، باسم مستعار هو «وداد ريحان» ، ثم أخذت تكتب في صحف : النفائس ، والأحوال ، والوطن ، والمراقب ، وحمص ، والمهذب ، ولما أصدر أخوها قسطنطين يني جريدة «دليل حمص» شاركته في تحريرها ، فأثبتت على صفحاتها أفكارها التقدمية في سبيل تحرير المرأة ، واعطائها كامل حقوقها ، ودفعها لارتياد مناهل العلم .

كذلك عملت في التعليم ، فعلمت اللغة الفرنسية في المدرسة الروسية بحمص ، ثم انتقلت إلى بيروت ، فأدارت مدرسة المخلص ، وعلمت فيها اللغة العربية .

أنشأت مجلة «منيرفا» في بيروت بتاريخ ٢٤ أيلول سنة ١٩١٦ ، وكانت أسبوعية تكتبها أختها ألكسندرة بخطها الجميل بسبب ظروف الحرب ، فصدر منها حتى الرابع من آذار سنة ١٩١٧ اثنان وعشرون عدداً ، ثم توقفت لتصدر شهرية من جديد في نيسان ١٩٢٣ ، وتصبح منبراً حراً لأقلام عدد من أدباء ذلك الوقت ، وكانت أحسن مجلة نسائية في الشرق الأدنى ، باعتراف جبران لها في إحدى رسائله[1] . ولم تكتف بالكتابة في مجلتها ، بل راحت تنشر مقالاتها في مجلات : «الفتاة» لهند نوفل ، و«الفجر» لنجلا أبي اللمع و«المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية ، و«الخدر» لعفيفة صعب ، و«الكرمة» لسلوى سلامة أطلس ، ومجلة «سركيس» ، و«المعارف» لوديع نقولا حنا . وفي جرائد : لسان الحال ، والبرق ، والحقيقة ، والنصير ، والهدية ، والشعب ، والأحرار ، والسلام ، والبريد ، والميزان ، والسائح وغيرها من صحف بيروت ، ودمشق ، وحلب ، ومصر ، وسانباولو ، ونيويورك . . . كما نالت جائزة جامعة السيدات في مباراة كتابية في الأزياء سنة ١٩٢٠ وطبعت مقالتها الفائزة في مجموعة خاصة ، وترجمت عن الفرنسية كتاب «رسائل أب إلى ابنته» ونشرت قسماً منه في منيرفا .

واشتهرت بالخطابة شهرتها بالكتابة ، فوقفت على منابر بيروت ، وحمص ، ودمشق ، وصيدا ، وطرابلس ، وزحلة ، وبكفيا ، والشوير ، والحدث ، والشويفات ، وتحدثت في حفلات تكريم مي زيادة ، وأمين الريحاني ، وسلمى صائغ ، وماري عجمي ، ورثت كلا من ولي الدين يكن ، والمنفلوطي وغيرهما .

عملت في جامعة السيدات اللبنانيات أعواماً طويلة ، وصادقت الأديبات ، واستقبلت الأدباء حتى غدا منزلها مجمعاً لأهل الأدب ، أشبه ما يكون بمنزل مدام دي ستال .

تزوجت في ١٥ أيار سنة ١٩٢٦ من السيد ابراهيم عطالله ، وهو من كرام مهاجري حمص في سانتياغو عاصمة تشيلي وسافرت معه ، تاركة المجلة في عهدة أخيها قسطنطين ، وهناك وضعت كتاب «تاريخ تشيلي» بالعربية ، ليطلع المهاجرون العرب على حوادث البلاد التي يقطنونها ، وطبعته على نفقتها الخاصة ، ثم وزعته

مجاناً ، فنالت بهذا العمل ثناء الجالية وتقدير حكومة تشيلي .

لم تلهها مهام الزواج وواجبات الأسرة والأولاد[٢] عن مواصلة الكتابة في مجلة «الوطن» التي كان يصدرها الشاعر اللبناني جان زلاقط ، ومجلة «العصبة» في البرازيل ، وقد سعت إلى تأليف «الندوة الأدبية» في عاصمة تشيلي على غرار العصبة الأندلسية في سانباولو ، وانشاء جناح عربي في مكتبة سانتياغو الوطنية ، فاستطاعت بذلك بعث اللغة العربية في محيط لا أثر فيه لآداب الضاد[٣] .

حب الرافعي لها :

لقد ذُكر الكثير عن حب الرافعي لمي زيادة ، لكن أحداً لم يشر إلى حبه لماري يني ، غير الأستاذ محمد سعيد العريان الذي وضع سيرة الرافعي ، وكتب مقدمتي رسائل الأحزان وأوراق الورد ، وقليلون من يعرفون أنه ألف من أجلها كتابه «حديث القمر» ، إلا أن عمر هذا الحب لم يطل ، إذ تزوجت ماري يني عام ١٩٢٦ ، وهاجرت مع زوجها إلى أميركا ، وبعد سبع سنوات من هذا الفراق أخذ ينشر خواطره وذكرياته التي تغشاه في خلواته ، وتداعبه في أحلامه .

يقول محمد سعيد العريان في مقدمته لكتاب رسائل الأحزان : «كان بعض من أحب الرافعي فتاة أديبة عرفها في لبنان ـ وهي سمية صاحبته في مصر ـ وكان بينهما رسائل أثبت بعضها في كتاب أوراق الورد ، وهي التي أنشأ من أجلها كتابه حديث القمر» .

ويقول في مقدمته لكتاب أوراق الورد[٤] : «ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي حبيبته (فلانة) ـ يقصد مي زيادة ـ وليست كل رسائله في الكتاب إليها ، فهنالك (فلانة أخرى) ـ يقصد ماري يني ـ هنالك صاحبة «حديث القمر» تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة» .

«هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ـ يعني ماري يني ـ وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة ، وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر ، وأفعم قلبه بالألم ! ـ يعني مي زيادة .

لكن من الصعب ، بل يكاد يكون من المستحيل التفريق بين الرسائل التي كتبها

لماري يني ، والرسائل التي كتبها لمي زيادة ، لأنها رسائل بوح باللهفة والحنين والشوق والذكريات الآفلة ، لم تحمل أي عنوان ، ولم يكن ينقلها البريد ، يناجي بها هذه أو تلك في خلوته ، أو يتحدث بها إلى نفسه ، أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، أو يترسل بها إلى طيفها . هي بالاجمال خواطر وجدانية كانت تخرج من عاطفته المشبوبة ، وقلبه الملتهب بنار الحب ، فيسطرها على الورق

لقد مات الرافعي عام ١٩٣٧ دون أن يعلن شيئاً عن حبه الأول الذي ظل سراً مخبأً في صدره ، وذهب معه هذا السر إلى مثواه الأخير .

ومهما يكن من أمر فإن أول حب تفتح عليه قلبُ الرافعي كان حبه لماري يني ، فلما تزوجت وسافرت ، راح يبحث عن حب آخر بديل ، يعوضه عن حبه السابق ، فوقع في حب مي زيادة ، وقد كان حبه في المرتين أحادي الجانب ، بدليل اكثاره من الاستعطاف والشكوى واظهار الغضب ، وثورته على الكبرياء .

يقول الرافعي انه جمع في كتابه أوراق الورد رسائلها ورسائله ، فيتساءل العريان قائلاً : «أما رسائله فنعم ، ولكن على باب المجاز ، وأما رسائلها فما أدري أين موضعها من الكتاب ؟ الا رسالة واحدة (حبذا لو أشار إليها) وجزازات من كتب ، ونتفا من حديثها وحديثه» .

حسب هذا الحب العاصف أنه أوحى له تأليف «حديث القمر» و«رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» و«أوراق الورد» التي تعتبر قمة شاهقة في النثر العربي ، وكنزاً فريداً في معاني الحب والجمال . وكان الرافعي يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما كتب في أدب الانشاء ، ويتعزى بقراءة هذه الكتب عن صاحبته التي رحلت ، وخلفت ذكراها معه ، ذكرى حية ناطقة ، تتمثل في المعاني والكلمات التي دبجتها يراعته في خلواته الصوفية لتعوضه عن شخصها ، وقد صار طيفاً من الأطياف .

* * *

---

(١) مجلة منيرفا ـ العدد الخامس ـ السنة الأولى ـ ١٩٢٣

(٢) أنجبت ماري ثلاثة أولاد هم : منيرفا ، وأدونيس ، وغاندي .

(٣) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية لجورج صيدح ـ صفحة ٥٢٠ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٧ ـ الطبعة الثانية .

(٤) أوراق الورد ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ـ الطبعة الخامسة ١٩٥٢

مريانا مراش

(١٨٤٨-١٩١٩)

إذا ما ذكرنا وردة اليازجي ، ووردة الترك في لبنان ، وعائشة التيمورية في مصر ، ذكرنا مريانا مراش في سورية . فهي شاعرة حلب الأولى بلا منازع ، وأخت العالم والطبيب والشاعر فرنسيس مراش ، والتاجر الأديب عبدالله مراش ، أما أبوها فهو فتح الله مراش صاحب المكتبة المراشية الكبيرة التي سارت بذكرها الأنباء .

ولدت مريانا في حلب عام ١٨٤٩ في بيت عُني بقضايا الأدب والفكر ، فمنذ أن فتحت عينيها على النور ، رأت نفسها محاطة بالكتب ، وعندما ايفعت بدأت تتلمذ على أخيها فرنسيس الذي لقنها العربية ، أما الفرنسية فتلقتها في مدرسة راهبات مار يوسف .

كانت بيروت تعيش في ذهن الصبية الحسناء ، تحلم بها وتتمنى لو تنهي دراستها في معاهدها الأجنبية الكثيرة ، وكيف لا يحلم بتلك المدينة كل أديب ، وهي التي كانت ولا تزال مصدر الإشعاع الفكري ، وملتقى التيارات الأدبية في العالم ، حتى لقبت بباريس الشرق . . . وهكذا غادرت الطالبة الشاعرة مدينة الشهباء ، لتدخل المدرسة الانجيلية التي أنشأها يوحنا وورتبات ، وتغني ثقافتها العربية والانكليزية ، لأن ثقافة البيت لم تعد تنقع غليلها وتشبع نهمها ، وتروي ظمأها إلى العلم .

ويشاء القدر أن لا تمكث طويلاً في بيروت ، فعادت من حيث ذهبت ، أسفة لتستأنف الدراسة على أبيها علامة عصره ، فأتقنت عليه قواعد الصرف وأصول النحو والعروض . . . ولم تقف عند ذلك بل طفقت تتعلم الموسيقا على نفسها حيناً ، وتتلقى بعض الدروس في العزف على القانون والبيانو حيناً آخر ، حتى أجادت ذلك كله . ومضت سنوات وإذا الفتاة تأنس من نفسها القدرة على النظم فتنظم بضع قصائد تبعث بها إلى مجلة «الجنان» التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني ـ أول من دعا إلى تعليم المرأة ـ فتقع من نفسه موقعاً حسناً . . . وهكذا راح اللغوي الكبير يشجعها من بعيد ويرعى موهبتها الشعرية ، وينشر لها مقالاتها النثرية التي تنتقد فيها عادات فتيات عصرها ، وتحضهن على التزين بالعلم والتحلي بالأدب . . . ومثل ذلك فعل خليل سركيس صاحب جريدة «لسان الحال» .

يقول الأديب سامي الكيالي : «كانت مريانا مراش تنتقد التقعر في أساليب الكتّاب ، وتدعو بنات جنسها إلى معالجة الكتابة ، وإلى تحسين الإنشاء ، وتنويع الموضوعات والتفنن فيها ، وقد سافرت إلى أوروبا واطلعت على أخلاق الأوروبيين

وعاداتهم عن كثب ، فاستفـادت منهم كثيراً ، ثم عـادت إلى وطنها لتبث بـين بنات جنسها روح التمدن الحديث والأخلاق الصحيحة» .

ويقول في مكان آخر : «كانت مريانـا لزمنهـا من الشاعـرات المشهورات . . . فهي أول أديبة سورية كتبت في الصحف ، ولا سيما بعد زيارتها لديار الغرب . . . وظهور امرأة تكتب في الصحف ، وتنـظم الشعر في تلك الفـترة المظلمـة حادث لـه دلالته ، وتاريخنا القريب يقول إن الذين يقرؤون ويكتبون من الرجال في تلك الفترة بالذات من الندرة بمكان ، لذلك كان ظهورهـا في خضم تلك الليالي المـظلمة أشبـه بالنجمة المضيئة في كبد السماء» .

إن ما خلّد هذه الشاعرة في تاريخ أدب المرأة الحديث ، ليس ديوان شعرها «بنت فكر» فحسب ، بل صالونها الأدبي الذي يعتبر الوحيد من نوعه في الشرق ، قبـل أن يكون صالون مي زيادة الذائع الشهرة في وادي النيل ، ولعـل رحلتها إلى أوروبـا ، ومشاهدتها الكثير من أمثاله عند السيدات الغربيات كمدام دي ستايل ، ومدام دي نواي شجعتاها على إقامته ، رغم ضيق الحياة الاجتماعيـة في تلك الفترة المـظلمة من العهد العثماني .

كان رواد صالونها نخبة من أدباء حلب يومذاك كقسطاكي الحمصي ، وجـبرائيل الـدلال ، وكامـل الغـزي ، ورزق الله حسـون ، وغـيرهـم ، يحيـون فيـه كـأسرة واحدة ، ويتطارحون الشعر ، كـل واحد يلقي مـا كتبه أو نـظمه في فـترة غيابـه عن الصالون ، أما مريانا الشاعرة فكانت تلف الجميع بأغمار الحب الـدافىء ، والأنوثـة الناعمة ، والمرح البرىء ، وتوزع ببراعة فائقـة ظرفهـا ورقة شـمائلها ، وإشراقـات مبسمها الجميل ، حتى يخرجوا وهم يلهجون بلطفها وحسن معشرهـا ، مسحورين بأنغام قانونها العذبة .

يقـول قسطاكي الحمصي أحـد رواد صالـونها الدائمـين : «كانت مـريانـا مليحة القد ، رقيقة الشمائل ، عـذبة المنـطق ، فكهة الأخـلاق ، طيبة العشرة ، تميـل إلى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبيـة المزاج . . . وكـان منزلهـا مثابـة الفضلاء وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها أعين الحساد كليلة ، لما كان بيننـا وبين شقيقها عبد الله من المودة الجـزيلة الطويلة ، فسقيـا لأيام الشبـاب ، ومجالس الآداب والأحباب ، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الأشعار ، ورقصنا على العود والمزمار» .

عنـدما أسرف الأتـراك في تضييق الخناق ، وبث الـرعب والفـوضى ، وإشـاعـة الـذعـر في صفـوف المـواطنـين وبخـاصـة حَمَلَة الأقـلام منهم ، وغـالـوا في نفيهم أوسجنهم ، أو تقتيلهم ، اضـطر هؤلاء إلى مغـادرة البـلاد مـرغمـين ، تـاركـين في الوطن أحباباً يذوبون شوقاً إليهم ، وحنيناً إلى تنشّق عبـيرهم ، ولا سيما من عمـروا صـالون مـريانـا بنكاتهم الـطريفة . . . لقـد انفرط عقـد هؤلاء الأدبـاء ، وأقفـر الصـالون إلا من مـريانـا . . . فرجـبرائيـل الـدلال ، وهـو في طليعـة المغضـوب عليهم ، إلى باريس ، بلد الحريـة والنور ، ومن هنـاك أخذ يـراسل صـديقه المقيم قسطاكي الحمصي ، ويصف له حياة الفرنسيين الطليقة من كل قيد ، وحريتهم التي يعتبرونها لا أثمن ولا أغلى ، وأنـه بالـرغم من كرهـه الغربـة ، راضٍ بها مـا دامت تصون كرامته ، وتحمي شرفه من الأذى . يقول :

وإذا لم يكن هنا غير أن الحر فيها يعيش دون منازعْ
فهو يكفي حظاً لقلبي وإن سالت على غربتي غروبُ المدامعْ
لم تبق لي الأراذل في الشهباء من مأرب ولا من مطامعْ

وعندما يذكر الشهباء ، لابد أن يذكر مريانا ربة الفضـل والفضائـل كما يقـول ، ومجالس الأدب اللطيفة في ردهتها الأنيقة ، ويتحسر :

لا ولا أشتهي سواكم ولا أرغبُ فيها من بعدِ تلك الوقائعْ
غير قرب الفريدة اللطف ذات الصون والحسنِ والذكا والبدائعْ
ربة الفضل والفضائل (مريانا) التي ذكرُها يسرُّ المسامع
والتي زانها الكمال إذ زان سواها الحليُ وسدلُ البراقعْ

شعرها :

من يتصفح ديوان مريانا الصغير الحجم (بنت فكـر) يجد فيـه قصائـد بعضها في المدح وبعضها الآخر في الغزل والرثاء وشعـر المناسبـات والالهيات والاخـوانيات ، ذلك أن الشاعرة مدحت عددا من رجال السلك الدبلوماسي الذين كانوا يفدون على صالونها ، كـما مدحت نفـرا من رجال الحكم من عـرب وأتراك ، ولكن لا يقعنَّ في الظن أنها كانت تمدح بغية صلة من مـال أوبغية عـطاء ، بل عن إعجـاب وتقديـر ، ولذلك نحس عندما نقرأ هذا الشعـر ، بأنـه يفيض بالـود ، وينضح بـالإخلاص ، ويبعد عن التزلف . . . فمن قولها تمدح السيد إيفانوف قنصل روسيا انذاك :

بـزغت شمـوسُ السعـدِ بـالشهبـاء فـجلتْ لـيـاليـهـا عـن الـظلماءِ
قُشِعَتْ غيـوم الضيمِ عنهـا فـانجلت كـعـروسـةٍ تـزري بـبـدرِ سـماءِ
وغـدت بها السكـانُ تمرحُ بـالهنا وتجـرُّ ذيـلَ مـودةٍ وهـنـاءِ

ومن قولها تهنيء جميل باشا بولاية حلب سنة ١٨٨١ :

أفـديـه لا أفـدي سـواه جمـيـلا أولى المحـب تـعـطفـا وجمـيـلا
بـدرٌ عـنت دولُ الجمـالِ لحسنـهِ فـأبى لـذا تمثـالـهُ التـمـثيـلا
فـإذا تجـلّى فـوقَ عـرش كـمالـهِ تجثـو لـه زُهْـرُ النـجـوم مُثُـولا
وإذا تـوارى في حـجـابِ سنـائـهِ لا تـبـلغُ الجـوزا إلـيـهِ وصـولا

وقالت تهنيء إحدى الجميلات من صديقاتها :

مـن كـل غـانيـةٍ زهـتْ بجـمالهـا ودلالهـا كـالـروضـةِ الـغـنـاءِ
مـاسـت كغصـنٍ فـوقـه بـدرٌ لـه مـرأى الـثريـا في بـديـع بهـاءِ
بحـواجبٍ مقـرونـةٍ قـد أوتـرت قـوسـاً تـرن بهـا سهـامُ فنـائي
إن كـلمتْ صبّـاً بنَبْـلِ لحـاظهـا كـان الشـفـاءُ لـه بـعـذبِ المـاءِ
حـتى تـردَ إلـيـه ذاهـبَ روحـهِ فـيـعـودَ مـعـدوداً مـن الأحـيـاءِ

وقالت أيضاً :

من كـان من أهـل الفضـائـل والنهى وغـدا أسـيرَ شـمائـلٍ وعـيـونِ
يهـوى الجفـاءَ من الحبيب فـإن جفـا يـزدْدُ بـه كـلفـاً وفـرط شجـون
يـشكـو لـه ويـظلُ يـشكـو فِعْلَه إن الـتـعـفُـفَ شـيـمـةُ المـفـتـون

أمـا رثاؤهـا فيكـاد ينحصر في أهلهـا وأقـربـائهـا ، وكلهم عـزيـز عليهـا ، أثـير عندها . . رثت أخاها فرنسيس المتوفى سنـة ١٨٧٣ رثاء ينم عن عـاطفة جياشة لا تقـل عن عاطفـة الخنساء نحـو أخيها صخـر . وما دامت وحـدة المصاب قـد جمعت بينهما ـ كلتاهما فقدت شاباً كريماً شهماً ـ فلا غرو أن تلتقيا في أكثر من نقطة ، وتتقـابلا في أكثر من زاوية ، ويقع الخاطر على الخاطر ، كما يقع الحافر على الحافر . . . لقد لجأت مريانا إلى تعظيم أخيها وإظهار فضله وعلمه وأدبه ، والإشادة بمناقبه وشهـرته الـواسعَة ، وتهـويل فـاجعتها بـه ، حتى إنها أشركت الوُرْق والأزهـار والريـاض ، ومظاهر الطبيعة كلها من جو وماء ، وهي لا تخفي تأثرها بـالخنساء ، بـل تصرح به تصريحا فتقول :

مـالي أرى أعـينَ الأزهــار قـد ذَبُلَتْ ومـال غصنُ صِبـاهـا من ذرا الشجـرِ

مـالي أرى الروض مكمـوداً وفي كـربٍ — والمـاء في أنّـةٍ والجـو في كـدرِ
مـالي أرى الـوُرْق تنعي وهي نـادبةً — فـراق خـلٍ وتشكـو لـوعـةَ الغـيرِ
نعم لقـد سـابق الأحيـاء أجمعـهـا — ونـام ذا اليـوم مـطروحـاً عـلى العفـرِ
مـن فقّـه الـنـاس في علـمٍ وفي أدبٍ — ونـوّر الكـل في شمس مـن الفـكـرِ
أبـدى من الفضـل ضـوءاً لا خبـوّلـه — والشمسُ شمسٌ وإن غـابت عن النظر
وإنـه بـحـرُ عـلـمٍ لا قـرارَ لـه — وقـد حـوى كـل منظومٍ من الـدرر
هـذا الـذي جـابت الأقـطارَ شهـرتُه — قـد صـار مـطّرحـاً في أضيق الحفـر
خنسـاء صخرٍ بكتـه حينما نـظرت — إلـيـه مـلقـىً بـلا سـمـعٍ ولا بصرِ
أقـلامُ أهـلِ النهى تـرثيـهِ وا أسفي — هـل عـاد من عـودةٍ يـا مفـرد البشرِ
قد غاب شخصُك هذا اليومَ عن نظري — جـادت عيـوني بـدمع سـال كـالمـطر
فـيـا لـدهـرٍ خـؤونٍ لا ذمـامَ لـه — قـد راش سهما أصـابَ الفضل بـالقدرِ
فحزن يعقـوبَ لا يكفي لندبـك يـا — نـدبـاً تـفـرّد بـالأجيـال والـعُصُرُ
ويـلاهُ من حـزن قلبٍ نـالَ غـايتـهُ — قد واصل القلب في غمٍ مـدى الدهـرِ
في لجـةِ الحـزنِ نفسي ضـاقَ مسكنها — من ذا يسـلّي فؤادي قـلّ مصـطبري

لقد كانت عواطفها كعواطف كل امـرأة ، وهل تحتـاج عواطف المـرأة إلى دفع أو إثارة أو تحريك لتنفجر ؟ أفلا يكفي أن أقول إنها عاطفة أخت وكفى ؟ .

ولمريانا هذان البيتان في رثاء صبية من نسيباتها توفيت محترقة بالبترول :

عفـافـةُ نفس مـع بـديـع محـاسنٍ — ورقـةِ أعـطافٍ فـلله كـم تُـسـبـي
لقـد جمعـتْ ضـدين في حـد ذاتهـا — ففي اللحظ إيجـابٌ يشـير إلى السلبِ

أما غزلها فهو الوجه الآخر المقابل لرثائها ، لأن كلا الفنين يقـومان عـلى العاطفـة الرقيقة والوجدان المضطرم . . . إنه صدى لحبها العميق ، وانفعالاتها الداخلية ، فلنسمعها تقول :

بـذكـر المعـاني هـامَ قلبي صبـابـةً — فيا نور عيني هـل أكونُ عـلى القربِ ؟
عسى الشمسُ في مـرآكَ للعينِ تنجـلي — فتنقـلَ لـلأبصـار مـا حـلَّ بـالقلبِ

ولنسمعها تشطر إحـدى قصائـد الغزل الشهـيرة ـ والتشطير كـان «موضـة» ذلك العصر ومـا قبله ـ فتصف أفاعيـل الغرام بـالمغرمـين ، وثبات بعضهم عـلى الحب لا يروم لسنّته تبديلا :

«للعـاشقـين بـأحكـام الغـرام رضـاً» — يمسـون صرعى بـه لم يـأنفـوا المَرَضـا

لا يسمعــون لعـذلِ العــاذلــين لهم — «فـلا تكنْ يـا فتى للجهـلِ معـترضـا»
«روحي الفـداء لأحبـابي وإن نقضـوا» — ذاك الـذمام وقـد ظنوا الهـوى عـرضـا
جـاروا وما عـدلـوا في الحب إذ تـركـوا — «عهـدَ الوفي الـذي للعهـدِ مـا نقضـا»
«قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا» — وكـــان يـزعم أن المـوتَ قـد فُـرِضـا
أصــابــه ســهــمُ لحظٍ لم يــبــال بــه — «فـمات في حبهم لم يبلغ الغـرضــا»
«رأى فحبَ فـرامَ الوصـلَ فـامتنعوا» — فـما ابتغى بــدلاً منهـم ولا عــوَضَــا
تقـــطّعَ القلبُ منـــه بـــانــتــظارِ عسى — «فســام صبـــراً فـــأعيـــا نيله فقضى»

لم يكن في وسع مريانا أن تكون غير ما كانت ، لأن طبيعة الفترة التي عـاشت فيها فرضت عليها نوعاً من النمطية ، وجعلتها تنحو منحى من تقـدموهـا من الشعراء ، وتسير على خطاهم التي رسموها ، دون أن تحيد عنها قيد شعرة . . . تكرر ذاتهـا ، ليس لأن الجرأة كانت تعوزها فحسب ، بل لأن الجمود السيـاسي فرض عليهـا شيئاً من الجمود الفكري . . . .

لقد أقبل الشعراء في زمنها على شعر التصـوف والتعبد ، نتيجـة اشتداد الحـروب وتفاقم المحن ، لعل الله يكشف عنهم ظـلام الكروب . . . فـزع الناس إلى ربهم يعتصمون بحبله ، يمدحـونه حينـاً ، ويتوسلون إلى رسله حينـاً آخر بقصـائد أُطلق عليها اسم «البديعيات» لعله يفرج عنهم الأزمـات ويحل وثـاق الشعب المغلوب على أمـره ، ولا غرو فـالله كان ولا يـزال ملجأ كـل ملهوف ، ومـلاذ كـل مستضعف ، وكهف كل حائـر . . . ولو رجعنـا إلى دواوين شعراء عصـور الانحطاط لـرأيناهـا حافلة بالقصائد الدعائية والابتهالية . . . حتى لتوشك أن تكون تسابيح وصلوات ترتل في الكنائس والمساجـد ، علماً بأن من كـانوا ينـظمونها ليسـوا من رجال الـدين فقط . قالت مريانا في ذكر خالق السماوات وبارىء الكائنات :

الـلهُ أكـــبرُ أنــتَ الحــيُ والصَّــمَــدُ — مقصــودُ كـل الــبرايـا واحـــدٌ أحـــدُ
لا ينعمُ المــرءُ في الـدنيـــا بـــلا أمـــلٍ — فـالـوعـدُ منكَ وأنتَ العــونُ والمددُ
إن قـــلَ رزقٌ فـأنت الفضــــل أوسعــهُ — أو حـلَّ بؤسٌ فـأنت الــرفْقُ والعضـدُ
وكـلُ من رامَ شيئـاً من ســواكَ غـوى — ولا يَــقَــرُّ لـــه حـــالٌ ولا ســنــدُ
إذا مَـــدَدْتَ يـــداً في يـــوم مـعــركـــةٍ — فتخمــد النـــار والأبـــطالُ تـــرتـعــدُ
يـا مبدعَ الكـون يـا مهـدي الأنـام إلى — سراطِ حقــكَ إن ضلّوا فــيرتـشــدوا
يـــا مـن يجيبُ نــداءَ المستغيثِ بــه — يـــا من عليـه جميــعُ النــاسِ تعتمــدُ

وقبل أن أنتهي من هذه الدراسة ، لا بد أن أشير إلى ضرب أخير من شعرها ، كان بمثابة حجر الغلق في مدماك البناء الشعري ، أو هو الحلقة الذهبية التي لا تتم دورة النظم إلا بها ، تلكم هي الحكمة ، مسرح آراء الشعراء في الحياة ، ومنطلق نظراتهم الفلسفية . . . إنها القالب الذي يصب الشعراء فيه خلاصة تجاربهم ، أو الإناء الذي يستوعب اختباراتهم . تقول الشاعرة :

شرفُ الفتى عقلٌ له يسمو على ... كل الورى فينال غايات المنى
وكذاك حسنُ الخلق فخرٌ مسود ... متسربلٌ بالعطفِ نعمَ المقتنى
ما كل من طلبَ الكرامةَ نالها ... من رام صيد الظبي حلَّ به العنا
ذو المالِ يذهب ذكرهُ مع مالهِ ... لكن ذكر الفاضلينَ بلا فنا

بقي أن أشير إلى هذه الأبيات الأربعة من اخوانياتها التي تطالب بها أحد الفضلاء بإنجاز وعد وقد ضمنتها المثل المعروف «وعد الحر دين» :

يا ذا الوفا والدينِ أنتَ وليُّه ... وعلاءُ فضلك دونهُ الجوزاءُ
هل تذكرُ القول الذي سمحتْ به الـ ... نفسُ النفيسةُ واليدُ البيضاءُ
فالوعدُ عندَ الحرِ دينٌ ثابتٌ ... وبوعدِ مثلك يحسنُ الايفاءُ
أنجزْ به واقبلْ ثناي ودمْ على ... طولِ المدى تخضعْ لك البلغاءُ

لم يصف الدهر لمريانا مراش كل الصفاء ، فبعد أن فقدت أخاها فرنسيس ـ الذي كف بصره ـ وأباها وأمها شعرت بأنها وحيدة ، ولذلك آثرت الزواج واختارت حبيب الغضبان الحلبي ، إلا أنها لم ترزق أولاداً .

اصطلحت عليها الأدواء في شيخوختها حتى جردتها من كل أثر من آثار الصبا والجمال ، وصبغت وجهها الجميل بصفرة الفناء ، لكنها ظلت تروّح عن شيخوختها اليائسة بلمسات ناعمة واهية من أصابع بيانها الساحر ، فتبعث في نفسها الأمل بالبقاء قليلا ، إلى أن أطفأ الموت عينيها في حلب عام ١٩١٩ تاركة صدى أدبياً يتردد على مر الزمان .

* * *

مقبولة الشلق

(١٩٢١ - ١٩٨٦)

ولـدت الأديبة السيـدة مقبولـة الشلق عام ١٩٢١ في حي المهـاجرين بـدمشق ، وتلقت دراستهـا الابتدائيـة في مدرسـة المهاجـرين ، والاعداديـة في مدرسـة تجهيـز البنات ، أما المـرحلة الثانـوية فكـانت في معهد «الـلاييك» المختلط ، وحـين نالت شهادة الفلسفة (القسم الثاني) لم ترغب في الانتسـاب لدار المعلمـين العليا ، شـأن جميع زميلاتهـا ، بل آثـرت الانتساب إلى معهـد الحقوق عـام ١٩٤١ حيث تحملت الكثـير من المضايقـات ، لأنها كانت الـطالبة الـوحيدة فيه ، وكان بعض الـطلاب يستغـربون دخـولها هـذا المعهد ، وينـظرون إليها من خلف النـوافـذ وقـد ألصقـوا وجوههم بالزجاج ، وأحاطوها بأكفهم ، كي يستطيعوا مشـاهدتهـا ، لشدة تـوهج الشمس خـارج القاعـة ، وكانت ـ كـما تقول في ذكـريـاتهـا عن الجـامعـة ـ لا تجـد الشجـاعة في نفسهـا لتستفسر عن شيء ، أو تلقي التحية عـلى زملائهـا ، وكثيراً مـا كانت تسمع عبارات السخط ، لأن المجتمع كـان آنذاك مـتزمتاً إلى أبعـد الحدود ، فالمرأة محجبة بملاءة ونقاب أسود ، أما هي فسافرة عن وجهها ، متحـررة بفكرهـا ، وكان بعض أساتذتها في الجامعة يتضايقون منهـا كثيراً ، ولا يـريدون أن تقـع أعينهم عـلى بنت بين الـرجال ، ويتجـاوزون قراءة اسمهـا عند أخـذ التفقد ، ويتعمـدون ترسيبها في الامتحانات الشفـوية لئـلا يفتحوا أبـواب كلية الحقـوق أمام الفتيـات ، فالمطبخ هو المكان المناسب لهن ! .

لقد وضع أحد أساتذتها شرطين لنجاحها الأول : عدم ممـارستها مهنـة المحامـاة والمـرافعة أمـام القضاء بعـد تخرجهـا ، والثاني : دخـولها الامتحـان والنقـاب عـلى وجههـا ، لكنها أبت ذلـك النفـاق وقـالت : «كيف أضـع عـلى وجهي نقـابـا لمـدة قصـيرة ، وأنا التي كنت أنـاضل طـوال سني دراستي الثانـوية بقلمي عـلى صفحات الجرائد والمجلات ، مطالبة بسفور المرأة ، ونيل حريتها الطبيعية ، ودخـولها ميـدان العمل ؟» .

ولكي تتـلافى الرسـوب مرة أخـرى ، عمدت إلى ارتـداء ثوب أسـود طـويـل ، ووضـع شال أبيض عـلى رأسها ، حتى استـطاعت أن تفـوز بشهـادة الحقـوق عـام ١٩٤٤ ، وكأنها تحمل وسام النصر ! .

عملت بعد تخرجها في تدريس مادتي التاريـخ والتربيـة الوطنيـة في تجهيز البنـات بدمشق ، ثم سافرت مع زوجهـا إلى فرنسـا ، وتخصصت في دور الحضانـة ورعايـة الـطفولـة والأمومـة ، لكنها لم تستـطع تحقيق حلمها بـانشـاء دور حضـانـة لأطفـال

الموظفات والعاملات لظروف اجتماعية في ذلك الزمن ، فاكتفت بتأسيس «جمعية حماية الطفل» في قرى غوطة دمشق ، وفي بلدتي دمر وداريا .

* * *

كتبت مقبولة الشلق القصة القصيرة والشعر في الصحف والمجلات السورية كالصباح ، والمعلم العربي ، والمرأة العربية ، والموقف الأدبي وغيرها ، وأحيت الأمسيات الأدبية والشعرية في العديد من المنتديات ، وكانت تنشر مقالاتها أحياناً باسم «فتاة قاسيون» ، كما أصدرت أربعة كتب هي : «قصص من بلدي» ١٩٧٨ ، و«عرس العصافير» (قصص للأطفال) ١٩٧٩ ، و«مغامرات دجاجة» (قصة مصورة للأطفال) ١٩٨١ ، وديوان «أغنيات قلب» ١٩٨٢ . وكانت عضواً في اتحاد الكتاب العرب .

تمحور معظم كتابات مقبولة الشلق حول حبها الصادق والعميق لمدينة دمشق التي «خلقها الله في حضن قاسيون ، وجرى بردى في أرجائها» ليهبها الغلال الوافرة ، والخضرة اليانعة ، والثمار اللذيذة . . .

كتبت عن أصالة تاريخها ، وعن نشوء الحضارات فيها ، واستقرأت الآثار التي تركها الأجداد ، وصورت بقلمها لوحات لتلك الكنوز العظيمة الخالدة . . . ففي قصتها «قصة بستان» تتحدث عن بستان في حي الديوانية بدمشق ، كيف قلعت أشجاره في أواسط الخمسينات ، ودرست أرضه ، وارتفعت مكانه بناية مروحية الشكل من الاسمنت .

وفي قصتها «الأب الحنون» ـ وتعني به جبل قاسيون ـ تتحدث عن ماضي هذا الجبل وحاضره ، وحبه لابنته دمشق وأبنائها وذراريها ، وفي قصة «لي عرس كل عام» تتحدث عن حديقة الجاحظ عندما أقيم فيها لأول مرة معرض للزهور ، وتعقد حواراً بين الجاحظ الذي يجلس على رابية في حديقته ، وبين الوردة الجورية التي كانت شعار ذلك المعرض ، وكانت غايتها من هذه القصة أن تقدم نموذجاً من حدائق دمشق المستحدثة .

وفي قصة «عطاء مدى الدهر» تتحدث عن نهر بردى ونبع الفيجة وجريهما معاً في فروع سبعة تدخل مدينة دمشق ، وتذكر كل فرع باسمه ، والمكان الذي يجري فيه بالمدينة .

* * *

لقد صورت مقبولة الشلق في قصصها البيئة المحلية التي عاشت فيها بشكل دقيق وأمين ، منذ أن كانت طفلة ، فطالبة على مقاعد الدراسة ، وإلى أن أصبحت موظفة تحتك بنماذج ونوعيات مختلفة من الناس ، فتصور نفوسهم الخبيثة أو المعقدة تصويراً حياً نابضاً ، ببساطة متناهية ، وأسلوب سهل رشيق ، وعبارة لا تكلف فيها ولا حذلقة ولا تصنّع .

تتحدث الكاتبة في قصتها «كفاح» عن المتاعب والهموم التي يلاقيها الموظف المثقف النشيط المخلص ، إذا أرغم على العمل مع موظف آخر جاهل ، وهو أعلى مرتبة منه . . فـ«كفاح» ـ بطلة القصة ـ فتاة هي كبرى أخواتها ، عملت مع أمها في الخياطة ، لتعيل أسرتها المستورة الحال ، لأن أباها قتلته صخرة كبيرة وهو نائم في غرفته التي بناها فوق المطبخ ، في بطن قاسيون .

درست كفاح حتى تخرجت من الجامعة ، ثم نجحت في مسابقة الموظفين ، وعينت في أحد الدواوين ، فرحب بها رئيس الديوان في اليوم الأول أجمل ترحيب ، لكنه أخذ يغار من الشهادة الجامعية التي تحملها ، ويقول لها : «لا فائدة من الشهادة في هذا المكان . . . عُينتُ في هذه الوزارة قبل ثلاثين عاماً ، لكنني أعلم من أمور هذا الديوان ما لا يستطيع أن يعلمه حامل الدكتوراه .

إنه نموذج لفئة كبيرة من الموظفين الذين يتعلقون بالروتين ، ويعارضون كل عقلية متطورة متفتحة على الحياة والأنظمة الجديدة التي يمكن أن تسير المعاملات وتنجزها بسرعة ، لذلك اصطدمت به ، وراحت تصفه لنا وصفاً دقيقاً من الخارج والداخل فهو «أشيب ، نحيل قصير القامة ، عيناه غائرتان ، ووجهه شاحب كالمومياء ، ينحني أمام رئيسه كما ينحني قائد فرقة موسيقية تحية للمصفقين ، علّمته أمه منذ تقلبه في أحشائها ، كيف يكون موظفاً ، يستقبل كل مدير جديد بالمدح والاطراء . . .» . هذه الدقة في الوصف والتحليل من أولى ميزات القاص

الناجح ، والعمل القصصي الجيد ، لأن الكلمات المختارة بعناية تستطيع أن تقوم أحياناً مقام الأصباغ والألوان والريش ، أو تحل محلها .

ويستمر الصراع بين كفاح ـ الموظفة الجامعية الجديدة ـ ورئيس الديوان ذي العقلية الجامدة المتحجرة المتخلفة ، فيمنعها من أن تسيّر أية معاملة ، حتى أصبحت تخجل من نفسها ، فهي تتقاضى راتباً دون أن تعمل شيئاً ، وتجلس خلف مكتب أنيق ، عليه جميع ما يحتاجه الموظف من «محبرة بلونين وأقلام تنام هادئة على درجات سلم معدني أسود ، ووراقة فيها الكثير من الأوراق البيض ، المطبوع عليها اسم الدائرة ، ونشافة . . . » ، وكل هذه الأدوات تهزأ بها لأنها لا تستعملها .

وكثيراً ما كانت كفاح تلجأ إلى مناجاة نفسها ، وهي تحلم خلف مكتبها فتقول : «ماهذه الاقامة الجبرية ؟ ألأنني نلت شهادة جامعية ؟ لشد ما ألعنها كما يلعنها في هذه الأيام التاجر الذي علم ابنه فحملها وصار موظفاً . . . ليتني وظفت وأنا أحمل الشهادة الثانوية . . . » .

كم من موظف لا عمل له في دوائر الدولة ، ويقيم مثل هذه الاقامة ، والفرق بينه وبين كفاح أنها تريد أن تعمل باخلاص واندفاع ، وهو لا يعمل ، ولا يريد أن يعمل ، بل يتقاضى مرتبه آخر كل شهر ، وهو لا يشعر بتأنيب الضمير ، كما شعرت كفاح . وعندما يأتي موظف آخر إلى الديوان يكون مصيره نفس مصيرها ، فيضطر للخروج إلى غرفة المستخدمين الصغيرة الضيقة ، والجلوس معهم ليقتل الوقت الذي كان يمضي عليه ثقيلاً بطيئاً مملاً ، ويشاركهم في الحديث وشرب الشاي ! وكان رئيس الديوان يتباهى أمام زملائه الموظفين القدامى بأن لديه موظفين يحملان شهادة جامعية ولا يحبان العمل ، وليس لديهما أي استعداد لتفهم الروتين ! . . . وهكذا تسخر الكاتبة من أمثال هؤلاء الموظفين ذوي العقليات الرجعية الذين تغص بهم دوائرنا ، ويتمسكون بالروتين تمسكاً أعمى ! .

ثم يشتد الصراع ويحتدم التمزق أكثر فأكثر عندما يمعن رئيس الديوان في إذلال كفاح ، إذ يكلفها بإزالة الغبار عن الأضابير التي طال عليها العهد ، لكنها تجيبه بجرأة قائلة : «أقوم بهذا العمل إذا قمت به أنت أيضاً . . . » . وتبقى كفاح على هذه الحال من القلق والتوتر النفسي حتى تصاب بالمرض ، وترتمي في الفراش ، فينصحها الطبيب بالراحة في البيت لمدة أسبوع . ولما لم تجد مهرباً من شبح رئيس

الديوان ، الذي أخذ يلاحقها ليل نهار ، تورطت لدى أحد المسؤولين ، فنقلها إلى دائرة أخرى وانتهى الأمر . . .

هـذا هو الجـانب الأول من حياة الكـاتبة في الوظيفة ، جاء على [illegible] بالتها كفاح ، مع شيء من التحوير . . . لكن أين هو اللون المحلي في [illegible] الحياة الشامية التي قلت انها رسمتها في قصصها بشكل أمين [illegible] ؟ [illegible] الدكتور كـاظم الداغستـاني في «عاشهـا كلها» و«البيت الشامي [illegible]» [illegible] السيـدة ألفـة الادلبي في قصص شـاميـة» و«وداعاً يـا دمشق» و[illegible]» والسيدة سهام ترجمان في «يا مال الشام» والأديبة السيـدة سلمى [illegible] في كتابيها «زوايا» و«حرمان» ومعظم ما كتبت من قصص . . .

يبدو الطابع المحلي في أغلب قصص السيـدة مقبولـة الشلق مثل «[illegible]» و«دار الـزمن دورته» و«لمـاذا جف النهر» و«لي بيت» . . وإذا كانت هذه [illegible] تحليلها كلها ، فحسبي الـوقوف عنـد أهمها وأكـثرها تصـويراً لهـذه البيئة الدمشقية العريقة ، كقصة «الأب الحنون» ، وتعني به جبل قـاسيون ، الـذي تعقد بينه وبين ابنته دمشق حواراً ممتعاً لا أجمل ولا أوقع في النفس .

يقول قاسيـون : «ربما تسـألونني من أكـون ؟ أنا قـاسيون الجبـل ، وابنتي دمشق الفيحاء ، تحبني وأحبها ، وحبنا قديم قدم الدهـر . . .» . وهكذا تحـول الجبل في قصتها إلى إنسان حي ، يحس ، ينمو ، يتحرك ، يتألم ، يفرح ، يتفـاعل مع الحياة والأحداث ، حتى ليذكـرني بالجبـل الأرعن الطماح الـذؤابة البـاذخ ، الذي وصفـه الشاعر الأندلسي ابن خفاجة .

وإذا كانت الكاتبة لم تدرك حياة أهل دمشق في الماضي ، ولم تمارس جميـع عاداتهم التي أوشكت أن تمحوها عوامل الحضـارة والمدنيـة الحديثـة ، فإنها أدركت أواخـرها على الأقل ، وعـاشت جزءاً منهـا مع أسرتهـا التي كانت تتحـلى بالـطباع والصفات المعروفة عن أهل دمشق ، وتمارس العادات والتقاليد الشاميـة الأصيلة . فلنسمعها تصف لنا «السيران» الشامي على لسان قاسيون قائلة : «كـان أبناؤهـا ـ أي دمشق ـ يصعدون زرافات على صدري ، ويجلسون حلقات فـوق عشبي الأخضر ، يقضون النهار تحت أشعة شمس الربيع ، وعصافير الدوري تزقزق وتحلق فوقهم ، وقطعان الماعز وجديانها تثغو وتسرح حولهم ، ويقطف الأطفال البابونج والأقحوان وشقائق النعمان ، وتجمع النساء أوراق الخبيزة الغضة ، ويجلس الرجـال وحدهم ، أمام [illegible]

النراجيل تتعالى قرقرتها في الفضاء ، وينصرف بعضهم إلى السماور لتهيئة الشاي . . . » .

«وفي ليالي الصيف ، عندما يرسل القمر أشعته إلى أعماق القلوب ، يجلس جماعات الرجال فوق أضلاعي اليمنى ، وتشرف عليهم قبة «السيّار» ، يرسلون الأغاني والآهات والمواويل ، ومن بعيد تجلس الصبايا يستمعن إليهم . . . » .

والحديث عن قاسيون لا بد أن يقودها بالتالي إلى الحديث عن صفحة ناصعة مشرقة من صفحات البطولة ، أيام الاستعمار الفرنسي لسورية ، حين كان الثوار يلجؤون إلى مغاور الجبل وكهوفه ليتحصنوا فيها وعن الطنابر التي تنقل الحجارة منه لبيعها ورد غائلة العوز . . . وعن بردى وحفلات الأنس التي كانت تقام على ضفتيه ، وسباقات الخيل ، ونداءات الباعة على الصبارة «طيبة ناهية هالصبارة» والحبلاس «بيشرب من يزيد هالحبلاس» و«حب الماس هالحبلاس» وعن البيوت الطينية وسطوح التراب والقرميد ، ونقل الماء بـ«الراوي» الذي كان يحمل إلى البيوت على ظهور البغال ، وحافلة الترام بقسميها للرجال والحريم ، وعن زمارة الكمساري .

وتصب نقمتها على تلك الأقبية التي يتناسل فيها الناس ، ولا يتوافر فيها أي شرط من الشروط الصحية . . . إلى أن تتساءل دمشق نفسها : «أين بيوتي وحدائقها ؟ وأين حواكيري وثمارها ؟ وأين نهري وماؤه ؟ انظروا إلى الأبنية كيف بنيت ، وإلى طبقاتها كيف رفعت . . . » . وتسترسل في الوصف حتى تنسى أنها تكتب قصة قصيرة ، يجب أن تتوافر فيها شروط فنية معينة ، وتتحول قصتها إلى قطعة نثرية جميلة ، تسحر بنكهتها الحارة ، وتبهر بألوانها البلدية الصارخة ، ولذلك نستطيع أن نقول إن قصصها توشك أن تكون في بعض مقاطعها لوحات فنية رائعة ، وصوراً فولكلورية جذابة ، يفرح بها أولئك الذين تستهويهم دمشق الماضي والتاريخ ، بعاداتها وتقاليدها التي يريدونها أن تبقى خالدة على مر الزمن ، تعاند تيار الحضارة الزاحف عليها بقوة .

ثم تحدثنا الكاتبة في قصة «ودار الزمن دورته» عن أبي محمود صاحب العربة الخشبية التي يظللها قماش أبيض ، ويجرها حمار تتدلى من عنقه أجراس صغيرة ، وعقود من الخرز المختلف الألوان ، وكانت تزدحم دائماً بالأولاد الجالسين على

مقعديها الجانبيين ، وبالواقفين الذين يفوق عددهم عدد القاعدين ، يدفع كل واحد منهم خمسة قروش ليركب العربة ، وكيف كانت تقطع المسافة من جانب قبر الشيخ محيي الدين بن عربي إلى آخر السوق في حي الشركسية ، وأبو محمود يصيح بأعلى صوته «يا ولاد محارب» فيرد الجميع مصفقين «يويو» .

وتسرد ـ من خلال قصصها ـ طائفة من ذكريات طفولتهاالتي شهدت الأعمال الوطنية البطولية ،.فشاركت في المظاهرات ، وساهمت في الاضرابات ، احتجاجاً على وجود الاستعمار الفرنسي ، فتختلط عندها الذكريات بالقصة ، ويطغى الوصف على سياق الأحداث ، فلا يعرف القارىء أي لون من ألوان الأدب يقرأ . . . الاطار اطار قصة بطلها أبو محمود الذي حطم المستعمر الفرنسي عربته وأدخله السجن ، لأنه اشترك في المظاهرات الشعبية ضده ، أما المضمون فيجنح في أكثر من موضع إلى الاستطراد وسرد الذكريات الشخصية ، ورسم اللوحات الفولكلورية .

ويقودها الحديث عن الاستعمار الفرنسي ، إلى الحديث عن الجنود المغاربة الذين أجبرتهم فرنسا على قتال إخوانهم العرب السوريين ، ثم «دار الزمن دورته» فإذا بأولاد أو أحفاد هؤلاء الجنود يأتون إلى سورية مرة أخرى عام ١٩٧٣ ليحاربوا إلى جانبنا في معارك تشرين تحت اسم «التجريدة المغربية» أليس هذا من المفارقات الغريبة ؟ كيف كانوا بالأمس يقاتلوننا ـ مكرهين ـ وهم اليوم يقفون إلى جانبنا وقفة الأخ من أخيه . . . وتنتهي حرب تشرين التي تسفر عن عشرات الشهداء ، فترى الكاتبة في أحد المواكب رجلاً يتوسط الصف الأول ، يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً أسود ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ، يمشي هادئاً صامتاً شامخاً . . . إنه أبو محمود عينه ، صاحب عربة الأولاد التي حطمها الفرنسيون ، يشيّع ابنه الضابط في الجيش العربي السوري . . . وكان قد شيع قبله ابنه المجند الذي استشهد في معارك جبل الشيخ .

مهما قيل في قصص السيدة مقبولة الشلق ، ومخالفاتها الفنية ، وخروجها عن قواعد القصة الفنية المعروفة ، فانها تظل تشد القارىء إليها بلطف ومودة وحب ، وتشعره قراءتها بلذة سحرية آسرة ، لأنها تنقله إلى أجواء من نشوة الماضي القريب ، على أجنحة من الوصف البارع بالكلمات العذبة المختارة بذوق ومهارة ، وتثير في نفسه مشاعر عميقة يختلط فيها الألم بالسعادة واللذة ، كما في قصة «الغادرة» التي

تحدثت فيها عن مدفأة المازوت التي أحبتها ، وبينت أسباب كرهها لمدفأة الحطب من خلال ذكريات حميمة في الطفولة والشباب ، ثم كيف غدرت بها هذه الصديقة ـ مدفأة المازوت ـ في ليلة عاصفة من أحلك الليالي وأشدها هولاً ، إذ نفضت دخانها وهبابها الأسود في البيت ، إثر عاصفة هوجاء مجنونة ، فاستحال كل ما فيه إلى لون أسود داكن ، حتى وجهها ووجه طفلتها التي كانت تشويها الحمى في تلك الليلة .

أبطال مقبولة كلهم يتحركون ، الجمادات كالأحياء : من مدفأة البيت ، إلى جبل قاسيون ، إلى نهر بردى . . . وكلهم يتكلمون ، ويحبون ، ويتألمون ، ويسعدون ، ويكرهون . . . مما يدل على سمو خيالها الخلاق ، وقدرتها الفائقة على الوصف والتصوير ، وخلع الصفات الانسانية على كل شيء . . .

ملك حفني ناصف

(باحثة البادية)
(١٨٨٦ - ١٩١٨)

ولـدت باحثـة الباديـة (ملك حفني ناصف) في القـاهرة عـام ١٨٨٦ ، وتلقت دراستها في المدارس الفرنسية ، ثم دخلت المدرسة السنية في عهد كـان فيه الآبـاء لا يخاطرون بادخال بناتهم إلى تلك المدرسة ، فكانت أول فتاة دخلت المدرسـة ، وأول فتاة نالت شهادة في مصر عام ١٩٠٠ وعمرها لا يتجاوز ثلاثـة عشر عامـاً . وبعد أن درست ثـلاثـة أعـوام ، ونـالت دبلوم التعليم ، أخـذت تمـارس تعليم البنـات والأطفال ، وتحث السيدات المصريات على السماح بادخـال بناتهن المـدارس ، بعد أن كانت مقتصرة على بنات الفقراء ، وتنشر في جريدة «المؤيد» وجريـدة «الجريـدة» مقالات في مساواة المرأة بالرجل ، وتربية البنـات ، والزواج ، وتعـدد الزوجـات ، وسن الزواج ، وزواج الأختين ، وجمـال المرأة ، والسفـور والحجاب ، والاقتصـاد المنزلي . . . فكانت بذلك أول من تعلمت وعلّمت وكتبت .

[illegible] وجت عام ١٩٠٧ من الشيخ عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الـرماح بـالفيوم ، [illegible]ـت تكتب من هناك باسم «باحثة البادية» ، وقد جمعت بعض مقالاتها في قضـايا [illegible] بكتاب أسمته (النسائيات) صدر عام ١٩١٠ وقدم له أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد الذي قال فيها : «إنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنـا الحاضر ، بـل هي تعطينا في كتاباتها صورة الكاتبات الغـربيات الـلاتي تفوقن عـلى كثير من الكتـاب ، وليس نبـوغها عمـلاً من أعمال الصـدفة ، بـل هو قضيـة علمية مقـررة ، لأن هـذه الكـاتبة من بيت علم وأدب ، انتقـل إليها من أبيهـا حفني نـاصف بحكم الـوراثـة الطبيعية» .

ولباحثة البادية مقـالات أخرى لم يضمهـا كتاب «النسـائيات» نشرت في جـريدة «جون ترك» في استنبول ، وفي جرائد ألمانية وفرنسية ، ورسائـل باللغتـين الفرنسيـة والانكليزية تبادلتها مع المشتغلات بـالقضايـا النسائيـة في أوروبا ، وقـد أثنت عليها الكاتبة الانكليـزية «شـارلوت كمـرون» في كتابها «شتـاء امرأة في أفـريقيا» ووصفت منزلها وأخلاقها وحياتها العائلية .

كذلك ألقت العديد من الخطب في دار جريدة «الجريدة» وفي الجامعـة المصرية ، حول قضايا المرأة المصرية ، وأنشأت جمعية النساء التهذيبية التي جمعت فيها نخبة من السيدات المصريات والأجنبيات ، لأن وجود هؤلاء فيها يشجع المصريات على الثقة بها ، ويدعو الحكومة إلى عدم التدخل في أعمالها ، ووضعت بـرنامجـاً لإنشاء مشغـل للفتيات الفقيرات وملجأ للنساء ، وكانت تنوي أن تهب هـذين المعهدين كـل ما لهـا

من ميراث ، وأقامت في منزلها مدرسة صغيرة لتعليم التمريض ، واستحضرت لذلك عدداً من المعلمات الخبيرات بهذا الفن ، وكانت في كل تلك الجمعيات تسند الرئاسة لإحدى السيدات الفضليات ، كالسيدة هدى شعراوي ، لئلا تتهم بالأنانية وحب الذات .

كانت تنفق كل مواردها على أعمال الخير وتعليم الفتيات الفقيرات ، والتبرع للمحتاجات من النساء ، وقد باعت أكثر حليّها : واشترت به أرضاً لتنفق ريعها على مختلف وجوه البر والإحسان .

لم تنجب باحثة البادية أطفالاً ، فوزعت حنانها على الأطفال المساكين الذين كانت تمطرهم بهداياها في كل مناسبة لتشعرهم بالسعادة ، وتشعر هي بالراحة النفسية وقد دفعها ذلك للانصراف إلى الخدمة العامة ، وحفظ الشعر ، وقراءة كتب الفلسفة والاجتماع ، حتى إنها كانت قادرة على أن تناقش في فلسفة دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الاعجاب ، كما تقول شارلوت كمرون .

كانت تحب الفنون الجميلة ، وتهوى قراءة كتب الأدب والشعر والتاريخ ، وكانت سريعة التأثر ، مشبوبة العاطفة ، تتألم من كل مشهد حزين تراه أو تسمع به ، وتفيض دموعها من ظلم الانسان لأخيه الإنسان ، وقد زادت هذه العواطف المتأججة من حدة مرضها الذي انتصر عليها في النهاية ، وفاضت روحها إلى بارئها في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها .

* * *

لقد كان لباحثة البادية فضل كبير على الحركة النسوية في مصر ، فهي التي شجعت المرأة على التعليم والنهوض ، وفتحت أمامها أبواب العلم ، وكانت مي زيادة في طليعة من شجعتهن على الكتابة في الصحف والمجلات ، وتبادلت معها العديد من الرسائل ، فردت عليها مي تشكرها قائلة :

«ترنمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك ، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك ، غير أني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات ،

خيل لي فيها أنني أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة» .

«بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة ، وددت تقبيلها بشفتي روحي ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بناني على غير هدى ، ولم يكن ذلك إلا إجلالاً لصفحات قلّبتها ، وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها» .

وتقول لها أيضاً :

«ضمي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد . ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعل في النفوس ما لاتفعله أصوات الأفكار» .

«لا يهمنا أن تخفي تلك اليد النحيلة وراء جدران خدرك ، وأن تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري ، مادمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ، ونعرف منك روحك العالية» .

«فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتسامتك ، ويسكبون حياتهم في قالب حياتك» .

ولم تكتف مي بذلك بل ألفت عنها كتاباً بعنوان «باحثة البادية» صدر عن مطبعة مجلة المقتطف عام ١٩٢٠ تناولت فيه حياتها ، والدور الريادي الذي اضطلعت به في دفع الحركة النسوية إلى الأمام ، كما درست شخصيتها وآراءها وأدبها دراسة وافية .

* * *

بعد مضي سبع سنوات على وفاتها أقامت لها سيدات مصر في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩٢٥ حفلة تأبينية كبيرة في حديقة الأزبكية برئاسة السيدة هدى شعراوي تكلم فيها كل من : هدى شعراوي ، والشاعر خليل مطران ، ومجدُ الدين حفني ناصف ، ونبوية موسى ، ومي زيادة ، ومما جاء في قصيدة خليل مطران قوله :

يا آية العصر حقيق بنا تجديدُ ذكراك على الدهر

جاهدتِ لكن النجاح الذي أدركتهِ أعلى من النصر

بـدت تـبـاشـير الحـيـاة الـتي جـدّت ، فحيي طلعـة الـفجـر

أمـا مي فقالت : « . . . وكـما كانت مـوحيـة لي أول كتـاب عـربي عن كـاتبـة عربية ، كذلك كانت أول امرأة مصرية ـ وأكاد أقول شرقية ـ تعاون الرجال والنساء على الاحتفاء بتأبينها رسمياً ، فأقـام الرجـال حفلتهم بعد مـرور أربعين يـوماً عـلى وفاتها ، وأقام النساء حفلتهن بعد مرور العام في دار الجامعة المصرية القديمة ، وقـد كان لي الشرف والسرور والحزن أن أكـون من أعضاء اللجنـة التي عنيت بتهيئة تلك الحفلة ، ومن الخطيبات اللائي تكلمن فيها» .

وختمت كلمتها بقولها : «إنكم تدركـون أنه لا خـير في وطن يجري الـرجال منـه والنساء مقعدات ! بل الخير كل الخير في وطن يتعاون الرجال فيه والنساء على تنشئـة الفرد الصالح تنشئة للعائلة فالمجتمع فالأمة الزاخرة بتيارات الرفعة والكرامة» .

* * *

هذه هي ، ـثة البادية التي كان لها الفضل الأكبر والأول في إرساء حجـر الأساس للنهضة النسائية في مصر خاصة والوطن العربي عامة ، وسلكت طريق الاعتـدال في هـذا العمل ـ والاعتـدال أمان من الـزلل ـ لكي لا تصـطدم بالعـادات الموروثـة ، وشعائر الـدين ، بعكس قاسم أمـين الذي استعمـل شجاعتـه أكثر مما يجب فصدم الجمهور صدمة قوية ، وأخفق في دعوته رغم سلامة قصده ، وصدق نيته .

مـــي زيـــادة

(١٨٨٦ - ١٩٤١)

كانت مي * أشهر أديبة عربية سبقت عصرها ، فقد أقامت صالوناً أدبياً في منزلها بشارع المغربي رقم ٢٨ في القاهرة ، استقبلت فيه كبار رجال السياسة والأدب والفكر والفن في وادي النيل ، وبعض الوافدين إلى الديار المصرية ، وكتبت في الصحف والمجلات ، وأصدرت سبعة عشر كتاباً بين مؤلف ومترجم ، وألقت العديد من الخطب والمحاضرات ، وعقدت الصلات الأدبية مع كبار الكتاب والمستشرقين ، وداومت على دروس الفلسفة في الجامعة المصرية ، وأتقنت خمس لغات هي : العربية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والايطالية ، وألمت بالاسبانية واللاتينية والسريانية واليونانية القديمة .

* * * *

ولدت مي زيادة في الناصرة في ١١ شباط عام ١٨٨٦ من أب لبناني من قرية شحتول بقضاء كسروان غريب عن فلسطين هو الياس زخور زيادة ، جاء إلى الناصرة ليعلم في إحدى مدارسها الابتدائية ، وأم فلسطينية من أصل سوري تدعى نزهة خليل معمّر ، كانت تحفظ ديوان ابن الفارض ، ومئات الأبيات الشعرية ، ولم يرزق الزوجان غيرها من الأولاد ، سوى طفل صغير لم ينعم بالحياة .

دخلت مدرسة الراهبات اليوسفيات في الناصرة في السادسة من عمرها ، وتخرجت فيها وعمرها ثلاثة عشر عاماً ، وأرسلت إلى مدرسة راهبات الزيارة في «عينطورة» ، وهكذا تفارق أمها لأول مرة ، وفي المدرسة كانت تبدو غريبة الأطوار ، تحير معلماتها وصديقاتها بتصرفها الشاذ ، فهي رضية الخلق ، حادة الذكاء ، لكنها سريعة التأثر ، عزيزة النفس ، تعيش في الواقع مرة ، ومرات في غمرة الأحلام .

كانت في تلك الفترة تسجل خواطرها في كل صباح ، تحت عنوان (من يوميات عائدة) ـ وعائدة هي نفسها مي ـ كتبت : (كيف أتخلص من شعوري ؟ كيف ألاشيه ؟ كيف أصير صخرة ؟ حدثيني أيتها الحجارة السعيدة كيف صرت حجارة ؟) .

وكثيراً ما تترك اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس ناظرة إلى البحر البعيد وزرقته واستدارة الأفق المخيم عليها ، فترى السفن وقد تضاءلت

بشاسع المسافة ، وفي تلك الخلوة أيضاً كانت تتنهد وتشكو وتكتب وتحسد العصافير المرفرفة حولها ، تزقزق على هواها حرة طليقة ، لا تراعي واجبات اجتماعية ، ولا تحترم القوانين .

وعندما أنهت دروسها في عينطورة عام ١٩٠٤ ، وقضت عدة أشهر في مدرسة الراهبات العازاريات في بيروت ، عادت إلى الناصرة ، وبدأت تطالع ، فطالعت لامارتين ، وكورني ، وشيلر ، وشلي ، وبايرون ، وساحت معهم في أثير الشعر ، كما طالعت سير الأديبات العظيمات ولا سيما مدام دي سيفينييه ، وجورج صاند ، ومدام دي ستال ، وتساءلت غير مرة : لم لا تسير في اثرهن ، وهي التي لا يعوزها الحسن والعزم والذكاء . . . ؟ وعندما تسأم الدراسة تمتطي جواداً وتمضي متنزهة في مرج ابن أبي عامر ، مطلقة لخيالها ولجوادها العنان .

في مصر :

انتقلت مع أبويها إلى مصر عام ١٩٠٧ وعاشت على هامش الحياة حيناً ، ولكنها لم تيأس ، بل وجدت عزاءها في الموسيقى والكتابة والشعر ، ثم أتيح لها أن تعمل معلمة لأولاد ثري مصري يدعى (ادريس بك راغب) الذي وهبها جريدة (المحروسة) ومطبعتها سنة ١٩٠٩ ، وانفتحت الحياة في وجهها ، فذهبت لزيارة لبنان ، وأقامت في برمانا التي (تتوارى بين خضرة الأشجار) ، وكم مرة انطلقت تنتقل في الجبال ، وقد (عصبت هامَها أكاليلُ من المرجان ، وغمرت أعماق أوديتها الظلال) .

ثم عادت إلى مصر لتعمل في طبع مجموعة أشعار لها بالفرنسية ، غلب عليها الطابع الرومانسي هي (أزاهير حلم)[1] وأصدرته باسم مستعار هو (ايزيس كوبيا)[2] وأهدته إلى الشاعر الفرنسي (لامارتين) شاعرها المفضل ، وقد أحدث الديوان ضجة في المجالس الأدبية ، فتساءل الناس : من تكون تلك الأديبة الفذة ؟ حتى اكتشفوها في نهاية الأمر ، فعادت توقع باسمها الحقيقي .

والحق أن باحثة البادية هي التي حفزتها على الكتابة بالعربية ، ثم ذهبت إلى لبنان ثانية عام ١٩١١ وأقيم لها حفل تكريمي في ضهور الشوير ، وبنى لها فارس مشرق كوخاً أخضر على جبل (مرحاتا) دشنته بحفلة أنيقة ترأسها الأمير (قبلان أبي اللمع) . وحضر الحفلة كبار الأدباء والأعيان ، فألقت فيها أول خطبة لها . أما

كوخ مي فكان من خشب الغصون ، مسقوفاً بالأعشاب اليابسة ، ليس فيه شيء غيرَ مقعد وطاولة عليها بعض الكتب ، كما جعلت جدرانه من الداخل خضراء اللون ، وفي هذا الكوخ الأخضر ترجمت كتاب الحب الألماني لـ (ماكس مولر) بعنوان (ابتسامات ودموع) وكانت قد درست الألمانية في القاهرة إبان الشتاء .

عادت مي إلى القاهرة خريف ١٩١١ فكتبت باستمرار في (المحروسة) وغيرها ، فأثارت اعجاب القراء ، وفي تلك السنة بدأت صلتها بجبران الكاتب اللبناني المهاجر ، فكان أول ما طالعت له مقالة (في مثل هذا اليوم ولدتني أمي) فلقيت لديه صوتاً حاد النبرة ، يخدش الآذان الشرقية ، ثم راحت تستوضح سيرته وأوضاعه باهتمام فعلمت أنه لبناني بائس هجر قرية بشرى في شمالي لبنان مع أمه واخوته إلى بوسطن بالولايات المتحدة الأميركية ، وهناك في الحي الصيني الموبوء القذر أخذ يدرس اللغة الانكليزية ، ويرسم عوض أن يساعد ذويه في تجارة الخردوات ، وعلمت أنه فقد أخاه وأمه وأخته صغيراً ، فعاد إلى بيروت ودرس العربية في مدرسة (الحكمة) ، ثم قصد باريس وتلقى أصول الرسم الحديث خلال سنتي ١٩٠٩ و١٩١٠ ، حيث التقى الفنان اللبناني (يوسف الحويّك)(٣) ، ثم عاد إلى بوسطن ، وعاش من ابرة أخته مريانا في بيئة تعاسة وحرمان .

علاقتها بجبران :

بينما كانت مي تطالع في غرفتها الموحشة قصة (مرتا البانية) ذات مساء ، إذا بها تتوقف بغتة وتتأمل . لقد خطر لها أن تكتب إلى المؤلف مبدية اعجابها به . ولكن كيف تكتب له وهي لا تعرفه ؟ . وإذا كتبت ماذا سيكون موقفه منها ، وهو تلميذ نيتشه المتجبر ؟ ! ألا يهمل رسالتها ، ويجيبها شاكراً من فوق ، وفي تضاعيف شكره استصغار واشفاق ؟ . أتتطفل وتكتب إلى شخص غريب ، وهي من هي في مصر ، وفي أوساط الأدب ؟ وهل بلغت شهرتها الولايات المتحدة حتى يعلم جبران منزلتها الأدبية ، فيقدر أعجابها به ؟ . . . خواطر متضاربة حركت ذهنها . . . وكانت انتفاضة عصبية هيجت يدها ، فإذا بها تقول معرفة نفسها : (أمضي «مي» بالعربية وهو اختصار اسمي ، ومكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو «ماري» ، وأمضي «ايزيس كوبيا» بالفرنجية غير أنه لا هذا اسمي ولا ذاك ، اني وحيدة والديّ ، وان تعددت ألقابي) .

بلغت جبران الرسالة في امضى ساعاته . . . فالوساوس تتناهبه ، والخيبة تحزّ في صميمه ، لاصديق يفهمه فيواسيه ولا حنان ، اللهم إلا حنان أخته ، وقد فترت علاقته بـ(ماري هاسكل)[٤] بعض الفتور ، فطالع الرسالة بامعان ، وتلمس خلفها نفسا كئيبة حائرة تشكو غربتها هي أيضاً ، ونهض لساعته فأجابها إجابة رقيقة ، استهلها بالثناء على جرأة الأديبة المتحررة ، وأخذ يحدثها برمزيته الخاصة عن ماضيه وتصاميم غده ، حتى انتقل إلى كتاب (الأجنحة المتكسرة) آخر ما أصدر ، فلمّح لها بالظروف التي أوحته ، وأهداها نسخة منه .

طالعت مي الأجنحة المتكسرة بلهفة ، إذ وجدت فيه تلك الخفقة اللاهبة التي تلمستها لدى لامارتين ، فراحت تقارن بين (غرازيلا) و(سلمى كرامة) وتتأمل . . . . ووجدت فيها أيضاً مزيجاً وثيقاً من ظمأ بيرون ورقة شيلر ، وحسرة شوبان ، أولئك الأعلام الذين احتلوا المكانة الأولى عندها ، فازداد أعجابها بالمؤلف ، فكتبت إليه في أيار ١٩١٢ تشكر له هديته ، وتطري نهجه ، وتناقشه في موضوع الزواج قائلة : (إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها ، مخلصاً في الدفاع عنها . . . وأشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة ، فكالرجل يجب أن تكون لها الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب) إلى آخر هذه الرسالة الطويلة التي تدور كلها حول الزواج وحرية المرأة . . . ولم تنس مي في آخر رسالتها أن تحدث جبران عن كوخها الأخضر وأيام لبنان الجميلة قائلة : (فلا أساتذة لي إلا أحلامي وتأملاتي ، ولا أقرأ من الكتب إلا الكتاب الذي أحبه ، وكل واحد من مؤلفاتك صديق عزيز علي ، بل أراني تلميذة أفكارك في مواضيع كثيرة) .

مي الخطيبة :

أهدى الخديوي عباس حلمي الشاعر خليل مطران الوسام المجيدي ، فدعا سليم سركيس شعراء الوطن العربي وأدباءه لتكريم مطران في بهو الجامعة المصرية عام ١٩١٣ ، فأسهم جبران من أميركا بهذا التكريم ، وأرسل كلمة بعنوان (الشاعر البعلبكي) اقترح سركيس على مي أن تلقيها ، ليكون للتكريم معنى جديد باشتراك المرأة فيه ، ووقوف فتاة عربية أول مرة في العصر الحديث على منبر الخطابة في حفلة رسمية عامة ، فهالها هذا التكليف ، وتهيبت هذا الموقف أمام

رجال الادب والعلم ، لكن أباها شجعها ، وجاءت ساعة الخطابة ، فشعرت بالخوف يدب في نفسها ، ولكنها تمالكت أعصابها ، وألقت كلمة جبران بحماسة ، ثم اتبعتها بكلمتها ، فنجحت في الاثنتين معاً ، فقام الأمير محمد علي رئيس الحفلة فصافحها وهنأها .

عبر البحار :

توالت الرسائل بين جبران ومي ، وتبادلا فيها الآراء والاعجاب ، ولأن (النفس الحزينة المتألمة تجد راحة كبيرة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور ، وتشاركها في الاحساس ، كما أن الغريب يستأنس بالغريب) . وحين شكت له حالة لبنان السيئة ، وحثته على الكتابة في هذا المجال كتب جبران مقاله المأثور : (ويل لأمة تقابل كل فاتح بالتطبيل والتزمير ، ويل لأمة تكره الضيم في منامها ، وتخضع له في يقظتها . . . ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا سارت وراء النعش) .

غير أن الرسائل أخذت تجنح نحو تبادل العواطف ، فإذا كل واحد يهفو للآخر ويصارحه بحبه ، فلنسمعها تقول له : (ماذا جرى[*] للبريد ؟ كان يصل في ثلاثة أيام أو أقل أحياناً ، وها مكتوبك يصل الآن بعد أربعين يوماً . . . ما أبطأ الرسائل في انتقالها ! أتراها تجيء من أقاصي الدنيا ، من أميركا . لتصرف كل هذه الأيام على الطريق ؟ لقد كنتَ يوم ٦ يناير بطوله موضوعَ تفكيري ، وكنتَ ماثلاً أمامي بصورة طفل (نونو ، نونو) تتحرك يداه الصغيرتان في الهواء ، باشارة الباحث عن أدوات قدّر له أن يحملها ويعالجها . . . كأنك تلومني لأنني أسألك عن صحتك ، وهل يمكن إلا أن أسأل ؟ لماذا لم تخبرني بشفائك قبل اليوم ، قبل أن أسالك ، قبل أن نعود إلى التراسل . . . ولكن كيف استطعت أن تهمل تطميني ، وأنت تعلم أن ليس من يطمني غيرك ؟ كيف استطعت ألا تفكر في كل هذه الشهور ولا مرة واحدة ؟ . ما أحلى رسالتك في قلبي يا مصطفى ! ما أحلى كلامك بين تافه الكلام وركيكه ! إن الفاظك وسطورك جدول نور وندى تشعشع ، وحرارةٌ ولطافة وانشاد . . . أتصدّق انني أشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنقشها ولا أراها ، فأستعيض عنها بالرسوم المنشورة لك في كتبك ؟ . . .

جبران . . . كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول إنك محبوبي ، لأتحايد كلمة الحب . إن الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات

والمراقص والاجتماعات ينمو في أعماقهم قوة دينامية رهيبة . . . ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إنني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكني أعرف أنك محبوبي ، واني أخاف ، اني أنتظر من الحب كثيراً . . . أخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر ، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ولكن القليل في الحب لا يرضيني ، الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير .

كيف اجسر على الافضاء بهذا ، وكيف أفرط به ؟ لا أدري . . . الحمد لله أنني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربتُ خجلاً بعد هذا الكلام ، ولاختفيتُ زمناً طويلاً من أن أدعكَ تراني إلا بعْد أن تنسى . . . أتذكر قول الشرقيين القدماء إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب ! ها قد صح علي ارتيابهم ، وصدق في سوء ظنهم . . .

إن قلبي يسير إليك ، وخير ما في يظل جاثماً حواليك يحرسك ويحنو عليك . . غابت الشمس وراء الأفق ، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة ، نجمة واحدة هي الزهرة إلهة الحب . أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي لها واحد «جبران» حلو بعيد بعيد ، هو القريب القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء ، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة ، قبل أن ترى الذي تحبه ، فتتسرب إليها كل وحشة الشفق ، وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانباً ، لتحتمي من الوحشة في اسم واحد هو (جبران) .

صالون مي :

كان لمي صالون في شارع مظلوم باشا ، تستقبل فيه الأدباء كل يوم ثلاثاء ، وتتولى إدارة الحديث فيه دون أن تظهر بمظهر المنزعجة ، وتمحو روح الخصام التي تنشأ عادة بين الأدباء ، وقد وسع صالونها مذاهب القول ، واشتات الفكر وفنون الأدب ، فكان مكاناً للحديث بكل لسان ، وملتقى للطوائف دون تفريق ، فكم من مناقشة حادة جرت بين الشاعر اسماعيل صبري (المسلم) والمطران دوريان (المسيحي) وشبلي شميل (الداروني) . ـ نسبة إلى داروين ـ فافترقوا جميعاً متآخين ، على الرغم من تباين عقائدهم واختلاف ميولهم . وكانت مي تضفي على

هـذه المجالس اشعـاعاً من ذكـائها النـادر ، وأنوثتهـا الحارة مما جعل رواد صـالونها يستعجلون انعقاده كل يوم ثلاثاء ، وقد عبر اسماعيـل صبري عن هـذه اللهفة حـين قال :

روحي عـلى بعض دورِ الحي حـائمــةٌ كـظامــئٍ الــطير تــواقــاً إلى المــاءِ

إن لم أمــتــعْ بمــيٍ نــاظــريَّ غــداً أنكــرتُ صبحـكَ يــا يــومَ الثـلاثـاءِ

وكـان من رواد صالـون ميّ بنـوع خـاص ، ولي الـدين يكن ، وطـه حسـين ، وانطون الجميل ، وداود بركات ، وأحمد شوقي ، واسماعيل صبري ، وأحمد لـطفي السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، وخليل مطران ، وعباس محمود العقاد ، ومنصور فهمي ، وشبـلي شميل ، ومصـطفى صادق الـرافعي ، ويعقـوب صروف ، وايمي خير ، وبركات بركات وغيرهم . . .

وقد وصف طه حسـين صالـونها وصفاً شـائقاً ، وكـان أقصى أمانيـه أن يصل إلى صالونها حين لم يكن سوى طالب في الجامعة المصرية كما يقول . . . وكان يرتاده إلى جانب من ذكرتهم كثير من الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون بلغات مختلفة بالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة ، وربما استمعوا لقصيـدة تنشد ، أو مقـالة تقـرأ ، أو قطعة موسيقية تعزف ، أو أغنية تنفذ إلى القلوب ، ويقول طه حسين أيضـاً : (انني لن أنسى صوت مي حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة هي «يا حنينـة» وتغنينا بـاللغات المختلفة ، واللهجات العربية المختلفة) ويقرن هذا الصالون بأوتيل دي رمبوليـه في فرنسا ، ومجالس سكينة بنت الحسين المعروفة في التاريخ .

في المجتمع :

اعتنت مي بشكلها الخارجي ، كما اعتنت بأدبها ، فكانت تهتم بالأزياء والتبرج ، على غير تعمل حتى انها ارتدت كل ساعة فستاناً جديـداً ذات سهرة كبـيرة في لبنان ، إذ أن ما يطلب من المرأة أن تخلق الجمال ، وتـوزعه في جميع مناحي الحيـاة . وكانت على تمسكها بالتقاليد الشرقية المصرية في تصرفها الاجتماعي ، تحذو حذو الغربيـات في حرية الرأي ، وفي السفر والمعـاشرة . أما الـرقص فلم تكن شديـدة الولـع به ،

وكثيرا ما كانت تعتذر عن الدعوات التي توجه إليها بهذا الخصوص مع أنها كانت تجيد الرقص .

في الجامعة المصرية :

جزعت مي حين اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، وانقطعت المواصلات بين العالمين القديم والجديد ، وترقبت انفراج الأزمة لتعود إلى مراسلة حبيبها جبران وراء البحار . في هذه الفترة رغبت في الالتحاق بالجامعة المصرية لدراسة الفلسفة والآداب ، فتم لها ذلك . ونجحت حتى أدهشت زملاءها ومعلميها ، وسموها (المدموزيل صهباء) ، وكان زميلها الدكتور زكي مبارك ينافسها ويضمر لها البغضاء .

بقيت مي في الجامعة المصرية ثلاث سنوات ، وكان الطلاب الجامعيون يختلفون عليها فيما بينهم ، فمنهم من يفضل (باحثة البادية) ومنهم من يقدم مي ، فعُرض الخلاف على الأستاذ محمد المهدي فقال : (تلك أجزل ، وهذه أرشق) .

لم يكن في الجامعة المصرية آنذاك فتاة مصرية واحدة ، كان فيها الفرنسيات والانكليزيات والايطاليات واليونانيات والروسيات ، فكانت مي قبلة الأنظار لما تحلت به من توقد الذهن والجاذبية . . . وفي هذه الفترة كتبت مذكراتها تحتّ عنوان (مذكرات الجامعة المصرية) ، فكانت تقصدها قبل ابتداء الدروس ، وتدون انطباعاتها عنها ، وفي الجامعة تعرفت بالسيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر التي كانت تنظّم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة ، وكان يختلف إلى هذه المحاضرات عدد من النساء الراغبات في العلم وتحرير المرأة . وبينما هي تغادر البهو مرة ، بعد أن ألقت محاضرتها ، وقع بصرها على فتاة (تميزها حركات رشيقة ، وروح خفيفة لطيفة ، وتنبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق وألمعية حادة ، وفطنة نادرة) . فتقدمت منها مي واستوقفتها قائلة : (سيدتي هدى ! أنا معجبة بمشروعك ، مقدرة ما تبذلينه من جهد ، لذلك أضع نفسي تحت تصرفك . . أنا كاتبة وشاعرة . أكتب في الصحف وأنشر في المجلات . أنا «مي» ولا أظنك إلا قرأت شيئاً مما أكتبه) . . . فكان لكلماتها المفعمة بالثقة بالنفس ، ما حمل السيدة شعراوي على تقبيلها والترحيب بانضمامها إلى صفوف المجاهدات في سبيل تحرير المرأة العربية .

مي وتحرير المرأة :

وقفت مي معظم نشاطها على العمل لتحرير المرأة العربية من الجهل والاستعباد ، ورفع مستواها الاجتماعي ، وجعلها مساوية للرجل في الحقوق والواجبات ، وكانت مع قاسم أمين وهدى شعرواي وباحثة البادية في طليعة من ناصروها ، ووقفوا إلى جانبها ، فكتبت في الصحف ، وساهمت في الجمعيات النسائية ، وأقامت الحفلات ، وألقت الخطب قائلة : (يجب أن يُبدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلاً . يجب اصلاحها السريع ليتيسر اصلاح الرجل . يجب أن يُباشر بتحرير المرأة لئلا يكون المتغذون بلبنها عبيداً ، وهل تربي العبدة إلا عبيداً ؟ . يجب أن يُحسر غشاء الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما من زوج وأخ وولد أن معنى الحياة عظيم) .

وتقول : (الرجل . . . هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج ، فإذا سقط سقطنا معه . وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيات . لذلك نريد له خيراً ، ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه . وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل ، نريد أن نكون متساوين في الحقوق الأدبية والعمرانية ، مادمنا متساوين في الواجبات والمسؤولية ، بل ان واجباتنا ومسؤوليتنا يفوقان ما عليه من مسؤولية وواجب !) .

نشاط أدبي :

نشطت مي نشاطاً أدبياً ملموساً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، فكتبت بالعربية والفرنسية والإنكليزية ، وأخذت تترجم وتخطب وتحاضر ، وأصدرت كتبها : (سوانح فتاة) و(كلمات واشارات) و(ظلمات وأشعة) و(المساواة) و(الصحائف) و(بين الجزر والمد) ، فجاءت متميزة بالطابع الوجداني . . .

وكلما مرت الأيام تضاءل أملها بلقاء جبران ، لذلك اندفعت تتعمق في العلوم والفلسفة حاسبة أن شعورها قد يخف في جو القضايا الجافة ، فطالعت كانت ، وفرويد ، وسبينوزا ، ودرست علم مناجاة الأرواح ومشاكله المتنوعة ، ونشرت مبادئه في اجتماعاتها ، فذرّ الاجهاد العقلي قرنه فيها .

مات الدكتور صروف صديقها الحميم عام ١٩٢٧ ، ومات أبوها عام ١٩٢٩ ثم أمها وتبعهم موت جبران عام ١٩٣١ فاسودت الدنيا في عينيها ، وأرسلت صرخة

استسلام يائس لأنها أضحت كالقصبة الجوفاء في مهب الريح ، واعتزلت الحياة غير آسفة ، وقد وصف طه حسين عزلتها بقوله : (أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها ، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة ، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة ، وإنما قللت لقاءهم ، وتجنبت ما يدعو إلى هذا اللقاء . وأخذت لا تلقى إلى بموعد يطلبونه . . . حتى أصبح لقاء مي مقتصراً على أصدقائها الأدنين) . والذي زاد في نفورها من الناس طمع أقاربها بثروتها ، فصدتهم عنها ، فهددوها بالانتقام ، وأزعجوها في حين كانت تحتاج أكثر ما تحتاج إلى التعزية والراحة والحنان .

خطر لي أن تهجر وحدتها وكتاباتها والقلم ، فسافرت إلى فرنسا وانكلترا عام ١٩٣٢ لكنها سرعان ما ملت السياحة ، وعادت إلى مصر ، وغيّرت منزلها . وراحت تترجم أعلام الفكر اليوناني ، ثم رحلت إلى إيطاليا ، ودرست في جامعة (بروجيه) آثار اللغة الايطالية ، وعادت إلى القاهرة ، ثم سافرت إلى روما عام ١٩٣٤ ، وهنا بدأت عليها عوارض الإعياء ، وعجزت عن الكتابة ، فاستعانت بسكرتيرة صديقة ، وترجمت بعض المآسي ، وفي غمرة هذا الاضطراب الشعوري قررت العودة إلى القاهرة ، حيث عاشت عيشة النساك بين أحلامها المريضة ، وتصوراتها الغريبة ، واشتدت عليها عوارض الهستريا ، حتى إنها حاولت الانتحار ، وعند ذلك كتب أصدقاؤها إلى أهلها ، فأتى ابن عمها د . جوزيف زيادة ، وأخذها إلى لبنان ، وأودعها مستشفى (العصفورية) حيث بقيت تسعة أشهر ، عانت خلالها الحالات النفسية والأزمات العصبية والاضراب عن الطعام ، فكانت تثور وتنتحب وتمزق وتكسر ، ثم يعاودها الهدوء . فتدّون انطباعاتها وخواطرها الغريبة قائلة : (أولم يجدوا لي سجناً أشرف من هذا السجن ؟ ! ما أشد قسوة الانسان على أخيه الانسان !) . ثم طلبت أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء ، فاجتمعت وأصدرت تقريراً مطولاً ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض ، لكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى شهراً آخر حتى تقوى بنيتها .

ويقول الدكتور جميل جبر مؤلف كتاب (مي في حياتها المضطربة) : (ان مي لم تكن مجنونة بالمعنى الصحيح ، لأن المجنون لا يعلل تعليلاً منطقياً ، ولا يكتب كتابة منسجمة اللحمة حتى في أسمى درجات صحوه ، غير أنها كانت تصاب بنوبات ثورية دورية تقرب من الجنون ، هي نتيجة حزنها على أبويها وعلى جبران ، واعتلال

صحتها عقب ذلك ، واجهادها العقلي ، وكبتها الدائم ، وقد تقدمت بها السن ، وخوفها من اضطهاد ذوي قرباها ، رغبة في مالها ، ناهيك عن وحدتها المعنوية والمادية ومزاجها الحساس . . . ولما كانت البلاد تفتقر آنذاك إلى مشافي الهستريا والنوارستينيا ، كان لابد من إدخالها (العصفورية) إلا أن العصفورية ، وما يلابس اسمها من فكرة الجنون ، زادت في نقمة مي ، وفي اضطراب أعصابها) .

ثم نقلت إلى مستشفى (ربيز) إثر احتجاج الصحافة العنيف ، وبعد أن غادرته بعد عشرة أشهر ، وضعت في غرفة بالجامعة الأميركية ، وقُدم لها الطعام فتناولته بيدها لأول مرة ، وأمسكت بالشوكة بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعاما ، ولم تمسك بها شوكة وسكينا .

ولما زارها أمين الريحاني إثر عودته من أميركا ، قالت له : (لقد ظلموني يا أمين وأذاقوني من الاضطهاد أمره) وراحت تروي قصتها وهي لاتتمالك نفسها من الزفير . كما زارها بعد ذلك شارل مالك ، وقسطنطين زريق ، والأمير عبد القادر الجزائري ، وجرجي نقولا باز ، فروحوا عنها وشغلوها عن آلامها المبرحة .

لقد عادت مي إلى حريتها بعد أن قرر الدكتور «مارتين» أنها سليمة الحس ، صحيحة الجسم ، وفي ٢٢ آذار ١٩٣٨ ألقت محاضرة في الجامعة الأميركية بعنوان : (رسالة الأديب إلى الحياة العربية) ، ثم ذهبت مع الريحاني إلى وادي (الفريكة) بعد تردد ، فنزلت يومين في بيت الريحاني ، ثم انتقلت إلى مسكن بسيط يشرف على الوادي ، وفي عزلتها كانت تكتب وتطالع تارة ، وتحلم تارة أخرى ، وتتذكر الماضي تارات ، وهي مع هذا متحفظة جداً حتى مع أقرب الناس إليها ، وفي سهراتها كانت تروي لأخصائها بعض أشعارها بالفرنسية ، أو تتحدث عن كتابها (ليالي العصفورية) ، ثم تعود إلى فكرة الاضطهاد . وحاولت مرة السيدة (يمنى) قرينة الشيخ فؤاد حبيش أن تحدثها عن جبران ، فجمدت قسمات وجهها ، وراحت تحدق في الفضاء . . . وفي الصباح كانت تنهض مع الفجر وتتجول في وادي الفريكة ثم تعود ، لكنها لم تشأ يوماً أن تسير على دروب الضيعة ، أوتتعرف إلى الجيران .

بعد ثلاثة أشهر من إقامتها في (الفريكة) عادت إلى القاهرة ، لكنها ملت الكتابة ، وإذا خطر لها أن تكتب تناولت ورقة وقلماً ، وخطّت بعض الأسطر ، ثم ألقت بالورقة والقلم جانباً . لقد عاشت في عزلة خانقة ، لولا زيارةُ بعض الأوفياء أمثال أحمد لطفي السيد ، وفليكس فارس ، وايمي خير ، وخليل مطران ، وطه

حسين ، وبركات بركات ، وطاهر الطناحي الذي كان يزورها مساء كل يوم أحد .

في هذه العزلة الموحشة ، والأزمة النفسية الحادة ، وصلها نبأ وفاة فليكس فارس ، فجزعت لفقده ولازمت فراشها وانتحبت ، وبينما هي تتوقع يوماً ورود رسالة من الريحاني بلغها نعيُه ، فأبرقت لأخيه ألبرت قائلة : (ياآل الريحاني الكرام ، أفي وسعكم أن تعزوني في فقيدي وفقيدكم وفقيد الشرق العظيم ؟) وكانت هذه البرقية آخر ما خطه قلمها .

الخفقة الأخيرة :

على سرير أسود ، في غرفة موحشة ، تلوت امرأة هزيلة في خريف العمر تصيح : (دعوني وحدي . . . إنني عطشى إلى الانفراد) . نعم عطشت إلى العزلة الموحشة في مرحلة النهاية .

عند منتصف الليل كان شهيق متقطع يحاكي تنهد الطفل وهو يختنق ، فإذا المريضة جاحظة العينين لا تقوى بغير إشارة إلى جهة القلب ، حتى كانت الساعة العاشرة من صباح التاسع عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٤١ ، فارتعش السرير تحت المريضة الواهنة ، وكانت خفقة القلب المعذب الأخيرة التي فارقت على أثرها الحياة .

كان على الطاولة المحاذية لسريرها حين اسلمت الروح أربعة كتب هي : «غرازيلا» للامارتين (بالفرنسية) و«دليل حلمي التائه» (بالايطالية) و«صورة دوريان غراي» «لأوسكار وايلد» (بالإنكليزية) وكتابها باحثة البادية .

ماتت مي قبل موتها بعامين ونيف ، وكانت هذه الفترة كافية لينساها الناس ، فلما أسلمت الروح ، لم تجد حولها صديقاً أو نسيباً أو رفيقاً ، بل رأت سقفاً مظلماً تدلت منه خيوط العنكبوت .

كانت جنازتها بسيطة جداً : نعش قاتم سار وراءه لطفي السيد ، وانطون الجميل ، وخليل مطران ، وايمي خير ، ونفر قليل من الأصدقاء ، فلما وصل الموكب الصامت إلى الضريح وقف لطفي السيد يرثيها والدمع يترقرق من عينيه ، وكانت الشمس إذ ذاك قد أشرفت على المغيب ، وخيل للموكب الحزين في تلك الساعة الرهيبة أنه يسمع مي تردد خلال الضريح قولها في كتابها (ظلمات واشعة) : «هذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسمات ، وفي قلبها الآلام والغصات ، ولقد عاشت وأحبت ، وتعذبت وجاهدت ثم ـ ماتت» .

آثار مي زيادة

١ ـ أزاهير حلم ـ ديوان شعر بالفرنسية ١٩١١ ـ دار الهلال ١٩١١
٢ ـ رجوع الموجة ـ رواية مترجمة عن الفرنسية ـ ١٩١٢
٣ ـ الحب في العذاب ـ رواية مترجمة عن الإنكليزية .
٤ ـ ابتسامات ودموع أو الحب الألماني لماكس مولر ـ رواية مترجمة عن الألمانية ١٩١٣
٥ ـ باحثة البادية ـ منشورات مجلة المقتطف ١٩٢٠
٦ ـ سوانح فتاة ـ دار الهلال ١٩٢٢ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥
٧ ـ غاية الحياة ـ محاضرة ألقيت في الجامعة المصرية .
٨ ـ كلمات وإشارات جـ ١ ـ دار الهلال ١٩٢٢ ـ دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٣ ـ جـ ٢ مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٣
٩ ـ المساواة ـ دار الهلال ١٩٢٢
١٠ ـ ظلمات وأشعة ـ ١٩٢٣ ـ دار بيروت ١٩٥٢
١١ ـ الصحائف ـ المطبعة السلفية ١٩٢٤
١٢ ـ بين الجزر والمد ـ دار الهلال ١٩٢٤
١٣ ـ عائشة تيمور شاعرة الطليعة ـ دار الهلال ١٩٢٤
١٤ ـ وردة اليازجي ـ مطبعة البلاغ ١٩٢٤
١٥ ـ رسائل مي : جمعتها مادلين أرقش ١٩٤٨ ـ ود . جميل جبر ـ دار بيروت ١٩٥٤ وسلمى الحفار الكزبري ١٩٨٢
١٦ ـ الخيال على الصخرة ـ رواية بالإنكليزية .
١٧ ـ رسالة الأديب إلى المجتمع ـ العروة الوثقى ـ بيروت ١٩٣٨

مراجع ومصادر عن مي زيادة

١ ـ مي في حياتها المضطربة : د . جميل جبر ـ دار بيروت ١٩٥٣
٢ ـ مي وجبران : د . جميل جبر ـ دار الجمال ١٩٥٠
٣ ـ مي أديبة الشرق والعروبة : محمد عبد الغني حسن ـ عالم الكتب ١٩٦٣
٤ ـ مي في حياتها وآثارها : وداد سكاكيني ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩
٥ ـ محاضرات عن مي : د . منصور فهمي ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٥٥

٦ ـ الذين أحبوا مي : كامل الشناوي ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٢
٧ ـ الرافعي ومي : عبد السلام هاشم حافظ ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٤
٨ ـ باقات من حدائق مي : فاروق سعد ـ منشورات زهير بعلبكي ـ بيروت ١٩٧٣
٩ ـ مي وأعلام عصرها : سلمى الحفار الكزبري ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٢
١٠ ـ مي أو مأساة النبوغ : سلمى الحفار الكزبري ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٧
١١ ـ أطياف من حياة مي : طاهر الطناحي ـ كتاب الهلال رقم ٢٧٩ ـ مارس ١٩٧٤
١٢ ـ حياة مي : محمد عبد الغني حسن ـ مطابع المقتطف ـ القاهرة ١٩٤٢
١٣ ـ مي في سورية ولبنان ـ مطبعة طبارة ـ بيروت ١٩٢٤
١٤ ـ مي في مذكراتها : د. جميل جبر ـ دار الريحاني ـ بيروت
١٥ ـ قصتي مع مي : أمين الريحاني ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٠
١٦ ـ مي زيادة ـ التوهج والأفول : روز غريب ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٧
١٧ ـ الشعلة الزرقاء : سلمى الحفار الكزبري والدكتور سهيل بشروئي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٩
١٨ ـ مي زيادة : عبد اللطيف شرارة ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥
١٩ ـ فن المراسلة عند مي : أمل الداعوق سعد ـ دار الآفاق ـ بيروت ١٩٨٢
٢٠ ـ تربية سلامة موسى : سلامة موسى ـ مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٨
٢١ ـ جدد وقدماء : مارون عبود ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٤
٢٢ ـ أديبات لبنانيات : اميلي فارس ابراهيم ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٧٠

الهوامش

* محاضرة ألقيت في ١٩ / ١٠ / ١٩٩١ في مكتبة الأسد بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة مي بدعوة من النادي الأدبي النسائي . (١) : نقله إلى العربية الدكتور جميل جبر ، ونشر في دار بيروت ١٩٥٢ .

(٢) : ايزيس هي : زوجة أوزيريس ترمز إلى العذراء (ماري) وكوبيا هي ترجمة (زيادة) في اللاتينية .

(٣) : ذكرياتي مع جبران حررته ادفيك شيبوب ، وأصدرته دار الأحد في بيروت ١٩٥٧ .

(٤) : هي السيدة الأميركية الأولى التي أرسلت جبران على نفقتها إلى باريس ليدرس الرسم .

(٥) : جدد وقدماء لمارون عبود ـ صفحة ١٣١ ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٤ .

نـــاديــا نصـــــــار

(١٩٣٤ - ١٩٩٤)

قليلون هم الذين كتبوا عن الشاعرة ناديا نصار قبل رحيلها الأبدي في ١١ / ٤ / ١٩٩٤ عن ستين عاماً قضت ثلثها في الأمراض والأوجاع ، حتى غدت شبحاً يتحرك ويدب على رجلين خاويتين هزيلتين . هل يا ترى لأنها لم تكن شاعرة متمكنة وهي التي نشرت ديوانين صغيرين هما : «وجد تعرّى» ١٩٦٩ ، و«زمن العشق» ١٩٨٣ ، وكتاباً نثرياً بعنوان «خطرات على ساحل المعرفة» ١٩٧٩ ضم شذرات من أفكارها وحكمها وآرائها في الحياة والناس . . . وكانت هذه الشذرات وليدة مطالعاتها في كتب الأدب والفكر والفلسفة التي كانت تستهويها ، ونتيجة لتجاربها غير الموفقة التي خاضتها ؟ . .

لا أبالغ إذا قلت إنني أكثر الناس معرفة بناديا نصار وطفولتها ونشأتها في الكفرون ، ودراستها في طرابلس (لبنان) وظروف حياتها ، وحبها ، وخيبتها ، وزواجها القصير ، وأحلامها ، وتشردها ، وقهرها ، وانفضاض الناس من حولها ، وتخليهم عنها ، وكيف أضحت وحيدة كالشجرة العارية في بيداء الحياة ، أو كالقصبة الجوفاء في مهب الريح ، لا يرأف بها أحد ، ولا يضمّد جراحها النازفة غير حفنة قليلة من الأصدقاء .

* * *

كان لوالدة ناديا تأثير كبير في تربيتها وتنشئتها وتعليمها ، كما كان للبحر في بانياس ، وللطبيعة الجميلة في الكفرون مثل هذا التأثير ، لكن ناديا لم تعش كثيراً في الكفرون بل في بانياس وطرابلس ودمشق ، حيث عملت وأحبت وتزوجت من الشاعر عزمي موره لي وفشلت في زواجها .

كانت السنوات التي عاشتها في بانياس الساحل (١٩٥٩ ـ ١٩٧٥) أخصب وأجود سنوات عطائها الشعري ، فقد تعرفت في هذه المدينة الهادئة الوادعة على الثالوث الشعري المؤلف من الشعراء : حنا الطباع ، وأنور الإمام ، وأحمد علي حسن ، فشاركتهم في أمسياتهم الشعرية ، وأضحت رفيقتهم أينما ذهبُوا ، وكان الشاعر أحمد علي حسن أقربهم إلى نفسها ، وأكثرهم اهتماماً بها وبشعرها ، فكان ينقح لها قصائدها الكلاسيكية الموزونة ويهذّبها ، ويرافقها إلى الأمسيات الشعرية التي تدعى إليها ، ويقدمها إلى الجمهور كشاعرة واعدة تبشر بعطاء شعري متميز ،

وكتب لها مقدمة ديوانها «وجد تعرّى» وقال عنها حين سمعها مرة تردد :

أنا لو كنت سماء كنت أعطيك الصفاء
أنا لو كنت بحاراً كنت أعطيك السخاء
أنا لو كنت نجوماً كنت أعطيك الضياء

«إن هذا النفس يبشر بشاعرة» وقال عن شعرها «إنه يبعث على النشوة والارتياح» وعن كلماتها «إنها حبات سكّر» .

* * *

تتجلى شاعرية ناديا نصار أكثر ما تتجلى ، في ديوانها «وجد تعرى» الذي يعد في نظري قمة ما نظمت ، فقد حافظت فيه على أوزان وبحور الخليل ، وعلى الموسيقى والإيقاع ، وعلى العفوية والصدق كما في قصيدتها «وجد تعرى» التي تقول فيها :

حبنا أجملُ من رابية تنفح عطرا
حبنا الملهوفُ للنشوة قد سلسل خمرا
وكلانا حائرُ القلب كمن يحمل سرا
ونذيب الحسَّ ألوان خيالاتٍ وسحرا

بين شعر ناديا نصار وشعر فدوى طوقان ونبيهة حداد وعزيزة هارون أكثر من وجه للشبه ، وأكثر من آصرة نسب وقربى . . . كلهن عبّرن فيه عن بوح مكتوم ، وحب عاصف ملجوم ، لم يتح له أن يتبلور ، وأن يترجم إلى واقع ملموس ، بل ظل حباً شفافاً أثيرياً :

حبنا مستعرٌ في أضلع ينضحن جمرا
وشعوراً هدهد الأحلام والآهاتُ حرى
ووجوداً خطه وجدٌ وللشعر تعرّى

وتصل إلى قمة بوحها واحتراقها في لهيب الحب حين تعرّي نفسها ، وتكشف عن الغليان الذي يستعر في ذاتها قائلة :

طفلةٌ كنت ، ثم جئتُ فعمري قصةٌ من صبابةٍ ولهيب
أنت حبي يا رقة الهدب في العينِ ويا ثورة الهوى في وجيبي
لك قلبي يفيض بالحب وبالنعمى وبالكوثر الشهي السكوبِ

وتذوب إلى حد التلاشي في عشق حبيبها والحنين إليه ، وإظهار ما تعانيه في حبها المضني من ألم ووجد وحرقة ولهفة وتوق وشرود وذهول قائلة :

أنا يا كوكبي جنحتُ لدنياك   ولحني يئن في صمت عودي
وحنيني ياشاعر الطيب مرسومٌ   بعيني ماثلٌ في شرودي
ليلي الليل . . إنه لهفتي الحرى   وتوقٌ ليومنا الموعود
أنت ليلي ، وأنت ضوء صباحي   وفنائي أنت ، وأنت وجودي

* * *

وكما أحبت وهامت في حبها ، وخابت في عشقها ، كذلك شقيت في حياتها ، واضطرت إلى أن تقطع دراستها وتعمل في شركة نفط بانياس طوال ستة عشر عاماً لتعيل والديها وإخوتها ، وقد عبرت عن شقائها ومتاعبها ومعاناتها وحرمانها وصراعها في الحياة بصدق وصراحة قائلة :

كان عمري عذابَ عمر وجيعِ
وحياتي مرت بغير ربيع
وحياتي دموع قلبٍ شجي
رب قلبٍ بكى بغير دموعِ
يا أساةَ الجراح عمري صقيع
عللوني فقد يذوبُ صقيعي
كان دفءُ الحياة عندي سراباً
عطشي ظلٌ للسرابِ وجوعي .

ولكن حياتها في مدينة بانياس ، وعزلتها ، ووحدتها في ذلك البيت الصغير المطل على البحر ، قد أوحت لها أجمل القصائد العاطفية وأرقها ، وكثيراً ما ورد البحر في ثنايا هذه القصائد ، حين تصغي لصوت أمواجه العاتية تقطع عليها هدأة الليل :

حبيبي أحسُ ابتهاجَ الحياة   كومضِ الشرارِ على مئزري
مع الشعر في دفقةِ الأغنياتِ   مع الليلِ والحبِ والسمّر
مع البحر أصغي لأمواجه   وأجلوه بالحُلُمِ المسكرِ

وأحبت الحياة قرب البحر واستطابتها ، فقد كان سميرها في الليالي الطويلة ،

ومؤنس وحدتها الخرساء :

هـذه جنتي عـلى السـاحـل الأزرق دنـيـا بـديـعـةُ الإشراقِ

أنـا لي عـالمي غـريبٌ عـلى الأرض كـما ابـتـغـي ولي آفـاقـي

أما الكفرون التي ولدت فيها ، وعاشت طفولتها بين بساتينها وينـابيعها المتـدفقة فلم توحِ لها إلا بقصيدة «عين العصفور» التي تغنت فيها بهذا المقصف الجميل الذي يستقطب مئات المصطافين كل عام ليتمتعوا بسحر مناظره الخلابة وتـدفق شلالاتـه وسط غابات من الخضرة اليانعة :

مـلعبُ الـضـوء مـدرج الأطـيـاب تلك «عـين العصفـور» مهـد شبـابي

بـين مـاء أصفى من الـدمـع جـارٍ جـريـان الخـمـور في الأعـصـاب

وغـصـونٍ مَلهـى النسيـم تـغـاوى يـا احـتـفـاء الأتـراب بـالأتـراب

يلد الشعـرُ هـاهنـا ، فـهـو خمـر عـتّقـتـهـا الأيـام مـلء الخـوابي

جنـةٌ بعض أهلهـا النـورُ والسحـرُ وكـان الجـمـالُ في الحـجّـاب

إن «عـين العصفـور» مهـدُ شبـابي هـيـكـلي ، قـبـةُ الهـوى ، محـرابي

* * *

بعد أربع سنوات من صدور ديوانها (وجد تعرى) أصدرت نـاديا ديـوانها الثاني (زمن العشق) وهو ديوان صغير أيضـاً يقع في إحـدى وسبعين صفحـة من القـطع الصغير ، قـدم له اليـاس عشي ، وقـد كتبت قصـائـده بـين عـامي ١٩٧٢ و١٩٨٢ .

يبدو من قراءة الديوان أن المرض قد أخذ يفتك في جسم ناديا النحيـل ، والهموم تزداد ، والأعباء المادية والنفسية تشتد ، فسادت قصائـدها روح تشـاؤمية ، ونـزعة سوداوية ، وسيطرت عليها فكرة الموت بالحاح :

موتي زمنُ الوصل
موتي حيث أمدّ الذكرى
بين اللحظة واللحظة ،
موتي نومٌ دافىء
تحت سماءٍ أملؤها شوقاً

لعناقِ اللحظة في الآتي . . .

فمثل هذا الايقاع الجنائزي يجعلنا ننقبض وننكمش ونحزن وندخل في متاهات الضياع . .

وتخاطب الحب والموت والجسد والعشق وطفل الموت قائلة :

يا طفل الرغبة في دمي
يا طفل الجسد المرتحلِ
يا طفل المسافة والموت
يا جسر النطفة للعبور . . .

قصائد ناديا في ديوانها (زمن العشق) بعضها من شعر التفعيلة وبعضها الآخر منثور لا يلتزم بأي قيد من قيود الشعر ، بعكس قصائدها في ديوانها (وجد تعرى) التي جاءت كلاسيكية كلها ، ومشبعة بالغنائية والرومانسية ، وحافلة بالصور والأخيلة .

وكثيراً ما تخرج في القصيدة الواحدة في «زمن العشق» عن إيقاع التفعيلة ، إلى النثرية البحتة كما في قولها :

أصبحُ أحزاناً زمنيه
أكتب بحروف النار
وأعود لحروفي الكوفيه
وأجعل عمري صلاةً لجيل
ينبع من شريان الأرض ماءً
كي يشربَ أطفالي
الفرح الآتي
من كفٍ عربيه .

يكفي ناديا أنها أعطت قدْر استطاعتها ، وجاهدت لتغدو شاعرة ، ومارست الرسم ، وأنتجت بعض اللوحات ، وصادقت الأدباء والشعراء والفنانين ، ومشت معهم في الدروب الصعبة ، وقاست ، وتحملت . وحملت صليبها على درب الجلجلة فوصلت ، لكنها لم تستطع أن ترتقي إلى القمة .

نازك العابد بيهم

(١٨٨٧ - ١٩٥٩)

حينما ألف المؤرخ محمد جميل بيهم كتابه «المرأة في التمدن الحديث» سنة ١٩٢٧ ، شاء أن يقدمه إلى الآنسة نازك العابد - التي أصبحت فيما بعد زوجته - بهذه الكلمة التي تشف عن اعجابه المبكر بها ، وبالأعمال المجيدة الرائعة التي كانت تبذلها في حقول السياسة ، والوطنية ، والأدب ، والاجتماع . . . قال الأستاذ بيهم :

«إن أنصار المرأة لتمتلىء قلوبهم جذلاً وإعجاباً ، بفئة من سيداتنا النابغات العاملات ، اللواتي صرن يضاهين نخبة الرجال بتعزيز الوطنية ، وبتحليل القضايا الاجتماعية ، وعربوناً لهذا الاعجاب ، آثرت إن أهدي كتابي هذا إلى الآنسة نازك العابد ، السائرة في طليعة تلك الفئة التي تستحق كل إجلال واحترام» .

فمن هي نازك العابد ؟ وما الأعمال الجليلة ، والمآثر الحميدة ، والخدمات العظيمة التي قامت بها خلال حياتها التي امتدت اثنين وسبعين عاماً ؟

* * *

ولدت نازك العابد في دمشق عام ١٨٨٧ ، في أسرة عريقة مترفة ، لكنها عزفت عن هذا الترف منذ نعومة أظفارها ، ولم يستهوها ما يستهوي المرأة عادة من التبرج الزائد والزينة المفرطة ، والعناية الخاصة بالمظهر .

تلقت مبادىء اللغتين العربية والتركية في المدرسة الرشدية بدمشق ، ثم في المدرسة الرشدية بالموصل ، حيث كان أبوها مصطفى العابد والياً عليها من قبل الأتراك ، لكنها كانت تتأبى على المعلمات التركيات ، حتى إنها ألفت حزباً من رفيقاتها الموصليات ، ليكن صفاً واحداً ضد المعلمات التركيات المتغطرسات اللواتي كن يغضضن من إحساسهن القومي ، وينلن من لغة بلادهن بشيء من الهمز واللمز .

درست اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية في معاهد خاصة ، ثم رأت أن تتعمق في اللغة العربية ، فترددت على شيوخ زمانها ، وتلقت عليهم الصرف والنحو وأصول الكتابة .

اتصلت بأديبة الفيحاء الكبيرة ماري عجمي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) صاحبة مجلة «العروس» التي كانت أول مجلة نسائية صدرت في سورية سنة ١٩١٠ ، واتفقت معها على العمل المشترك ضد المستعمر التركي ثم الفرنسي ، واتخذت من مجلة

«العروس» ، ومجلة «الحارس» منبراً حراً لقلمها الجريء ، وكانت مجلة «الحارس» تعنى بشؤون المرأة والمجتمع عناية خاصة .

حاولت سنة ١٩١٤ أن تؤلف أول جمعية نسائية عربية في دمشق ، لكن الحرب العالمية الأولى نشبت في شهر تموز من تلك السنة ، وتغيرت الأحوال ، فقضى ذلك على كل نشاط تقوم به المرأة ، بالإضافة إلى أن جمال باشا نفى أسرتها في السنة نفسها إلى مدينة أزمير في تركيا ، ولما طال عليها النفي ، الذي امتد حوالي أربع سنوات ، دخلت مدرسة «الفردوس» الأميركية للبنات ، وتعلمت فيها فنون التصوير والرسم والموسيقى ، كما اشتركت في أعمال التمريض والإسعاف ، حين رأت المستشفيات تغص بالجرحى ، وتعج بالمصابين من جراء الحرب .

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها سنة ١٩١٨ وتُوقّع الهدنة ، حتى عادت مع أسرتها من المنفى ، واستقرت في دمشق ، حيث راحت تبذل كل جهودها لإحياء الحركة النسوية ، والمطالبة بحقوق المرأة ، وربط مصيرها بمصير الرجل ، لاعطائها حق الانتخاب السياسي ، وحثها على المقاومة والنضال ، ولما جاءت اللجنة الأميركية لاستفتاء السوريين في انتداب الدول ، تكلمت بلسان المرأة العربية السورية ، وأيدت الاستقلال .

في ميدان الخدمة الاجتماعية

كان قلب نازك العابد يتفطر ويفيض ألماً وحسرةً على مصير بنات الشهداء اللواتي فقدن آباءهن في الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين سنة ١٩١٦ ، فانصرفت إلى العناية بهن وخدمتهن ورعاية شؤونهن ، وكان أول عمل قامت به هو تأسيس جمعية «نور الفيحاء» من سيدات دمشق وفتياتها النشيطات ، وانتخبت أول رئيسة لها ، ثم أنشأت باسم هذه الجمعية «مدرسة بنات الشهداء العربية» وتولت إدارتها بنفسها أيضاً ، ولم تلبث أن أصدرت في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ مجلة أسمتها «نور الفيحاء» ، وهي مجلة نسائية أخلاقية أدبية صدر منها تسعة أجزاء فقط ثم توقفت ، وكانت رسالتها إنهاض المرأة العربية السورية من كبوتها ، وايقاظها من سباتها ، واستدراجها إلى إبداء الرأي ، ونشر الفكر ، لتطالب بحقوقها السياسية المهضومة ، ثم توجت ذلك كله بتأسيس «النادي الأدبي النسائي» حتى وصفتها صديقتها ماري عجمي بأنها «الفتاة الاشتراكية الطافحة القلب بالآمال الكبيرة» .

وما دمنا نتحدث عن خدماتها الاجتماعية والخيرية ، فيجدر بنا أن نشير إلى مساهمتها الفعالة في إنشاء فرع للصليب الأحمر الدولي في سورية باسم «جمعية النجمة الحمراء» التي أصبحت تدعى «الهلال الأحمر» ، وقد عينت أول رئيسة لها ، كما أسندت إليها إدارة «ملجأ اليتامى» ، وحين قضت الحاجة بإيجاد دار لجرحى الحرب ، كلفت بذلك العمل ، ووضعت حجر الأساس لمستشفى يضم مئة سرير ، ولما انتهت من بنائه ، اختارت بنفسها أطباءه وممرضيه وموظفيه ، أفلا يحق لنا بعد أن نطلق عليها اسم «فلورانس نايتنجيل» العرب ؟ .

حاربت في طليعة الجيش العربي السوري ضد الفرنسيين ، وخرجت إلى ميسلون مع وزير الحربية آنذاك الشهيد يوسف العظمة ، وعندما جُرح أسلم الروح بين يديها ، لذلك منحتها حكومة الملك فيصل الأول رتبة نقيب فخرية في الجيش ، فكانت تتفقد الجنود بثوبها العسكري ، وكلها ثقة واعتداد وإيمان برسالتها .

ابّان فترة الانتداب الفرنسي

حين احتل الفرنسيون سورية ، على أثر موقعة ميسلون ، وخروج الملك فيصل الأول منها ، بقيت نازك العابد شوكة في أعينهم ، تناوئهم ، وتؤلب عليهم القلوب ، لذلك لم يجدوا بداً من إبعادها ونفيها ، وفعلاً نفيت ثلاث مرات بين سنتي ١٩١٤ و١٩٢٢ فذهبت في المرة الأولى إلى ازمير وفي المرة الثانية إلى استنبول واستفادت من فرصة وجودها فيها ، فدخلت الكلية الأميركية للبنات ، واستأنفت دراسة اللغة الأنكليزية ، ونفيت في المرة الثالثة إلى الأردن ، فاختارت عمان مقراً لها ، ولما سُمح لها بالعودة إلى دمشق عادت بشرط أن لا تقوم بأي نشاط سياسي معاد للفرنسيين ، فتظاهرت بالانصراف إلى العمل الزراعي وخدمة الأرض في إحدى ضواحي دمشق ، فاختلطت بالفلاحين ، وصارت القدوة الحسنة لهم ، تستفيق باكراً مع بزوغ الفجر ، وتعمل معهم جنباً إلى جنب ، ويداً بيد كأي واحد منهم .

وما إن نشبت الثورة السورية الكبرى على الفرنسيين في كل مكان ، حتى وقفت إلى جانب ثوار غوطة دمشق ، وراحت تقوم بدور الجندي المجهول ، تتنقل تحت جنح الليل من جريح إلى جريح ، وتقدم المساعدات من أموالها الخاصة لأسر المنكوبين ، متنكرة حتى لا ينكشف أمرها .

في بيروت

عندما اقترنت بالمؤرخ اللبناني محمد جميل بيهم ، انتقلت إلى بيروت ، حيث أسست جمعية «عصبة المرأة العاملة» ثم جمعية «اخوان الثقافة» بالاشتراك مع زوجها ، ثم جمعية «تأمين العمل للاجئي فلسطين» ، وقد أصبحت هذه الجمعية مؤسسة ثابتة لها موازنة سنوية تأتي من تبرعات المحسنين ، وكان من ثمارها أيضاً تأسيس ميتم لبنات الشهداء في لبنان ، ومدرسة لتلقينهن العلوم الابتدائية والخياطة والتطريز والضرب على الآلة الكاتبة ، بالاضافة إلى ناد أدبي ومكتبة . . . كما اشتركت في عدد من المؤتمرات النسائية الوطنية في سورية ولبنان ومصر ، والمؤتمرات النسائية العالمية .

لم تترك السيدة نازك العابد أي كتاب مطبوع يمكن الرجوع إليه ، لكنها تركت كثيراً من الخطب والمقالات المنشورة في مجلات العروس ، والحارس ، ونور الفيحاء وغيرها ، لو جمعت لألفت كتاباً كبيراً .

كذلك لم ترزق أي ولد ، لكنها احتضنت تربية عشر فتيات في بيتها ، وقامت بتهذيب مئات الفتيات من بنات أمتها ، وقد ظلت مثالاً للمرأة العاملة النشيطة الدؤوبة حتى ختم الموت حياتها ، ووافتها المنية صيف عام ١٩٥٩ في بيروت .

نبيهة حداد

عرفت مدينة اللاذقية خمس شاعرات ، بعد فتاة غسان (فاطمة سليمان الأحمد) التي نظمت الشعر في مطلع حياتها ، ثم عزفت عنه وتركته لأخويها أحمد ومحمد (بدوي الجبل) وهؤلاء الشاعرات هن : عزيزة هارون ، وهند هارون ، ونبيهة حداد ، وفاطمة حداد ، ومها غريب ، أما دعد حداد فقد كتبت مقطوعات نثرية وجدانية ، ولم تشتهر كشاعرة .

* * *

ولدت نبيهة حداد في اللاذقية عام ١٩٢٠ ، في أسرة مثقفة معروفة ، وكانت منذ طفولتها تميل إلى الشعر ، لتبثه همومها وأحزانها ، ولكنها بعد أن أخفقت في زواجها مرتين ، صارت في أمس الحاجة إليه ، لتفرغ فيه شحنات الشوق الدفين ، والوجد اللاهف التي تعصف بنفسها الشاعرة ، وتستودعه أحلامها السرابية الخائبة ، وشعورها باليأس والمرارة لعلها تنسى لوعة الأسى ، وشقاء الحرمان .

عملت نبيهة في التعليم ، مع أنها لم تكن تحب تلك المهنة الشاقة التي جففت ينابيع إلهامها ، وحدت من إبداعها ، وبعثت فيها الملل والسأم كما تقول :

صرفت جهدي على التدريس فانصرفتْ عني عرائس شعري وانتهى حالي
فأين أنتِ حروفٌ كنت أبدِعُها وأين أغنيتي ولّت ومَوّالي ؟

لكنها مع ذلك واصلت دراستها الجامعية ، حتى تخرجت في قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٦٧ ، واستطاعت رغم المرض أن توفق بين الدراسة والوظيفة وتربية الأولاد ونظم الشعر ، فكان أن أرهقت قلبها الضعيف ، وحملته فوق ما يطيق ، فتوقف عن الخفقان في أيلول عام ١٩٧٧ ، وهي في ريعان الشباب ، وأم لعدة أطفال .

عرفتُ الشاعرة نبيهة حداد في اللاذقية في منتصف الستينات ، وهي مديرة لاعدادية «خولة بنت الأزور» ، واستمعت إليها وهي تنشد شعرها العاطفي والوصفي في «نادي الجهارك» باللاذقية أمام حشد كبير من محبي هذا الشعر ، فكان يقابل بالتصفيق والاستحسان ، لأنها كانت شاعرة موهوبة ، وفنانة أصيلة مبدعة .

زارتني يوماً في عملي بمجلة «المعلم العربي» بوزارة التربية ، وقدمت لي ديوانها «أزهار ليلك» الذي طبعته عام ١٩٧٠ في الإدارة السياسية ، وكانت يومئذ تسعى للانتقال

إلى دمشق التي استوطنتها أسرتها ولم يعد لها في اللاذقية أي ارتباط غير الوظيفة ، وما زلت أحتفظ بنسخة من قصيدتها «استدعاء» التي قدمتها إلى وزارة التربية ، وقد كتبتها لي بخط يدها ، تقول فيها :

أتيتكمْ أرتجي نقلي إلى عملٍ ... يناسبُ الشعرَ والآدابَ في الحالِ
إذ تعلمون بأني خيرُ شاعرةٍ ... نذرتُ للناسِ أقوالي وأفعالي
ففي «الثقافةِ» و«الإعلام» نافذةٌ ... يطلُّ منها على الآفاق أمثالي

ولكن «استدعاءها» لم يلق أذنا صاغية ، وماتت بعد ذلك فريسة لليأس والقهر واللامبالاة ، وفي قلبها أكثر من غصة ، وفي عينيها أكثر من دمعة حارة .

* * *

ضم ديوان «أزهار ليلك» أربعاً وثلاثين قصيدة من الشعر الوجداني الرقيق الذي عبرت فيه عن معاناتها وهمومها وحرمانها وأشواقها بصدق وعفوية ، فقد كانت تصبو إلى «يوتوبيا» من نسج أحلامها المجنحة ، وتتطلع إلى عالم يسوده الحب والتفاهم والحرية وتسعى إلى التفلت والانطلاق من القيود التي وضعها المجتمع في طريقها ، فلا تواجه إلا بالصد وخيبة الأمل :

كل ما أملك أحلامٌ وواحاتُ تمنِ . .
أشربُ الدفءَ على الظنِ ، فقد يدفيء ظني
أغزِلُ الشوق أحاسيساً ، وأبكي وأغني
أتناسى لوعةَ الحرمانِ في طفرةِ لحنِ
أحملُ الصحراءَ في قلبي ، وفي مقلةِ عيني

لقد كان هناك حلقة ضائعة تبحث عنها بلهفة ، شيء مفقود من حياتها ، لعله الحبيب الذي يمكن أن يملأ دنياها بالحب ، ويغمرُها بفيض من العطف والدفء والحنان فلا تجده ، فترتد بأسى وانكسار إلى كهوف ذاتها ، وهي تشعر بالقنوط والحرقة والمرارة :

حملت وجدي وحرماني بملءِ يدي ... واللهُ يعلمُ ما ألقى من الغبن
غنيتُ : يا ليلُ ، يا عيني على شجني ... لمن أغني ، لمن أشكوكَ يا زمني ؟
نامت جفوني ، وظلُ الوجد في هدبي ... وحار قلبيَ بين الصحوِ والوسنِ

وعشت أزجي الليـالي الداجيـات أسىً ‏‏ وهــان عمـري عــلى دهــري ولم يهنِ
عــلّي أرى في مـتــاهِ الغـيب لي أمــلاً ‏‏ ضـلـتْ خـطـاهُ عــلى دربي فـلـم يَـبِـنِ

لعـل أجمل قصـائدهـا الغنائيـة التي سمعتها منهـا ، وكـانت تـترنم بهـا ، وتعـتز بانشادها في الأمسيات الشعرية التي تدعى إليها ، قصيدة «واحة» ، وما هذه الواحة في الحقيقـة إلا نفسها القلقـة عندمـا يجفوهـا الحبيب ، ويستعر في أحشـائها الـوجد والألم ، وتتمرد الجفون على النوم ، ويحرن القلب ، فلا يقـر لها قـرار ، في حين أوى جميع الناس إلى مخادعهم ، وغطت الطيور رؤوسها بأجنحتها لتنام :

يا نديمي نشرَ الليلُ على الكونِ وشاحهْ
وحنا النومُ على كلِ خلي فأراحهْ
هدأ الناسُ ، ولفَّ الطيرُ في العش جناحهْ
ويحَ قلبي ، ما لآلامي لا تبغي براحه
يكتمُ الوجدَ عن الناسِ ويجترُّ جراحهْ
إيهِ يا صحراءَ عمري ، ليس في مسراكِ واحهْ
يجد الظامىءُ فيها الماءَ والمتعبُ راحهْ

وإذا مـا وصفت البحـر ، وهـو عـلى مـرمى حجـر منهـا ، فلكي تعكس صـورة اتساعه ، وصخبه ، وعمقه ، على نفسها ، إنه ضائع في الكون كضياعها ، وشـارد كشرودها ، وسطحه المرتعش كارتعاش وجهها الملتاع :

أنتَ نفسي ، أيها البحرُ ، إلى أعمقِ قاعِ
سطحكَ الراعشُ وجهي ، شفَّ عن بعض التياعِ
ضِعتُ في تيهكَ يا بحرُ ، وأحببتُ ضياعي

وإذا ما أتعبها السرى وحدها في الـدروب الموحشـة بلا صـديق ، وشعرت بـأنها ضائعة تائهة كتلك السفن التي تمزقت أشرعتها ، وراحت تتقاذفها الـرياح الـطائشة وسط الأعاصير ، وقد هجر الأحبـة دارها وتفـرقوا عنهـا ، عادت إلى جـارها البحـر لتستمد منه صورها الجميلة وأخيلتها الفاتنة قائلة :

وحدي أطوف على الدروب بلا صديق
من أنتِ يا بنتَ الضياع ؟
سفناً ممزقةَ الشراع
والبحر إعصارٌ قوي هادرُ

لا تبحثي عما أضاع الخاطرُ
عودي إليّ ولا تغيبي
وليحترقْ قلبي وقلبك باللهيبِ .

وهي جريئة ، في غزلها ، لا تعرف فيه الخوف والتردد والوجل ، تحب حبيبها حتى العبادة ، تريده قوياً ، في ساعديه نضال الحياة ، وعنف المعاول :

أحبُ حبيبي
أغني له
وينصتُ لي
وتحنو يدي
كحلم ندي
على شعرهِ الأجعدِ
أحبُ حبيبي وحبي له كالعباده
وتَوْقي له لا يُحَدّ
وفي شفتيه عبيرُ السنابلْ
وفي ساعديهِ نضالُ الحياةِ وعنفُ المعاولْ .

كذلك تنشد الحرية المطلقة والصراحة الكلية في الحب ، تتمنى لو تهرب من أسر العادات والتقاليد الاجتماعية البالية ، وتقتلع جذورها من تربة هذه الأرض التي تشدها إليها بعنف ، وتحيا طليقة من كل قيد ، كما الزهر الطافي على سطوح الجداول والأنهار :

أتمنى يا حبي
لو كنتَ إلى قربي
ترتاح إلى صدري
وتنامُ على زندي
وأداعب شعركَ في ودّ .
أتمنى ، ماذا ؟ لا أدري
أتمنى بعضاً من عمري
لو أهرُبُ فيه من أسري
قدماي ، جذوري في الأرض

لو يُقتلعُ الجذرُ
لو ينسفحُ الفكرُ
لو أحيا كالزهر الطافي
في سطحِ النهرِ الشفاف

وهي أيضاً لا تعرف الكتمان في الحب ، فإذا غدر بها الحبيب ، سهرت الليالي ، وعشيت عيناها من طول البكاء ، وشعرت بأن عمرها صار عقيماً لا معنى له ، تحاول أن تنسى ولكن عبثاً ، لأن الحب ترك في قلبها جراحاً دامية لا تندمل :

وقالوا : أحببْتُ ، ولا أنكرُ
وقالوا : تهيمُ ولا تصبرُ
وفي نفسها أملٌ أخضرُ
وتمضي السنون ولا أشعرُ
ويغدر بي الجاحدُ الأسمرُ
أمنْ أجلِ هذا أنا أسهرُ ؟
وتعشى عيوني ، فلا أبصرُ
وأغرسُ عمري ولا يثمرُ
وقالوا : ستنسى ، ولا أقدرُ
وفي داخلي عاصفٌ يهدُرُ
وجرحٌ يثورُ ولا يفتُرُ .

وكثيراً ما يعصف بقلبها الوجد فتثور ، وتحس بالوحدة الموحشة ، والعزلة الخانقة فتنتفض ، وبالأغلال تقيدها فتصرخ بالحبيب من فرط الألم :

لا تقتربْ
أحسُّ أني ألتهبْ
مغلولةَ اليدين والشفاه
وليس لي اله !

الحب في قاموسها إذن حرية وانطلاق لاحدود لها ، دنيا من الود والتفاهم والصفاء لا أثر فيها للحقد والبغض . الحب أن يعانق الحبيبان الأزهار في الحقول ، ويجريا في الغابات بلا قيود ، ويعيشا لحظات العمر بلا سهد أو أرق :

الحب ؟ أتدري ما الحب ؟

أن تجري في الغابات بلا قيدٍ
تتسلق أشجاراً
وتعانق أزهاراً
أن تحيا لحظاتِ العمر
وتنام بلا سهدٍ .
الحب إلهٌ موجودٌ في أعماقِ القلب
في ضمةِ أيدينا
في آفاق الدربِ .

* * *

إذا تركنا الجانب الرومانسي في شعرها الوجداني ـ وهو الجانب الأكبر والأهم ـ طالعتنا بعض القصائد التي تدعو فيها إلى السلام والمحبة والعدالة بين بني البشر :

أيها الانسان قمْ
وازرعِ الأرض سلاماً وعدالهْ
ما السلام ؟
ما العداله ؟

وتشفق على انسان القرن العشرين ، الذي يتخيل أحلاماً أسطورية ، ويبحث عن الحرية في كل مكان فلا يجدها ، ويتحدث عن الحب ، وهو لا يملك قلباً ليحب به :

إنسانُ العصرِ شقيٌ مسكينْ
يتخيلُ أحلاماً أسطوريهْ
ويفتشُ عن حريهْ
ويتحدث في الحبِ
ويعيش بلا قلبِ
انسانُ العصرِ شقيٌ مسكينْ
انسانُ القرنِ العشرينْ .

لقد آمنت نبيهة حداد بمبدأ النضال الوطني ، وضرورة الكفاح والالتزام بقضايا

الشعب لتحقيق الاشتراكية الانسانية ، فهي تنتظر ذلك اليوم الذي ينال فيه الكادحون حقوقهم ، ويجنون ثمرة أتعابهم ، ويحصلون على مكاسبهم :

أيها اليومُ الحبيب
أنا في دربكِ نشوى
مع شعبي أنتظر
في فمي أنشودةٌ مشرقة
وبنفسي أمل
ودمي منفعل
بيدي حطمت قيدي ومشيت
ومعي تمشي الملايين إليك . . .
حينذاك سوف تحيا
أمتي
في سلام ، حرةً من كل قيدِ
أيها اليومُ الحبيب .

وهي لا تقف شعرها كله على حبيبها ، وحده بل تكرس جزءاً منه لملايين المعذبين والمسحوقين والمضطهدين ممن تكوي الشمس جباههم وجلودهم في المرافىء والمصانع والحقول ، ويهلكون جوعاً ، ويقتلون كل يوم في المنافي والسجون ، ليس في بلادها فحسب ، بل في العالم كله :

وأنا أيضاً أحبُ
ليس أنتَ
أنتَ وحدك
بل ملايين الذين يعملون
في المرافىء
والمصانع
والحقول
ليتني أطعمُ قلبي للملايينِ الذين
يهلكون جائعين
في بلادي وفي غير بلادي

ليتني أمنحُ أنفاسي أنا
للذين
يُقتلون
كل يوم في المنافي والسجونْ .

* * *

كانت نبيهة حداد شاعرة مرهفة الشعور ، صادقة في التعبير عن أحاسيسها الذاتية والاجتماعية ، سعت إلى التجديد في كل ما كتبت من قصائد ، وقد أمدتها حياتها القلقة بفيض لا ينضب من المعاني الجريئة التي لم نألفها في شعر المرأة من قبل .

كان شعرها مرآة دقيقة لكل ما عانته في حياتها القصيرة من ألوان العذاب والصد والتنكر ، ومن المؤسف أن شعرها لم يجمع حتى الآن ، ولا تزال قصائدها موزعة في الصحف والمجلات ، كالأديب ، والآداب ، والثقافة ، ودنيا المرأة ، والنصر . . . وبعضها لم ينشر في أي مكان ، وما زال محفوظاً عند أسرتها .

* * *

نجلا أبي اللمع معلوف

(١٨٩٥ - ١٩٦٧)

ولـدت الأديبة السيـدة نجلا أبي اللمـع في بلدة برمـانا (لبنـان) عـام ١٨٩٥ ، وتتلمذت على يدي الخوري بطرس البستاني مـدة سنتين ، بعـدما أغلقت المـدارس أبوابها على أثر نشـوب الحرب العـالمية الأولى ، ولمـا وضعت هذه الحـرب أوزارها ، أشار عليها أستاذها البستـاني بإصـدار مجلة تشع نـور العلم والمعرفـة ، بعد الـظلمة الفكـرية التي اجتـاحت البلاد ، فـأصدرت عـام ١٩١٩ مجلة «الفجر» التي عـاشت ست سنـوات ، إلى أن سافـرت إلى الولايـات المتحدة الأمـيركيـة ، حيث تـزوجت الأديب يـوسف نعمان المعلوف صـاحب جريـدة «الأيام» التي كـانت ثالث جـريـدة صدرت في أميركا الشمالية ، ومؤلف كتابي «خزانة الأيام» و«أسرار يلدز» .

* * *

ظـل هاجس الصحـافة يؤرق الأمـيرة نجلا وهي في المهجـر ، فأعـادت إصدار مجلة «الفجر» في كندا بـاللغتين العـربية والإنكليـزية ، لكن الجـو لم يكن ملائـماً فأوقفت المجلة بإشارة سن الدكتور يوسف حتي ، وانضمت إلى أسرة تحريـر جريـدة «الهدى» لنعوم مكرزل ، وراحت تكتب تعليقـاتها الأسبـوعية تحت عنـوان «أفضل مـا قرأت وتعالج مشكلات الوطن الـذي أحبته وحملت همـومه إلى نيـويورك ، وقـد ظلت تمد الهدى بمقالاتها وتعليقاتها الأدبية والسياسية حتى عودتها إلى لبنان عام ١٩٤٥ .

* * *

لم تكن مجلة الفجر مجلة نسائية بحتة شأن مجلات : «المرأة الجديدة» لجوليـا طعمة دمشقية ، و«العروس» لماري عجمي ، و«الخِدْر» لعفيفـة صعب ، و«منيرفـا» لماري يني ، بل كانت مجلة أدبية جامعة ، تهتم بالأدب والشعر ، وكانت مي زيادة توافيهـا شهرياً في باب «بريد القاهرة» برسائل أدبية تتميز بأسلوبها النقدي وحسها النـاعم ، وكان هناك باب للتدبير المنزلي تكتبه شقيقتها أسما ، وقصة مـترجمة متسلسلة ينقلهـا عن الفرنسية أخوها توفيق أبي اللمع ، ومقتطفات وأخبار عالميـة . . . وكان نصـير المرأة جرجي نقولا باز ، ومحمد جميل بيهم يقفان إلى جانبها دائماً ، ويمدانها بمقالاتهـا التي تدور حول كفاح المرأة العربية ونضالها وإنصافها ونيل حقوقها .

حين عادت الأميرة نجلا أبي اللمع إلى لبنان أقامت لها جامعة الهيئات النسائية حفلة تكريمية قلدها فيها رئيس الوزراء الأستاذ الداعوق وسام الاستحقاق برتبة فارس ، فألقت أميرة المنابر يومئذٍ خطبة شكرت فيها الحكومة على إنعامها الرفيع ، كما شكرت صديقتها ابتهاج قدّورة على بادرتها الطيبة وقالت : «إن الثقة التي أولتني إياها الحكومة اللبنانية ، هي في عيني فوق رموز الأوسمة ، ومعاني الشارات ، ويكفيني فخراً أن هذه البادرة النبيلة قد صدرت بمساعي أختي المرأة التي لها في كفاحها المستمر حياة مثالية يُقتدى بها في مقاييس الهمم والنفوس ؛ تتلاقى عندها ثقة الرجل ومناصرته لها لتأدية رسالة وطنية ، وإنها لرسالة غالية» .

كانت نجلا أبي اللمع مع رفيقاتها جوليا طعمة دمشقية ، وسلمى صائغ ، ونازك العابد بيهم ، ولبيبة ثابت ، ولودي سرسق ، وأمينة الخوري المقدسي ، وهدى ضومط ، وابتهاج قدّورة ، وماري يني ، وعنبرة سلام الخالدي في طليعة نساء لبنان اللواتي وقفن جبهة واحدة لتشجيع المنسوجات الوطنية ، وأقسمن ألّا يضعن على أجسادهن إلا الثياب المنسوجة في لبنان والبلاد العربية ، وألا يقدمن لزوارهن إلا السكاكر الوطنية .

* * *

في عام ١٩٢٠ أقيم في الجامعة الأميركية ببيروت حفلة تذكارية بمناسبة مرور مئة عام على وفاة المعلم بطرس البستاني ، وكانت الحفلة تحت رعاية وزير الحربية السورية يوسف العظمة تكلم فيها ستون خطيباً كانت نجلا واحدة منهم ، وبعد انتهاء الحفلة تقدم منها الوزير وهنأها وقال لها : «أنا فخور بأن يكون في بلادي سيدة على هذا المستوى من الفصاحة والبيان ! هل أستطيع القيام بأي خدمة ؟ وكان أخوها رئيف يومذاك أسيراً في دير الزور ، فانتهزت الفرصة وطلبت منه الاستعلام عن أحوال أخيها ، فقال لها باهتمام : «عودي إلى بيتك ، وسأوافيك بالجواب بعد أربع وعشرين ساعة ، وقبل مرور ثمان وأربعين ساعة كان أخوها يطرق باب المنزل ، دون أن يدري كيف ومن أطلق سراحه . . .

بعد شهرين من تلك الحادثة استشهد يوسف العظمة في موقعة ميسلون ، فحملت مع شقيقها إكليلاً من الورد ووضعته على قبره في ميسلون باسم مجلة «الفجر» ، وفاء للشهيد العظيم الذي قدّم روحه فداء للوطن .

نديمة المنقاري

(١٩٠٤-١٩٩٢)

إذا كانت الآنسة ماري عجمي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) تعد رائدة الصحافة النسائية الأولى في سورية ، لاصدارها مجلة «العروس» عام ١٩١٠ ، فإن السيدة نديمة المنقاري تعد الرائدة الثانية بلا شك ، إذ أصدرت مجلة «المرأة» عام ١٩٣٠ ، بعد أن توقفت مجلة العروس بخمس سنوات ، وقد كانت مجلة المرأة امتداداً لمجلة العروس في حمل رسالة المرأة العربية لتحريرها من ظلم الجهل والتخلف ، وقيود العزلة والعبودية التي فرضت عليها قروناً طويلة .

* * *

ولدت السيدة نديمة عمر المنقاري في حلب عام ١٩٠٤ ، وتلقت تعليمها في مدرسة الأرمن الكاثوليك ، فأتقنت فيها اللغة الفرنسية ، ولما تخرجت من دار المعلمات عام ١٩٢٦ عينت في حماة ، حيث أصدرت مجلة المرأة ، ثم انتقلت بها إلى حلب ، ولكنها لم تعش طويلاً ، فتوقفت عن الصدور حتى عام ١٩٤٧ ، حين صدرت من جديد في دمشق «شهرية مصورة للثقافة والأدب والفن» ، بالاشتراك مع الأستاذ حمدي طربين ، صاحب مطبعة «الهلال» بسوق الحميدية ، واستطاعت أن تشق طريقها رغم الصعوبات الجمة التي واجهتها .

تقول السيدة المنقاري في افتتاحية العدد الأول الذي صدر في شهر نيسان عام ١٩٤٧ تحت عنوان «المجلة بين ماضيها وحاضرها» : «وإذا قُدّر لهذا لصوت أن يخفت حيناً ، فلأنه كان غريبا وجديداً ، والغريب الجديد في نظر الناس هدف للخصومة والمقاومة» .

«لقد كانت مجلة المرأة بارقة فكر لمعت في جو خاص ، وأشرقت في وسط خاص ، فلما أتيح لنورها أن يمتد إلى أفق أوسع ، لقي من المصاعب ما حد من سيره فارتد وانحسر ، لا ليخفت إلى النهاية ، بل ليتركز ويقوى ، وها قد توفرت له العوامل الآن ، فأخذ ينبثق من جديد بادي الأثر ، قوي الاشراق ، ذلك لأن رسالة المرأة في الحياة قد أخذت تتميز بطابع جديد» .

ويبدو من كلام المنقاري التالي أن ضيق نظرة المجتمع إلى المرأة ، كانت أحد الأسباب الجوهرية التي أدت إلى توقفها في الفترة الأولى إذ تقول : «لقد كانت السنوات التي مضت كفيلة بأن تغيّر نظر الناس إلى المرأة ، ونظر المرأة إلى نفسها ،

ونظر الناس والمرأة إلى الحياة» .

وتنهي افتتاحيتها بمخاطبة المرأة قائلة : «وبعد ، فهذه مجلتك أيتها المرأة الفاضلة ، فيها صوتك الذي لايخفت ، واتجاهك الذي لا يخذل ، وطريقك الذي لا ينقطع ، وانك ستتخذين منها منبراً حراً للفكر والمفكرين ، وغذاء ثقافياً يرمم نقصنا الأدبي ، وفقرنا إلى المعرفة» .

يفهم من هذه الافتتاحية أن السيدة نديمة المنقاري كانت تسعى جاهدة إلى زج المرأة في مضمار النهضة الحديثة ، ودعوتها إلى رفع صوتها ، وتمسكها بالفضيلة والخلق القويم لتأمن الطفرة ، ولا تنزلق في مهاوي المدنية الغربية التي أخذت تذر قرنها في المجتمع العربي ، ولذلك آلت على نفسها أن تتناول في صفحات المجلة الأربعين مشاكل المرأة ومهمة تثقيفها ووضعها في الحياة الاجتماعية ، وتضمنها دروساً عملية وأبحاثاً متعددة في فن تدبير المنزل وإدارته مما تتطلبه كل امرأة .

ولكي تزداد خطوتها وثوقاً ، أخذت تستفتي في العدد الثاني من المجلة كبار رجال الأدب والفكر حول ضرورة أن تكون هناك مجلة للمرأة ، وتدعم موقفها بآرائهم مثل : الأمير عادل أرسلان ، وخليل مردم بك ، وشاكر الحنبلي ، وسعيد حيدر ، وتسألهم ما إذا كان للمرأة العربية حق مغصوب يجب أن تطالب به ، وأي طريق يجب أن تسلك في فجر نهضتها ، المدنية الغربية المعاصرة ، أو طريق المدنية الشرقية ، لتصل إلى مايناسب طبيعتها ، ويحقق مثلها ؟

وقد أجمع كل من استفتتهم على أنه يحسن أن يكون للمرأة السورية مجلة ، لأن المجلة هي المدرسة الثانية التي تعين على تقدم النهضة الفكرية ، بما تنشره من مقالات ، وتبثه من آراء تثير بها الرأي العام ، وتوجهه توجيهاً صالحاً .

لقد سدت نديمة المنقاري فراغاً كبيراً بإصدارها مجلة المرأة ، إذ فسحت المجال أمام المرأة لاظهار مشاعرها ، ومعالجة مشاكلها ، والمطالبة بحقوقها ، واستطاعت بفضل هذه المجلة الرائدة بعث نهضة نسائية تقوم على أسس من العلم الصحيح والخلق المتين ، وحفزت عدداً من الكاتبات إلى أن يشرعن أقلامهن ، فكان منهن آنذاك : نجاح العطار ، ومنيرة علي المحايري ، ونعيمة المغربي ، وعفيفة الحصني ، وثريا الحافظ ، وفاطمة الجيوشي ، وليلى البكري ، وحورية الخطيب ، ونوال سعيد ، وعناية رمزي ، وثريا كرد علي ، وبراءة القوتلي ، وزائدة جانا ، وسميحة المصري ، ومعزز البيانوني ، ورئيفة الناشد ، ونوجهان الحسني ، وجمانة العطار ،

وسهيلة زكية ، وبلقيس عوض ، وخديجة شقير ، وسهام عربي كاتبي ، ووفيقة العسلي ، وأسماء الشهابي ، وعصام صبري وغيرهن ، فأكمل بعضهن طريق الأدب ، كنجاح العطار ، وعفيفة الحصني ، وثريا الحافظ ، ونعيمة المغربي ، وعصام صبري ، وتوقف بعضهن الآخر في أولها ، وهذا الحشد من الأسماء ، إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن مجلة المرأة تبنت ابداع هؤلاء الكاتبات ، وأخذت بأيديهن ، وفتحت لهن الأبواب ، لينطلقن إلى مجالات أرحب وأوسع .

وكما اهتمت في مجلتها بحثّ المرأة على التعلم ، ونيل حريتها ، والمطالبة بحقوقها ، وتشجيعها على القيام بأعباء الحياة العملية ، وفتح مجال الأعمال الحرة أمامها ، لتمكنها من ملكة الاعتماد على النفس ، كذلك اهتمت فيها بالصحة والجمال ، والأزياء ، والتفصيل والخياطة ، ومشاكل الأسرة والبيت ، وفن الطبخ ، وأشغال الإبرة ، والتسليات . . . .

لقد كتبت السيدة نديمة المنقاري في مجلة المرأة عام ١٩٤٧ ست مقالات تحت عنوان «المرأة في قافة الحضارة» تناولت فيها مكانة المرأة في الحياة ، وسيرها في قافلة الحضارة ، وبينت الأسباب التي أدت بها إلى شلل فعاليتها في الماضي ، وأثر المدنية الحديثة في نهضتها وحياتها ، وصولاً إلى الحديث عن مكانة المرأة السورية في المجتمع .

تعتقد الكاتبة أن المرأة لم تستكن عن استخذاء ، ولم تنم عن خور ، وإنما وجدت في ظروف خاصة مثقلة بالقيود ، وأحيطت بمشاكل صرفتها عن الوعي والتفكير في الواقع . . . وقد أوتيت من نعمة العقل ، ورهافة الحس ، وحدة التفكير ما أوتي الرجل . . . وهي في تكوينها الجسمي لا تختلف عنه إلا بمقدار اختلاف وظيفتها في الحياة .

كانت المرأة ضئيلة الأثر في تكوين الحياة قديماً ، لأنها كانت قابعة في زاوية تتولى الحضن والنسل ، في حين كان الرجل يعمل للعيش والكفاح ، فيغزو ويتطاول . . .

وكان لانتشار الطباعة والصحافة أثر بارز في نهضة المرأة الجديدة ، فقد غزت الصحف والمجلات كل بيت ، و«فهمت المرأة من حقيقة نفسها ما كانت تحتاج في فهمه إلى الوقت الطويل» .

ولما أخذت المرأة مكانها في المجتمع ، نهضت إلى الاهتمام بشؤون الوطن ،

فصارت «تترصد أحواله ، وتتلمس مشاكله ، وتتقرى آلامه . . . وأصبحت تجد من واجبها أن تؤازر الوطن حين تجب المؤازرة ، وأن تعمل لأسرتها الكبيرة الواسعة ، مثل الخير الذي تعمله لأسرتها الضيقة المحدودة» .

وتنهي نديمة المنقاري مقالاتها بمقالة «المرأة السورية في المجتمع» التي تؤكد فيها «أن المرأة السورية أهل للتفكير والبحث ودراسة المشاكل ، وأنها تبني محاكمتها على العقل ، وهي حين تنصّب نفسها للبحث ، تبقى بعيدة عن جنو العواطف الخاصة . . . ولئن زعم نفر أن المرأة أسيرة عواطفها ، وأنها تسخّر المنطق لهذه العواطف ، ففي زعمهم الكثير من الغلو . .

لقد أصبحت المرأة السورية تمتلك من الوعي القومي ، ومن تفهّم المسؤولية ، ما يجعلها جديرة بتحمل أعباء مقدّراتها ، ومشاركة الرجل في مصير البلاد» .

* * *

إذا كانت السيدة نديمة المنقاري لم تواصل الكتابة بعد أن توقفت مجلتها نهائياً ، فقد عوضت عن ذلك بالنشاط المدرسي الذي كانت تبذله في المدارس التي كانت تديرها أو تعلّم فيها ، مثل إقامة المعارض الفنية ، وإدخال رقص السماح كلون من ألوان النشاط الفني ، وإلقاء المحاضرات والأحاديث الأدبية والاجتماعية في إذاعة دمشق .

كما كانت تعقد الندوات الأدبية والفكرية في منزلها بحلب ، فأحيت بذلك ذكر صالون مواطنتها الشاعرة مريانا مراش (١٨٤٨ - ١٩١٩) التّي سبقتها إلى هذا العمل ، وقد انتخبت الأم المثالية في الستينات ، وكرمت في حفلات تكريم المبدعين في محافظة حلب عام ١٩٨٢ .

هدى شعراوي

(١٨٨٢ - ١٩٤٧)

ولدت في «المنيا» بمصر عام ١٨٨٢ ، وتربت في القاهرة ، حيث استطاعت أن تحظى بأرقى أنواع التربية في ذلك العصر ، ولما لم يكن هنالك مدارس نظامية للفتيات المسلمات ، فقد جاء لها أهلها بمعلمات خصوصيات تلقت عليهن العلوم المعروفة والموسيقى ، واللغتين التركية والفرنسية .

تزوجت وهي صغيرة من علي شعراوي ، فرزقت ولدين هما «محمد» و«بثينة» ، لكنها لم تنعم طويلاً بحياتها الزوجية ، فقد توفي زوجها في ١٤ آذار سنة ١٩٢٢ ، وكان أول رئيس للوفد المصري الذي سافر إلى فرنسا سنة ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال بعد الثورة المصرية المعروفة ، كما كانت هي أول امرأة خرجت في القاهرة في تظاهرة نسائية بالملاءات ، احتجاجاً على وجود الانكليز في مصر ، وقد وصف الشاعر حافظ ابراهيم هذه التظاهرة يومئذ بقوله :

خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهنه
وأخذن يجتزن الطريق ودار «سعد» قصدهنّه
وإذا بجيشٍ مقبل والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه

اهتمت بالقاء المحاضرات على النساء المصريات ، فدعت الآنسة «كليمان» سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٤ لتلقي محاضرات في بيتها ، ثم في الجامعة ، فاستطاعت هذه المحاضرات التي استمرت فترة من الزمن ، أن تمهد لظهور الحركة النسائية في مصر والوطن العربي التي قادتها السيدة شعراوي .

عندما دعا الاتحاد النسائي الدولي جماعة السيدات المصريات إلى تمثيل مصر في مؤتمر جنيف سنة ١٩٢٠ ، لم تستطع هدى شعراوي أن تشترك فيه لأسباب عائلية ، ولما أعيد عقده في روما سنة ١٩٢٣ سافرت إليه على رأس وفد مؤلف من سيزا نبراوي ، ونبوية موسى ، فكان لخطاب الوفد تأثير كبير في تغيير نظرة الأجانب إلى المرأة العربية التي كانوا يظنون أنها ما تزال تعيش حياة مجتمع «الحريم» . وبعد أن عاد الوفد إلى مصر ، سافرت هدى إلى باريس وأخذت تنشر في صحفها المقالات الطويلة عن رقي المرأة المصرية بخاصة والمرأة العربية بعامة .

وكانت بالاضافة إلى هذا كله من أبرز العاملات على ترويج الصناعات النافعة ، والمشروعات الهامة معتقدة «أن الاستقلال السياسي لا يقوم إلا على أساس من الاستقلال الاقتصادي» .

طالبت في المؤتمر الدولي السادس لنساء العالم الذي عقد في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٤ بالغاء الاتجار بالنساء والأطفال ، واغلاق دور البغاء في جميع بلدان العالم اغلاقاً تاماً ، لأن بقاءها اهانة للشرف الانساني ، واعتداء على الفضيلة ، وتشجيع على الرذيلة كما تقول . . .

وطالبت المؤتمر أن يأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار ليمحو هذه البؤر الفاسدة ، كما محتها كل من بريطانيا وسويسرة وهولندة وغيرها ، معتقدة أن عملاً انسانياً مثل هذا قضية عامة لا تفريق فيها بين الجنس والوطن .

ثارت هدى شعرواي على التقاليد الموروثة التي كانت تضطر بنات الصعيد إلى التزام الحجاب ، والانصراف عن العمل في السياسة ، ودعت المرأة المصرية إلى المساهمة في الحياة الوطنية ، كالاشتراك في التظاهرات ، والاسعاف ، والتبرع بالمال . . . وكانت اليد اليمنى للسيدة «صفية» زوجة الزعيم الوطني سعد زغلول ، ورائدة الطليعة الواعية في مصر والبلاد العربية .

وبعد عودتها من مؤتمر روما عام ١٩٢٣ ، فكرت في انشاء مجلة للمرأة المصرية ، لتعريف العالم الغربي بالمرأة العربية ، فظهرت المجلة باللغتين العربية والفرنسية ، واستطاعت من خلالها أن تعبر أصدق تعبير عن مطالب الاتحاد النسائي الذي أنشأته مع زميلاتها في الحركة الوطنية والخدمة الاجتماعية .

طالبت في مؤتمر «كوبنهاغن» عام ١٩٢٩ بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ودافعت عن حقوق الفلسطينيين ، وفي آخر مؤتمر حضرته عام ١٩٤٦ ـ أي قبل وفاتها بعام واحد ـ رفعت صوتها محذرة من استعمال الأسلحة الذرية ، وسعت في مصر لتحديد السن لزواج الفتيات ، ومساواة الجنسين في التعليم والوظائف الحكومية ، وأنشأت ملجأ للأيتام ، ومشغلاً لصناعة الخزف وباقي الفنون النسائية . . . كما أسست في دار الاتحاد النسائي ندوة ثقافية لالقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات . وعندما عادت من أول زيارة لها إلى الغرب ، ثارت على تقاليد الحجاب الصارمة ، فخلعت حجابها ودخلت مع صديقتها سيزا نبرواي من مرفأ الاسكندرية دون نقاب ، فلقيتا عنتاً ومحاربة من المتعصبين والمتزمتين ، لكنها أصرت على ذلك ، ودعت إلى نبذه بقوة ، حتى استطاعت أن تحرر المرأة من هذا القيد الثقيل الذي فرضته عليها قسوة المجتمع ، ولم يكن ذلك خروجاً على الحشمة والوقار ـ كما تقول السيدة وداد سكاكيني ـ بل سلوكاً مثالياً في السفور السليم ، وقد

ظلت تجاهد وتكافح في ميدان تحرير المرأة والخدمات الاجتماعية والوطنية إلى أن توفيت عام ١٩٤٧ .

* * *

هناكسباني كوراني

(١٨٧٠ - ١٨٩٨)

كاتبة وخطيبة باللغتين العربية والانكليزية . ولدت في «كفرشيما» سنة ١٨٧٠ ، وتلقت مبادىء القراءة والكتابة في مدرسة أنشأتها حكومة لبنان في كفرشيما ، فاكتسبت منها الغيرة الوطنية ، لكنها لم تمكث فيها أكثر من شهرين ، حتى غادرتها إلى مدرسة الأميركان ، ثم إلى مدرسة شملان الانكليزية ، فظلت فيها سنتين كاملتين ، التحقت بعدهما بمدرسة البنات الأميركية (كلية بيروت للبنات) حيث أمضت أربع سنوات ، أتقنت خلالها قواعد اللغتين العربية والانكليزية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، والنبات ، والفيزيولوجيا ، وكان أستاذها في العربية العلامة الشيخ ابراهيم الحوراني (١٨٤٤ ـ ١٩١٥) .

دعيت بعد تخرجها للتعليم في مدرسة البنات الأميركية في طرابلس ، فعملت سنة واحدة ، رجعت في نهايتها إلى كفرشيما حيث اقترنت بالسيد أمين كوراني ، ثم أقامت سنة في الشويفات وسنتين في بيروت ، وكانت خلال ذلك الحين تزود الجرائد والمجلات بمقالاتها ، وتترجم الكتب ، وتخطب بالعربية والانكليزية .

سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية أوائل عام ١٨٩٢ لتمثل نساء سورية ولبنان في المؤتمر الدولي الذي عقد في مدينة شيكاغو ، فألقت أروع الخطب في الدفاع عن المرأة العربية ، وبعد انتهاء المؤتمر طافت مدن نيويورك وبروكلن وبوسطن وغيرها تحاضر وتكتب وتخطب ، حتى ذاع صيتها في جميع أنحاء أميركا ، وراحت الجرائد تتسابق إلى استطلاعها أخبار الشرق وعادات أهله ، ومقام المرأة العربية فيه ، وكثيراً ما كانت تخطب أمام الجماهير في زيها الشرقي .

ظلت في أميركا ثلاث سنوات تسعى إلى طلب الرزق بالاعتماد على النفس ، ذلك لأنها لم تسعد في حياتها الزوجية ، ولم ترزق أولاداً ، فطلقها زوجها ، وقد ربحت من خطبها مادياً ومعنوياً ، إلا أن صحتها ساءت نتيجة تعرضها للبرد الشديد ، والتعب المتواصل ، وأصيبت بمرض السل ، فعادت إلى لبنان طلباً للاستشفاء ، وراحت تنتقل بين لبنان ومصر دون جدوى ، حتى توفيت في كفرشيما في السادس من أيار سنة ١٨٩٨ ، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها .

نالت السيدة هنا كسباني كوراني من الشهرة ما لم تنله أي امرأة في مثل سنها ، حتى بلغت شهرتها برلين ، فدعيت لتكون عضواً في الجمعية النسائية الأمبراطورية ، كما اتخذتها إحدى كبريات الصحف التركية حجة على حسن استعداد المرأة العربية واستشهدت بها .

كان أول عمل بدأت به بعد تركها المدرسة تأليف رواية لم تتمها ، لأنها أخذت تراسل المجلات والجرائد مثل «لسان الحال» لخليل سركيس (١٨٤٢ - ١٩١٥) ، و«الفتاة» لهند نوفل ، ثم ألفت بعدها رسالة في الأخلاق والعادات طبعتها وأرسلت نسخة منها إلى السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليها بوسام الشفقة . ومن رواياتها المترجمة والمطبوعة أيضاً (فارس وحماره) و(زقاق المقلاة) و(الحطاب وكلبه بارود) وهي روايات للكبار والصغار معاً . كانت تهدف في كتاباتها إلى تنوير الأذهان ، واقتباس العادات الحميدة ، والتخلق بالأخلاق الحسنة ، وإلى ترقية بنات جنسها ، ورفع شأن المرأة العربية في عيون الغربيين ، والحث على طلب العلم وخدمة الوطن ، وتعزيز كل ما هو وطني ، وقد صدرت رسالتها في الأخلاق والعادات بقولها :

خطت يدي ما جال في خاطري … وغايتي خدمة هذا الوطن
تعاون الأفراد يفضي إلى … تجمع القوة وهو الحسن
أنفقت مما لي فان تنفقوا … مما لكم نلنا المنى والمنن

ثم ختمت قصيدتها بهذه الأبيات :

خواطر أفكاري بثثت إليكم … بني وطني يا عمدتي وعماديا
خواطر لاحت لي فأحببت نشرها … وها أنذا أبدي لكم ما بدا ليا
ولولا يقيني أنكم أكرم الورى … لأشفقت أن أرمي بنفسي المراميا
على أنني جرّأت نفسي بحلمكم … وأملت فيكم أن أنال الأمانيا

كانت هنا كسباني رقيقة العبارة ، جميلة الألفاظ ، طلية الأسلوب ، خطبت كثيراً ، وكتبت أكثر ، إلا أنه لم يصلنا إلا القليل القليل مما خطبت وكتبت وترجمت ، لأن أبويها أحرقا كل ما خلفت من مخطوطات ، خوفاً من تسرب جراثيم مرض السل الذي أصيبت به . وقيل العكس فقد روت أختها للسيدة إميلي فارس ابراهيم صاحبة كتاب (أديبات لبنانيات) أنها عندما توفيت أقبل يوما إلى البيت الأستاذ جرجي نقولا باز ، وطلب من والدها أن يسمح له بالاطلاع على أوراق هنا وكتبها ، لأنه يود أن يجمع آثارها ويطبعها . . . فخيل له أن في الأمر منفعة مادية يود نصير المرأة أن يجعلها في متناوله ، فعز على والديها المفجوعين أن يكون موت صبيتهما سبباً في منفعة تطالها ، فوثبا بعد ذهاب الزائر ، وأحرقا كل ما تركت هنا من مخطوطات وأوراق ، رافضين أن ينتفعا من موت ابنتها .

جرت بينها وبين الأديبة زينب فواز مناظرات ومناقشات حول المرأة والسياسة على صفحات جريدة (النيل) في الاسكندرية ، أبـدت فيها جـانب التحفظ من دخول المرأة معترك الحياة العامة ، فردت عليها زينب فواز بقـولها : « . . . فـما المانـع إذاً من اشتراك المرأة في أعمال الرجال وتعاطيها الأشغال في الـدوائر السيـاسية وغـيرها ؟ وإلا فما فائدة تعليم المرأة الغربية جميع العلوم ؟» .

إلا أن آراءها في المرأة قد تغيرت بعد عودتها من الولايات المتحدة الأمـيركية سنـة ١٨٩٥ ، فقد قالت في خطاب لها عنوانه «التمدن الحديث وتـأثيره في الشرق» : «إن تأثير المرأة في التمدن الحديث مشابه لمآثـر الرجـل . . . فقد تحـررت من نير ظلمـه السابق ، وأكدت له أن جهادها واحتمالها للمصاعب لم يكن حباً بالسيادة ، بل طمعاً في تحصيل العدل والمساواة به ، فسعى الاثنان معاً ، يداً بيد ، في العمل المرقي لبني الانسان ، والمقرّب لسعادتهم» .

«فعلمنا بعظم ما فعلته وتفعله المرأة في الغرب ، يجب أن يثير فينا الغـيرة والاقدام على مثله في الشرق ، فالوطن والرجـال أيضاً في حـاجة شـديدة إلى معـونتنا ، نحن النساء ، فلنقدم لهما من فرائض آدابنا وعلومنا وتهذيبنا ما يقدرنـا عليه الله ، ولتكن المرأة الشرقية عماداً في بناء مدنيتنا على أساس من العلم والفضيلة ، ولها بهذا فخـر لا يزول» .

* * *

هيام نويلاتي

(١٩٣٢-١٩٧٧)

تحفل سورية بعدد لا يستهان به من الأديبات اللواتي لمعن في ميادين القصة والرواية والشعر ، ومن أبرزهن : وداد سكاكيني ، والفة الادلبي ، وسلمى الحفار الكزبري ، وكوليت الخوري ، وغادة السمان ، وعزيزة هارون ، وهيام نويلاتي التي رحلت إلى العالم الأخر قبل الأوان ، وهي لا تزال في ريعان الشباب وقمة العطاء ، تاركة تسعة دواوين شعرية وروايتين هما «في الليل» التي صدرت في كانون الثاني ١٩٥٩ ، و«أرصفة السأم» التي صدرت عام ١٩٧٧ بالاشتراك مع أم عصام (خديجة الجراح النشواتي) ، بالاضافة إلى أطروحتها الجامعية عن «الغزالي» ، ومجموعة لا بأس بها من المقالات والخواطر والمذكرات التي لم تجمع حتى الآن في كتاب ، وعدد من الصور واللوحات التي قامت برسمها .

لم يمهلها القدر أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، فقد طواها الموت في الثاني عشر من آب (أغسطس) عام ١٩٧٧ بعد صراع طويل مع المرض ، ورحلة شاقة مع الحروف والكلمات التي سقتها ذوب نفسها وعصارة وجدانها ، وحمّلتها شحنات من عواطفها الحارة ، وثورتها المتأججة ، وتمردها العاصف .

عرفتها عام ١٩٥٨ في رحاب جامعة دمشق ، وكانت يومئذ طالبة في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، تنظم الشعر الرقيق الذي تعبر فيه عن أهوائها الدفينة ، وأحاسيسها المرهفة ، وتكب في الوقت نفسه على دراسة الفلسفة التي كانت تستهويها إلى حد بعيد ، وتشارك باستحياء في الحركة الأدبية والأمسيات الشعرية ، فضلاً عن وظيفتها في إحدى مؤسسات الدولة .

كانت الشاعرة هيام نويلاتي لا تزال في بداية عطائها حين كتبت عنها مقالاً في مجلة «المعارف» اللبنانية ، حللت فيه شعرها ، وتعمقت بدراسة أطروحتها الفلسفية عن «الغزالي» وروايتها الأولى "في الليل» ، وتوقفت بشكل خاص عند قصيدتها التي لحنها وغناها المطرب السوري نجيب السراج وتقول فيها :

كيف غابَ الأمس بالأحبابِ وانفض الندامى
وذوى زهرُ الهوى النامي وأطيابُ الخزامى

وأثنيت يومئذ على شفافية هذه القصيدة ورقة ألفاظها ، وجمال معانيها ، فزادها ذلك التشجيع ثقة بنفسها ، ودفعها إلى المزيد من العطاء ، لكنها توقفت مع الأسف عن النشر أربع عشرة سنة بعد صدور روايتها «في الليل» ، شُغلت خلالها بمهام الزواج والأسرة والأولاد ، لتطلع علينا فجأة عام ١٩٧٣ بثلاثة دواوين هي «الهرب»

و«القضية» و«تشرين» ، وتتبعها عام ١٩٧٤ بأربعة دواوين أخرى هي «كيف تمّحي الأبعاد» و«مدينة السلام» و«زوابع الأشواق» و«وَشْم على الهواء» ، وبعد هذا الفيض الشعري المتدفق تقلص انتاجها عام ١٩٧٥ إلى ديوان واحد هو «المعبر الخطر» ، ويمر عام ١٩٧٦ فلا يحمل لنا منها شيئاً ، لتعود عام ١٩٧٧ إلى اصدار ديوان واحد وأخير من الشعر الكلاسيكي العمودي بعنوان «يا شام» ، ورواية كتبتها بالاشتراك مع صديقتها القاصة أم عصام (خديجة الجراح النشواتي) أطلقت عليها اسم «أرصفة السأم» ، ثم ختم الموت في العام نفسه هذا العطاء السخي والانتاج الثر ، ولو قدر لها أن تحيا أكثر من خمسة وأربعين عاماً لأغنت المكتبة العربية بمزيد من الأعمال الشعرية والروائية الأخرى .

كأني بالشاعرة هيام نويلاتي كانت تحس في قرارة نفسها بأنها لن تعمر ولن تعيش طويلاً ، ولذلك ألحت على النشر بهذه الكثافة المدهشة التي جاءت على حساب الفن والجودة والعمق ، ولا تزال عند أسرتها مذكرات وأوراق وأشياء لم تنشر بعد ، تنتظر من يخرجها إلى النور .

* * *

كتبت السيدة هيام نويلاتي الشعر وهي طالبة على مقاعد الدراسة الثانوية بلونيه الكلاسيكي والحديث ، وقد جمعت في ديوانها الأخير «يا شام» كل القصائد العمودية التي نظمتها خلال مراحل حياتها القصيرة ، ومعظمها يدور حول الحب ، والشوق ، والألم ، والاحتراق ، والاغتراب ، والوجد ، والوداع ، وتصوير العذابات النفسية التي تعانيها فتاة متوثبة الشعور ، نابضة القلب ، تريد أن تحطم قمقم سجنها الضيق ، لتنطلق وتتمرد على عقلية مجتمعها الجامدة المقيدة ، وتتخطى القيود الصارمة التي فرضها ، فقد امتازت هيام نويلاتي بأسلوبها الجريء ، ونبراتها الحادة منذ أن بدأت الكتابة ، كما عرفت بصدقها وصراحتها وعفويتها ، فقد كانت - كما تقول عن نفسها - «وراء كل معنى تمرد ، ووراء كل تمرد انطلاق نحو مجهول بعيد» ، ويبدو هذا التمرد والاباء في قصيدتها «كبرياء» التي تخاطب فيها الحبيب قائلة :

لا تهجْ لاعجَ أشواقي التي تتنزى في فؤادي بالإباء

لا تثرْ آهتي الحرّى فما   في فؤادي غيرُ آهات الشقاء
يا لبؤسِ النفسِ في حيرتها   ملأت دربي بشوكٍ ودماء
آه دعني ، غاب أمسي وكبت   ذكرياتي مثلَ أنوارِ المساء
كبريائي كلُّ زادي بعد أن   مات حبي في سبيل الكبرياء

ان من يدقق في معاني الأبيات السابقة ، يلمس الحيرة النفسية التي كانت تجتاحها «يا لبؤس النفس في حيرتها» ، ربما لتأثرها بدراسة الفلسفة ، أو لخيبة أملها في ضياع حبها الأول ، أو لإبائها وشموخها وعنفوانها وتمردها ، فقد كانت هيام نويلاتي أبية ، معتدة بالنفس ، عميقة الفهم ، واسعة الادراك ، طموحة ، لم ترخص نفسها ، ولم تسفح عواطفها وتتهالك إلا بقدر ما يبقي لها كرامتها ، ويحفظ لها عزتها .

جربت الشاعرة هيام نويلاتي الحب العاصف ، وأحست بخفقان القلب ، وهي لا تزال طالبة في الجامعة بين عامي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ ، لكنها لم تبح به إلا لأوراقها الخاصة التي كانت تودعها أسرارها واعترافاتها ، وتخط عليها قصائدها البكر ، ومن أوائل شعرها العاطفي قصيدتها «كوخنا» التي تصور فيها نفسها وحيدة مع حبيبها ، في كوخ قصيّ ، بعيدة عن أعين الرقباء ، تعب من الرغبات ما شاء لها أن تعب :

أترى أراك هناك خلف المنحنى ؟
في المفرقِ
في كوخنا المترقب
لنعبَّ من أيامنا
ومن الرغائبِ ما بقي
فأنا لغيرك يا شقي
لم أخلقِ . . .
لنضل خلف المنحنى
في الواحةِ الظمأى لنا
نفنى على لفح الهوى
في زورقٍ من وجدنا
ونغيب في سكراتنا
نحكي المنى

أسطورةً عن حبنا . . .

لكنها في الفترة الأخيرة من حياتها هجرت رومانسيتها ، وخرجت من عزلة أحلامها الطيارة الوردية ، لتعيش في دنيا الواقع السياسي والاجتماعي ، فأصبحت أكثر احتفالاً بهموم الناس والمجتمع والوطن الذي امتدت إليه أصابع الغزو من كل مكان ، ووقفت أكثر من وقفة مشرفة لتدافع عنه بشعرها الحماسي الذي كرسته للاشادة ببطولات حرب تشرين التي خاضتها القوات السورية في الجولان ضد اسرائيل . تقول في قصيدة «سلوا الجولان» :

سلوا الجولان

كم صاغت روابيه

عيونا باللظى تصحو

لمن زف الهوى تشرين . . .

وتتحدث في قصيدتها «مدينة السلام» عن القدس التي لم تعرف السلام منذ أن دخلها الغزاة ، فلبست ثوب الحداد ، ومات كل جار مصلوبا على الجدار :

ولدت في مدينة السلامْ

لكنها مدينةٌ لم تعرفِ السلامْ

واستُعمِرت مدينتي

واجتاحها الطاعون

حتى أصبحت ركام

وانتشرَ الغبارْ

ومات في عيونها النهارْ

ومات كلُ جارْ

مصلوباً على الجدارْ . . .

* * *

وداد سكاكيني

(١٩١٣ - ١٩٩١)

لابد لنا من مغامرة فكرية وراء الملهمين ، لنلحق ولو قريباً بأجنحتهم التي حلقوا بها ، ونتسلل إلى الأغوار ، ونطيف بالبدائع التي استلهموها ، أو المعاني التي صوروها ، ولا بدع إذا تدارسنا آثارهم وخلدنا ذكرهم ، وكرمناهم في الحياة وبعد أن يطويهم الموت ، فلولا هؤلاء الذين جلوا لنا صفحات الوجود ، وفتحوا أمامنا مغالق النفس والشعور ، لما أحسسنا بقيمة الفن والجمال ، والحياة بدونهم صحراء قاحلة . . .

وإذا كان للعالم أن يفخر بكاتباته الشهيرات من أمثال : جورج صاند ، وكوليت ، وسيمون دي بوفوار ، وفرانسواز ساغان ، وسلمى لاجرلوف ، وجورج إليوت ، وغبرييلا ميسترال ، وشارلوت ، وإميلي ، وآن برونتي ، وجين أوستن وغيرهن . فإن للأمة العربية أن تعتز بأديباتها وشاعراتها اللاتي تفوقن بالمواهب والتأليف من أمثال : سهير القلماوي ، وبنت الشاطىء ، وأمينة السعيد ، وصوفي عبدالله ، وملك عبد العزيز ، ونازك الملائكة ، وفدوى طوقان ، وغادة السمان ، وكوليت خوري ، وسلمى الحفار الكزبري ، والفة الادلبي ، ووداد سكاكيني وغيرهن . . .

* * *

ولدت السيدة وداد سكاكيني في صيدا عام ١٩١٣ ، وتخرجت في «كلية المقاصد» في بيروت ، وكان أستاذها العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٥ - ١٩٤٤) يشجعها ويسدد خطاها بعد أن لمس نبوغها المبكر . وبعد أن تخرجت فيها عملت في التعليم عدة سنوات ، ثم مارست بعض الأعمال الإدارية في المعهد العالي للبنات .

وحين تزوجت الشاعر الدكتور زكي المحاسني (١٩٠٩ - ١٩٧٢) عام ١٩٣٤ انتقلت معه إلى دمشق ، ثم رافقته إلى القاهرة عام ١٩٤٦ حيث عين ملحقاً ثقافياً في السفارة السورية ، وتابع دراسته العالية في جامعة القاهرة التي نال منها شهادة الدكتوراه في الآداب بأطروحة عنوانها «شعر الحرب في أدب العرب» .

لقد أتيح لها وهي في مصر أن تتصل بكبار الأدباء وأعلام المفكرين ، وأن تحضر الندوات والمؤتمرات ، وتسهم في الحركة الأدبية بشكل فعّال ، وتنشر العديد من

كتبها في دار الفكر العربي ، ودار المعارف ، ولجنة النشر للجامعيين ، وتغذي العديد من الصحف والمجلات بمقالاتها النقدية ، ومراجعاتها للكتب الجديدة .

القصة في أدب وداد سكاكيني

أصدرت وداد سكاكيني خمس مجموعات قصصية هي : «بين النيل والنخيل» و«مرايا الناس» والستار المرفوع» و«نفوس تتكلم» و«أقوى من السنين» وتتميز قصصها بالتحليل البارع لنفسيات أبطالها ، ولاسيما إذا كانوا من النساء ، وهذا دليل على أن المرأة أقدر على فهم نفسية المرأة من الرجل ، بحكم صلتها الوثيقة بها كأم وأخت وزوجة وجارة ومعلمة ومربية ، ومن هنا ندرك لماذا آثرت الكاتبة اختيار أبطال قصصها من النساء ، ولعل هذا النجاح في تحليل عواطف المرأة هو الذي جعلها تبلغ الذروة في قصة «هاجر العانس» التي صدرت بها مجموعة «مرايا الناس» وقصص : «الضرتين» و«رشيد المولوي» و«أبو تراب» وغيرها من الأقاصيص التي تصور بعض تقاليد المجتمع السوري .

لقد كان لجريدة المكشوف التي كان يصدرها فؤاد حبيش (١٩٠٤ - ١٩٧٣) في بيروت الفضل في إبراز وداد سكاكيني حين أقامت مسابقة للقصة القصيرة عام ١٩٣٨ اشترك فيها تسعة وخمسون كاتباً من سورية ولبنان ، ففازت بالجائزة الأولى ، وكان عنوان قصتها الفائزة «الشيخ حمدي» . وقد نُقلت بعض قصصها إلى اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية والروسية وغيرها .

أما في مجال الرواية فقد أصدرت روايتين شاميتي الموضوع والمحتوى واللون هما «أروى بنت الخطوب» التي نسجت في مستهلها صورة رائعة للشام في قديمها الذي لم تتغير طبيعته ، وللمرأة العربية في حفاظها ووفائها ، و«الحب المحرّم» التي صوّرت فيها النقلة الشامية بين القديم والحديث ، واضطراب الفتاة في دراستها ، وتطلعها إلى الحياة الزوجية .

لقد غمست وداد سكاكيني قلمها في مداد الحياة فتناولت سير الناس وصورهم ، وحللت طبائعهم ونفوسهم ، منقبة عن زيوف الطوايا ، من أجل جنسها الذي تريده أن يكون في حرز من أهل التغرير ، مرتكزة على أرضية من دقة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، فقلما تفلت منها شاردة لا تنال نصيبها من التحليل والتمحيص ، ولا شك أن دقة الملاحظة من أهم الصفات التي يجب أن تتوافر في القاص الجيد .

وداد سكاكيني و أدب المقالة

اهتمت وداد سكاكيني بأدب المقالة منذ أن أصدرت كتابها الأول «الخطرات» عام ١٩٣٢ ، وكانت في نهاية العقد الثاني من عمرها ، ولم تكتب مقالاتها خصيصاً للكتب التي تنشرها ، بل كانت تجمع مقالاتها المنشورة في الصحف والمجلات ، في كتب ، كما فعلت في كتبها «سواد في بياض» و«نقاط على الحروف» و«شوك في الحصيد» و«سطور تتجاوب» و«إنصاف المرأة» ، وكانت هذه المقالات تتميز بالجرأة والصراحة ، ورصانة العبارة ، وقوة السبك ، ومتانة الأسلوب ، وإشراق الألفاظ ، ودقة الحبك ، فلا نعثر في مقالاتها على لفظ عامي ، أو عبارة ركيكة ، أو كلام حوشي ، فهي تنتقي ألفاظها المعبرة بذوق الأديب البارع ، وتختارها اختيار الفنان الأصيل ، كما لو أنها غُرست غرساً ، وهُيئت لهذا الموضع دون سواه .

إن الرصف الجيد والبناء المتين والتلاحم الدقيق في تآخي الكلمة والكلمة ، هو الذي أضفى على أسلوبها هذا الرداء العربي المشرق ، فلا التواء ، ولا رخاوة ، ولا تقعر ، وكل ذلك في قالب من البيان المحبب ، نطالعها فكأننا نطالع عبد الحميد الكاتب أو الجاحظ أو أبا حيان التوحيدي في أجمل ما كتبوا . . . ويزيد أسلوبها قوة هذا التوكؤ على ألفاظ القرآن الكريم ، تنثرها في مطاوي قصصها ومقالاتها من حين لآخر . .

وبالإجمال فأسلوب وداد سكاكيني يتميز بالقلم الرفيع ، والنسيج المكين ، مما خلع على أدبها رونقاً جميلاً ، فأعادت للمرأة العربية القديمة بذلك قيمة الأسلوب العربي الرصين ، حتى لتضاهي به كبار الكتاب ، وقد قدّره أعلام الأدب والفكر في مصر والبلاد العربية أمثال : عباس محمود العقاد ، وطه حسين ، ومحمود تيمور ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد كرد علي ، والأمير مصطفى الشهابي . . . وشهدوا لها جميعاً بصفاء الأسلوب وعمق الفكر والثقافة .

إن كاتبة هذا شأنها من الطبيعي أن تنتصف لشرف اللغة من دعاة العامية فتهبّ لترد عليهم بجرأة صاحب الحق المهضوم ، ودفاع المحامي الفطن ، لأن ضياع اللغة معناه ضياع الوطن والقومية والأمة . . وهي لا تضن على المجددين والموهوبين المقتدرين بالتأييد والتشجيع شريطة «ألا يكون انطلاقهم في التجديد على حساب اللغة هي الدعامة الأولى في قوميتنا وثقافتنا ، فإذا فرطوا بهذه القضية فكأنهم

فرطوا في حق العروبة والوطن ، وكم ضاعت أمة بضياع لغتها» .

وتتعرض لأولئك الذين يبحثون عن الشهرة ، ويريدون اختصار طريق الأدب ويجنحون إلى استخدام العامية في كتاباتهم ، أو يروجون لها فتقول : «وما كانت العامية من هؤلاء الثائرين إلا تبريراً لضعفهم في التعبير ، وإيثارهم السهولة والسرعة كأن القارىء على نار ، يلح بمطالبتهم بأي منتوج ، وما أشبههم بخباز ، لا يكاد يدخل أقراص العجين إلى الفرن حتى يخرجها غير ناضجة ، متوسلاً بالسرعة لكثرة الإنتاج والرواج ، وهذا الأدب المتخفف . المرتجل ، ظاهرة اجتماعية من ظواهر عصرنا المتسم بعصر العلم وابتلاع الأقراص ، وهي ليست في أدبنا وحده ، بل في الآداب العالمية أيضاً ، وقد تناولها بالنقد والاستهزاء ، وأكثر ما تتجلى في الأدب الشفهي الذي يذاع ويُلقى ، وقد لا تنقله الإذاعة إلى القارىء» .

وحين تنعى على دُعاة العامية ضعفهم وركاكتهم ، لا تنسى أن تشرك معهم جماعة الأدب السطحي الذين قعدوا عن طلب الفكرة العميقة ، لئلا يزعجوا أنفسهم بالدرس الحثيث والجهد المضني ، واستجابوا بكليتهم للاذاعة تقتل وقتهم بالأحاديث السخيفة ، والتمثيليات الباردة الغثة ، والأغاني التافهة الرخيصة ، أما السينما والصحافة فهما - في رأيها - العدوان اللدودان للأديب ، تستنزفان وقته ، وتشوهان ما تماسك من أدبه .

ولا يروق سكاكيني أكثر هذا الذي تنتجه مطابعنا من القصة الحديثة لأنه «جاء حفياً بالعامية والفكرة السطحية ، متسماً بالأناقة الشكلية لا الموضوع فيه معمّق النظرة والخطوط ، ولا التعبير خال من الركالة والتكلف والابتذال» .

ولا تقل نقمتها على الشعر الحديث عن نقمتها على القصة الحديثة ، «لأنه لم يحظَ بالطاقة والثقافة الكافيتين ، وكل ما يصل إلى أيدينا منه ، لا يتعدى منظومات ومقطوعات ، لا هي بالنثر ولا هي بالشعر ولا بين ذلك ، نقرؤها فنجدها مفككة الوزن ، متداعية الصور ، سطحية المعنى ، وقد حسب أصحابها أن في رصف الكلمات المكرورة ، وتزويق حروفها تجديداً لا يعرفه الشعر العمودي بقوالبه التقليدية التي أعجزت النظامين الناقمين» .

وعلى هذا المنوال من النقد الصارم تستمر وداد سكاكيني في شن غاراتها على الكسالى من الكتاب والمتأدبين قائلة : «أين تلك الجلسات الطويلة التي كان يقضيها القارىء عاكفاً على كتاب يحب أدبه ويتدارسه بشوق وتأمل ؟ لقد فارق الكتب

أحبابها ، وعلاها الغبار على الرفوف ، ونصبت فوقها للزينة ، وقنع العشاق المحدثون بنزوات عابرة ، ونظرات خاطفة ، فليس للمثقف اليوم أو المتأدب إلا أن يطيف بعينيه في جريدة أو مجلة ، راضياً بالمقال الخفيف ، والنبأ المثير ، والصورة المغرية ، أو يدير مفتاح المذياع ، فيسمع حديثاً مستعجلاً ، أو تمثيلية هزلية خفيفة» .

إن المقالة النقدية هي جزء هام لا يتجزأ من أدب السيدة وداد سكاكيني ، تنتقد بصراحة تامة ، دون محاباة أو تحيز ، حريصة على أن تبقى كلمة الأدب هي العليا .

وداد سكاكيني وأدب السيرة

اهتمت وداد سكاكيني بأدب السيرة الذاتية ، فأصدرت عام ١٩٤٥ كتاب «أمهات المؤمنين وبنات الرسول» الذي ضم أربع عشرة سيرة لسيدات لمعت أسماؤهن في التاريخ العربي كأم الزهراء ، وأم الحسين ، وأم المؤمنين وغيرهن من اللواتي كن فضليات العرب ، وحجة على الرجال .

لقد تطلعت إلى سماء العرب في أزهى عصورهم ، فأبصرت فيها كواكب نسوة ساطعات بهرها تألق نورهن ، وغمرها شعاع من إيمانهن واحسانهن فطفقت تقلب في البحث عن سيرهن وأخبارهن بطون التراجم ، ومتون التاريخ ، تجمع من هنا خبراً ، ومن هناك سيرة حتى جلت ذلك كله في صور فنية تأنس بها النفس ، ويهفو إليها الخاطر .

لقد قصدت من كتابها هذا أن يكون نبراساً للفتاة العربية ، تهتدي به ، ومشعلاً ينير الطريق أمام كل أم ، لتعرف كيف تربي أطفالها على النبل والايثار والوفاء والتضحية .

في عام ١٩٥٩ أصدرت كتابها «نساء شهيرات من الشرق والغرب» الذي اشتركت في تأليفه مع السيدة تماضر توفيق ، وضم عشرين سيرة لأشهر النساء اللواتي نفعن العالم ووهبنه قسطاً كبيراً من جهودهن في الحياة التي عشنها في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وقد قامت وداد باختيار النساء العشر من بنات الشرق العربي اللاتي كن من الرائدات المجاهدات في نهضتنا الحديثة أمثال : أم كلثوم ابراهيم ، وماري عجمي ، ونازك العابد ، وليلى دوس ، وهدى شعراوي ، ومي زيادة ، والأميرة بدرية سالم الصباح ، والأميرة عائشة المراكشية ، وسهير القلماوي ،

وفدوى طوقان .

لكن بقي هنالك نجم نسوي متألق لم يشرق في دنيا ترجماتها القصيرة حتى الآن ، هو نجم «رابعة العدوية» العاشقة المتصوفة الذي تلألأ في سماء البصرة العراقية أواخر القرن الهجري الأول ، وتسلل نوره إلى المجالس والبيوت ، وسطع فيها كالثريات ، وظل مرموق الضياء ، حتى هوى في أعقاب القرن الثاني للهجرة ، متحولاً إلى أحدوثة لا تنسى ، خلدتها السطور ، ولهجت بها الألسنة ، وتداولتها بالذكر والتأليف أقلام طائفة من الباحثين في القديم والحديث .

لقد جلت وداد سكاكيني في هذا الكتاب ما علق بسيرتها من حيرة وتناقض وغموض ، فكانت هذه السيرة من أحسن الدراسات ، ولذلك نقلت إلى اللغة الإنكليزية ، ونشرت في لندن .

إلا أن كتابها «مي زيادة في حياتها وآثارها» الذي نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ يحتل مكان الصدارة بين كتب السيرة الأخرى التي أصدرتها عن «قاسم أمين» ١٩٦٥ و«عمر فاخوري أديب الابداع والجماهير» ١٩٧٠ ، وسابقات العصر ١٩٨٦ لأنها عانت كثيراً في تأليفه وجمع أصوله ، وتحقيق وثائقه التي حصلت عليها من مظانها ومصادرها الوثيقة ، وعاشت طويلاً مع الصحف والمجلات والمؤلفات التي احتوت أدب مي (١٨٨٦ - ١٩٤١) منذ نشأتها حتى نهايتها ، وقد أقامت هذا الموضوع الشائك على الحجة الدامغة ، وخلاصة اللقاء والإصغاء لذوي الصفحات الحية الصادقة من ثقات المفكرين والأدباء الذين عرفوا مياً على سجيتها ، وفي مختلف أطوارها وآثارها ، غايتها التحري والتقصي والبحث عن الحقيقة للوصول إلى جوهر أديبة ظلمت نفسها وظلمها الناس فيما تقوّلوا عليها زعماً ووهماً دون تثبّت ولا يقين .

لقد تضمن هذا الكتاب أصدق ما كتب عن حياة مي زيادة وآثارها ، تلك الأديبة اللامعة التي واكبت الرعيل الأول من الأدباء ، بناة الوعي الفكري والقومي في بلادنا العربية في أوئل هذا القرن .

وداد سكاكيني والنقد الأدبي

إذا كان قراء العربية قد عرفوا وداد سكاكيني كاتبة قصصية وروائية ملتزمة بالقيم الانسانية الرفيعة . وباحثة وكاتبة للمقال والسيرة ، فإنهم قد عرفوها أيضاً ناقدة ملتزمة ورصينة ، تكتب مسوقة بطبعها الجريء المخلص الذي لا يخشى مسؤولية إبداء الرأي .

لقد مالت وداد سكاكيني إلى النقد منذ أن وعت وتلمست طريق الأدب ، وكانت تقرأ لناقد فرنسي مشهور اسمه «أندريه تيريف» فتأثرت به ، وسارت على خطاه وهي على ثقة بأن «حامل النقد أشد تعباً وأشقى . . . وأكثر أعداء وأقل أصدقاء» .

وكان من حظها أنها أدركت عهداً من ازدهار النقد الأدبي أثناء إقامتها في مصر ، فأحبت المطارحات النقدية ، وتتبعتها بشوق واهتمام ، حتى استهوتها هذه الممارسة ، وخاضت غمارها بجرأة واقتحام ، تهاجم وترد الصاع صاعين ، سعيدة بشهود الأعلام من نقاد الأدب المعاصر ، دون أن تتأثر بموقف محدد ، أو هدف مرسوم ، وفي مقدمة هؤلاء : طه حسين ، والعقاد ، ومارون عبود ، وغيرهم ممن لمعوا بعدهم كمحمد مندور ، وعمر فاخوري ، وكرم ملحم كرم ، ومحمد روحي الفيصل وسواهم ممن لم يطرحوا أقلام النقد الأدبي جانباً إلا بعد الخمسين أو الستين من هذا القرن .

لقد بدأت وداد سكاكيني حياتها النقدية بنقد ذاتها وسطورها أولاً ، قبل أن يقرأها غيرها ، وأخذت تستعد لهذه المهمة الصعبة بزاد ثقافي واسع ، وتتسلح بمعايير دقيقة ، لأن النقد وإن كان علماً يقوم على قواعد ثابتة متفق عليها ، فإن على الناقد أن يكون واعياً ، نافذ البصر والبصيرة ، صحيح المعيار ، غير جّوار في القسطاس ـ كما تقول ـ ولا يجوز أن يتصدى له من شدا من الثقافة أطرافاً ، إذ لا بد من التمرس بسيرة الأدب والتمكن من اللغة والبيان ، ومعرفة أسرار البلاغة والتعبير والتركيب ، والاطلاع على تاريخ النقد ، والاستفادة من الفلسفة وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، ولا ينبغي مع كل هذه العُدة من الاعتماد عليها وحدها ، إذ لا بد من التذوق الفني للناقد ، مع الالتزام بالتجرد قدر المستطاع ، وإرساء القيم على أساس صحيح .

كل هذه الشروط والصفات والمعايير التي يجب أنْ تتوافر في الناقد الأدبي ، اجتمعت في السيدة وداد سكاكيني ، بالاضافة إلى الجرأة الأدبية ، والثقة بالنفس ، والتمكن من الأداة ، وعدم التهيب من التصدي لكبار الكتاب والمفكرين العرب الذين تتبعت آثارهم ، وتناولت مؤلفاتهم بالنقد النزيه والدرس الهادىء ، والمناقشة المطمئنة ، ليقينها بأنها لا تقول غير الحق ، ولا تتعامل مع الباطل ، ولا تتجنى على أحد .

لقد كان يؤلمها ويحز في نفسها أن ترى مئات المنشورات الرديئة التي تملأ واجهات

المكتبـات ، «وتهدهـد إلحاح المستعجلين في الـظهور ، ولا يتنـاولها النقـد الأدبي إلا لماماً ، وأن ترى مغالطات وغفلات من ألفوا واستهانـوا بوعي المثقفـين والنقاد ، ولا ينبري من يدل على القيم والرديء منها» .

من هذا المنطلق حملت وداد سكاكيني على عـاتقها مهمـة النقد الشـاقة ، وكـانت واحـدة من الأديبات العـربيات القليـلات اللواتي اضطلعن بهـا كسهـير القلماوي ، وبنت الشاطىء ، ونازك الملائكة ، ويمنى العيد ، غير متحرجة ولا خائفة لأنه «ليس من حرج على من أخلصوا للكلمة أن يقدموهـا في النقد مـع الحجة والـدليل وجـلاء الإبداع ، دون استغراق في التحليل والتفسير» .

لم تكتفِ السيـدة وداد سكاكيني ، بـالنقد التـطبيقي كنقدهـا لمؤلفـات كـل من : ميخائيل نعيمـة ، وجميل صليبـا ، وصدقي اسـماعيل ، وطـه الولي ، وخليـل رامز سركيس ، وغادة السمان ، وعزة النص ، وعزيزة مريدن ، ونورا نـويهض حلواني ، وثروة أباظـة ، وكرم ملحم كـرم ، ولطفي حيـدر ، وتوفيق يـوسف عواد ، وعـزيز أبـاظة ، وعـدنان مـردم بك ، ومحمـد يوسف نجم ، وعـلي أحمد بـاكثير ، ومحمـد المبارك ، وسهام تـرجمان ، وكعـدي فرهـود كعدي ، وأديب فـرحات وغـيرهم ممن تناولتهم في كتبها النقدية مثـل «نقاط عـلى الحروف» ١٩٦٠ ، و«شـوك في الحصيد» ١٩٨١ ، و«سطور تتجارب» ١٩٨٨ بل جمعت بالاضافة لذلك تعقيبات ومناقشـات لآراء تتناول قضايا عامة تتعلق بالمفـاهيم الفكريـة والقوميـة والأدبية المعـاصرة ، أو بتراثنا العربي القديم والحديث ، لأن الخطأ يؤلمها أينما كان ، ولا يمكنها السكـوت أو التغاضي عنه ، ومن هـذا المنطلق نـاقشت بجرأة وشجـاعة كـلاً من : عزة النص ، وحسام الخطيب ، وفريد جحا ، ومريانا دعبول فاخوري ، وخير الدين الزركـلي ، وسامي الكيالي ، وسلمى الحفـار الكزبـري وغيرهم ، وتـدل هذه المنـاقشات عـلى ثقافتها الواسعة ، ومتابعتها الدائمة ، وفهمهـا العميق ، واطلاعهـا اللامحـدود على الأدب وتاريخه ، وسير أعلامه ، وعلى ما تصدره المطابع ودور النشر في سورية ولبنان ومصر وسائر الأقطار العربية .

يقـوم منهجها في النقـد على التعـريف الواسـع بالانتـاج العام لـلأديب صـاحب الكتاب المنقود ، والإلمام بتاريخ حياته ، وما كان له من مواقف في تاريخنا الحديث ، ترفد ذلك كله ثقافة موسوعية أدبية وفنية وفكرية واجتـماعية وإنسـانية عـامة ، ولغـة رصينة ، وأسلوب متين .

لقد تركت وداد سكاكيني عشرين كتاباً في مختلف الأجناس الأدبية ، ولا يزال لدى أولادها عدة مخطوطات تنتظر من يتولى نشرها في المستقبل .

* * *

مؤلفات وداد سكاكيني

١ ـ الخطرات ، بيروت ١٩٣٢
٢ ـ مرايا الناس ـ لجنة النشر للجامعيين ـ القاهرة ١٩٤٥
٣ ـ أمهات المؤمنين وبنات الرسول ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٤٥
٤ ـ بين النيل والنخيل ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٤٦
٥ ـ أروى بنت الخطوب ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٤٩
٦ ـ إنصاف المرأة ـ مطبعة الثبات ـ دمشق ١٩٥٠
٧ ـ الحب المحرم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٥٤
٨ ـ العاشقة المقصوفة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٥
٩ ـ الستار المرفوع ـ نادي القصة ـ القاهرة ١٩٥٥
١٠ ـ سواد في بياض ـ مطبعة الثبات ـ دمشق ١٩٥٩
١١ ـ نساء شهيرات من الشرق ـ مؤسسة فرانكلين ـ القاهرة ١٩٥٩
١٢ ـ نقاط على الحروف ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٠
١٣ ـ نفوس تتكلم ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٢
١٤ ـ قاسم أمين ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٥
١٥ ـ مي زيادة في حياتها وآثارها ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٩
١٦ ـ عمر فاخوري أديب الابداع والجماهير ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٧٠
١٧ ـ أقوى من السنين ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨
١٨ ـ شوك في الحصيد ـ مطبعة سورية ـ دمشق ١٩٨١
١٩ ـ سابقات العصر ـ الندوة الثقافية النسائية ـ دمشق ١٩٨٦
٢٠ ـ سطور تتجاوب ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٨٧

وردة اليازجي

(١٨٣٨ - ١٩٢٤)

هي ابنة العلامة الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) ، وشقيقة الشيخين ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) وخليل اليازجي . ولدت في قرية كفرشيما بلبنان في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٣٨ ، ولما بلغت الثانية من عمرها انتقل بها والدها إلى بيروت ، ثم أدخلها مدرسة البنات التي أنشأها المرسلون الأميركيون ، حيث تلقت مبادىء القراءة والكتابة ، وما إن بلغت الثانية عشرة ، وبدت عليها علامات النجابة والذكاء ، حتى أخذ والدها يلقنها أصول الصرف والنحو والبيان ، ويدرسها علمي العروض والقافية ، ويقرئها بعض قصائده ، فتولدت عندها الرغبة في النظم ، وهكذا لم تكد تناهز الرابعة عشرة ، حتى كانت تنظم القصائد البديعة ، وتتفنن في المعاني والأساليب الشعرية ، كالوصف والمدح والرثاء ، وكتابة الرسائل الاخوانية ، في زمن لم تكن فيه المرأة قادرة على فك الحروف ، ولكن الرثاء غلب عليها لكثرة المصائب والأحزان التي ألمت بها ، كفقد والدها ، وأخيها ابراهيم ، وزوجها ، وولدها أمين ، وصديقها مارون النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥) وغيرهم .

تزوجت عام ١٨٦٦ من الأستاذ فرنسيس شمعون ، أحد خريجي الجامعة الأميركية في بيروت ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى مصر ، وراحت تكتب في مجلة (الضياء) التي أنشأها أخوها ابراهيم في القاهرة في ١٥ أيلول عام ١٨٩٨ ، ومن آثارها فيها مقالة في تعريف المرأة الشرقية ، وقد طبع ديوانها الصغير «حديقة الورد» في بيروت عام ١٨٦٧ وافتتحته بهذه الأبيات التي وجهتها إلى سميتها وزميلتها في الأدب وردة نقولا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨) شاعر الأمير بشير الشهابي :

يا وردةَ التركِ إني وردةُ العربِ ... فبيننا قد وجدنا أقربَ النسبِ
أعطاكِ والدكِ الفن الذي اشتهرتْ ... ألطافهُ بين أهل العلم والأدبِ
فكنتِ بين نساءِ العصرِ راقيةً ... أعلى المنازلِ في الأقدارِ والرتبِ

وعندما أصدرت الشاعرة المصرية عائشة التيمورية (١٨٤٠ - ١٩٠٢) ديوانها «حلية الطراز» بعثت بنسخة منه إلى الشاعرة وردة اليازجي فشكرتها عليه بهذه الأبيات :

يا نسمةً من أرضِ وادي النيلِ ... وَرَدَتْ فأطفتْ بالسلامِ غليلي
أنتِ الفريدةُ في النساءِ فكيفَ لا ... أهوى حبيباً باتَ دونَ مثيلِ
علمتني قولَ النسيبِ وهجتِ بي ... ما هاجَ حبُّ بثينةٍ بجميلِ

لقد نظمت وردة اليازجي أكثر شعرها في المناسبات ، لذلك غلب عليه طابع التكلف والتقليد والصنعة اللفظية ، كقولها في وداع سليمان البستاني ، عندما انتخب عضواً في مجلس «المبعوثان» التركي عن ولاية بيروت ، وقد عمدت إلى التورية باسمه :

أخلقْ ببيروتَ دارِ العلمِ من قدمٍ ... أن تصطفيكَ على الأيامِ معوانا
فاللهُ لما ارتأى اعلانَ حكمتهِ ... ما اختار من شعبه إلا سليمانا

ولم يفتها أن تنظم في التاريخ الشعري الذي كان شائعاً في زمانها ، ولا نكاد نعرف شاعراً عاش في تلك الفترة الزمنية إلا روّض ذهنه في هذا الفن التقليدي ، وشارك فيه بنصيب كقولها مؤرخة احدى الجمعيات الخيرية في بيروت سنة ١٨٧٦ :

جمعيةٌ خيريةٌ بُنيتْ على ... حبِ الفقيرِ لكي تخففَ كربهُ
وكذاكَ قالَ اللهُ في تاريخهِ ... من يرحمِ المسكينَ يقرضْ ربهُ

ومن مدائحها هذه الأبيات التي قالتها في «نائلة» شقيقة السلطان عبد الحميد عندما زارت بيروت :

يا ثغرَ بيروتَ البهيجَ تبسمِ ... وبحمدِ خالِقِكَ الكريم ترنّمِ
اليومَ زارتكَ المليكةُ فاكتست ... شرفاً ربوعكَ بالطرازِ المُعلمِ
هي أختُ سلطانِ الأنامِ مليكنا ... وسليلةُ الملكِ الهمامِ الأعظمِ

إلا أن الرثاء يكاد يستقطب جل شعرها ، لكثرة النكبات التي حلّت بها ، وكأن الله قد أطال عمرها ، ومد في أجلها فبلغت السادسة والثمانين ، لكي تفجع بفقد أقربائها وأحبائها جميعاً وترثيهم بعين دامعة ، وقلب يقطر دماً ، وينز أسى ولوعة ، وكثيراً ما كانت تشبه نفسها بالخنساء التي فقدت أبناءها الأربعة ، وأخويها صخراً ومعاوية . تقول في رثاء أخيها ابراهيم :

بكتْ وحيداً ، وأبكي ستةً ذهبوا ... لكل محمدةٍ بين الورى وجِدوا

وتعود لتشبه نفسها بالخنساء مرة أخرى في القصيدة التي رثت بها والدها الشيخ ناصيف ، وتجعل مصابها به أجلّ وأدهى من مصاب الخنساء بأخيها صخر فتقول :

تكاثرت الأحزانُ في كبدي الحرّى ... وزادتْ دموعُ العين في عينيَ السكرى
وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت ... بطيّ فؤادي من نوائبها جمرا
وقد آلمتني الحادثاتُ بصرفها ... كما آلمتْ خنساءَ إذ فقدتْ صخرا
فقدتُ أبي مالي وللعيش بعده ... فموتيَ من عيشي غدا بعدهُ أحرى

وتلجأ إلى الحكمة لأنها في مثل هذه الأحوال ، خير بلسم للقلوب الحزينة ، وأفضل عزاء للنفوس التي عصرها الألم ، وهدتها المصائب :

حياة الحزين القلب موت وموته حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى

وتتحدث في الرثاء عن فلسفة الموت ، فتبين عجز الانسان عن مصارعته ، ووقوفه أمامه مكتوف اليدين ، لا يستطيع تحريك ساكن فتقول :

كأسُ المنيةِ دائرٌ بينَ الورى يسقي الكبيرَ ولا يفوتُ الأصغرا
ما هذهِ الدنيا بدارِ إقامةٍ إلا كطيفِ الحلم في سِنَةِ الكرى

ونختتم الحديث عن رثائها بما قالته في ابنها «أمين» الذي توفي عام ١٨٩٢ وهو في ريعان الشباب ، باكية أدبه الرفيع ، وأخلاقه العالية ، وحسنه الوضاء ، بعاطفة صادقة ، وشعور ملتهب ، وان غلب عليها التقليد ، والاكثار من التشبيهات المرصوفة رصفاً :

ألحَّ علي الحزنُ من كلِ جانبِ فشنَّ على صبرِ الحشا غارةً شعوا
فلو أن ما بي في الجبالِ لأوشكتْ تميد لما تلقاهُ من مضض البلوى
ولو أن «رضوى» ذاقَ بعضَ مصائبي لَدُكَّ ولم يقوَ على حملها رضوى
لفقد أنيسي ، بل حبيبي ومهجتي وريحانِ روحي مَنْ غدوتُ به نشوى
أديبٌ جميلُ الخَلْقِ والخُلْقِ طاهرٌ رفيعُ الصفاتِ قلبُهُ طيبُ النجوى
كصدرِ النقا ، كالنصلِ كالغصنِ في القنا كزهرِ الربى كالبدر كالرشأ الأحوى

وبالاجمال فشعر وردة اليازجي تقليدي بسيط سادج ، يتميز بالرقة والوضوح والسهولة كقولها :

ألا روّحوا عني برائحةِ الورد فقد جاءنا فصلُ الربيعِ من البعدِ
ألا متّعوني مرةً من شميمهِ فيذهبَ عني بعضُ ما بي من الوجدِ

للمؤلف :

آ ـ في أدب الأطفال

١ ـ عندما جاءت عصافير الدوري ـ شعر مترجم ـ ليدا ميليفا ـ وزارة الثقافة ١٩٧٥ .

٢ ـ مدرسة اللقلق ـ قصص وحكايات مترجمة ـ عدد من الكتاب ـ وزارة الثقافة ١٩٧٦ .

٣ ـ الفأس الذهبية ـ قصص وحكايات مترجمة ـ عدد من الكتاب ـ وزارة الثقافة ١٩٧٧ .

٤ ـ دنيا الحكايات ـ قصص وحكايات مترجمة ـ أنجل كاراليتشف ـ وزارة الثقافة ١٩٧٨ .

٥ ـ النمس الوفي ـ قصص وحكايات مترجمة ـ عدد من الكتاب ـ وزارة الثقافة ١٩٧٩ .

٦ ـ عشر قصص ـ قصص وحكايات مترجمة ـ ران بوسيلك ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠ .

٧ ـ المزمار العجيب ـ قصص وحكايات مترجمة ـ ران بوسيلك ـ مكتبة ميسلون ـ دمشق ١٩٨٢ .

ب ـ في الدراسات والنقد

١ ـ أديب اسحق باعث النهضة القومية ـ اتحاد الكتاب العرب ومجلة العرفان ـ دمشق وبيروت ١٩٧٦ .

٢ ـ دراسات في الأدب والنقد ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٩١ .

٣ ـ شموع في الضباب (من أعلام الأدب الحديث في سورية) ـ دار المنارة ـ بيروت ودمشق ١٩٩٢ .

٤ ـ أديبات عربيات ـ الندوة الثقافية النسائية ـ دمشق ١٩٩٤ .

٥ ـ نصري الجوزي ـ رائد المسرح الفلسطيني ـ دار المبتدأ ـ بيروت ١٩٩٤

٦ ـ من أعلام الأدب العربي الحديث (الجزء الثاني) ـ دار الفاضل ـ دمشق ١٩٩٤

المصادر

١ ـ أديبات لبنانيات ـ إميلي فارس ابراهيم ـ دار الريحاني ـ بيروت .
٢ نساء من بلادي ـ ناديا الجردي نويهض ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٦ .
٣ ـ مي في حياتها المضطربة ـ الدكتور جميل جبر ـ دار بيروت ـ بيروت ١٩٥٣ .
٤ ـ مي وجبران ـ الدكتور جميل جبر ـ دار الجمال ـ بيروت ١٩٥٠ .
٥ ـ وحي الأسرمة ـ روز عطاالله شحفة ـ دار صادر ـ الريحاني ـ بيروت ١٩٥٠ .
٦ ـ النسمات ـ سلمى صائغ ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت ١٩٢٣ .
٧ ـ النسائيات ـ ملك حفني ناصف ـ مطبعة التقدم ـ القاهرة ١٩١٠ .
٨ ـ بلاغة النساء في القرن العشرين ـ فتحية محمد ـ مطبعة مصر ـ القاهرة .
٩ ـ نفحات عطر ـ أسمى طوبي ـ مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٥ .
١٠ ـ عبير ومجد ـ أسمى طوبي ـ مطبعة قلفاط ـ بيروت .
١١ ـ شعراء مجددون ـ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ رابطة الأدب الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ .
١٢ ـ الشعر المصري بعد شوقي (الحلقة الثالثة) الدكتور محمد مندور ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٤ .
١٣ ـ ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر ـ المطبعة الأهلية ـ دمشق ١٩٤٥ .
١٤ ـ نساء من التاريخ ـ الاتحاد العام النسائي ـ دمشق ١٩٧٣ .
١٥ ـ نساء شهيرات من الشرق والغرب ـ وداد سكاكيني وتماضر توفيق ـ مؤسسة فرانكلين ـ القاهرة ١٩٥٩ .

منشورات جمعيّة الندوة الثقافيّة النسائيّة بدمشق

١ ـ سابقات العصر : تأليف وداد سكاكيني .

٢ ـ ديوان عزيزة هارون : إعداد عفيفة الحصني .

٣ ـ قلها وامشِ : تأليف شوقي بغدادي .

٤ ـ الأم : ترجمة سعد صائب .

٥ ـ الحب بين المسلمين والنصارى في التاريخ : لعبد المعين الملوحي .

٦ ـ الشجرة التي غرستها أمي (سيرة ذاتية) : للدكتور بديع حقي .

٧ ـ دمشق ذاكرة الانسان والحجر : تأليف الدكتورة ناديا خوست .

٨ ـ شخصيات أدبية : تأليف الدكتور ابراهيم الكيلاني .

٩ ـ رسالة المرأة : تأليف عفيفة الحصني .

١٠ ـ أديبات عربيات : تأليف عيسى فتوح .

طبع هذا الكتاب باشراف جمعية الندوة الثقافية النسائية استجابة لرغبة المتبرعين لها لطباعة كتب لأدباء مرموقين اعتزازاً بهم ، وتقديراً لهم ولأدباء شباب تشجيعاً لهم وتقديراً لمواهبهم ، وهي تشكر جميع من آزروها بمشروعها الثقافي هذا وخاصة :

السيدة الكريمة خيرية رضا سعيد المحترمة

الفهرس

الموضوع .... الصفحة



المؤلف في سطور

- ولد في ٣/٦/١٩٣٥ في قرية بقرعونة (مشتى الحلو) محافظة طرطوس .
- تلقى دراسته الابتدائية في الكفرون والاعدادية في مشتى الحلو، والثانوية في دمشق .
- انتسب إلى كلية الآداب (قسم اللغة العربية) بجامعة دمشق عام ١٩٥٦ ونال منها الليسانس عام ١٩٦٠ .
- انتسب بعد ذلك إلى كلية التربية ونال منها شهادة الدبلوم العامة في التربية عام ١٩٦١ .
- عمل في التدريس بين عامي ١٩٦١ و١٩٨٢ في محافظات إدلب واللاذقية ودمشق .
- مارس الصحافة الأدبية في العديد من الصحف والمجلات السورية والعربية، وكتب مئات الدراسات الأدبية والنقدية .
- عمل رئيساً لتحرير مجلة «صوت المعلمين» ثم أميناً لتحرير مجلة «بناة الأجيال» في نقابة المعلمين .
- أصدر ثلاثة عشر كتاباً في أدب الأطفال والنقد الأدبي .
- انتسب إلى اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٠ (جمعية النقد الأدبي).
- نال وسام الشاعر «نيكولاي فابتزاروف» من بلغاريا ، ووسام «الصداقة بين الشعوب» من المانيا .